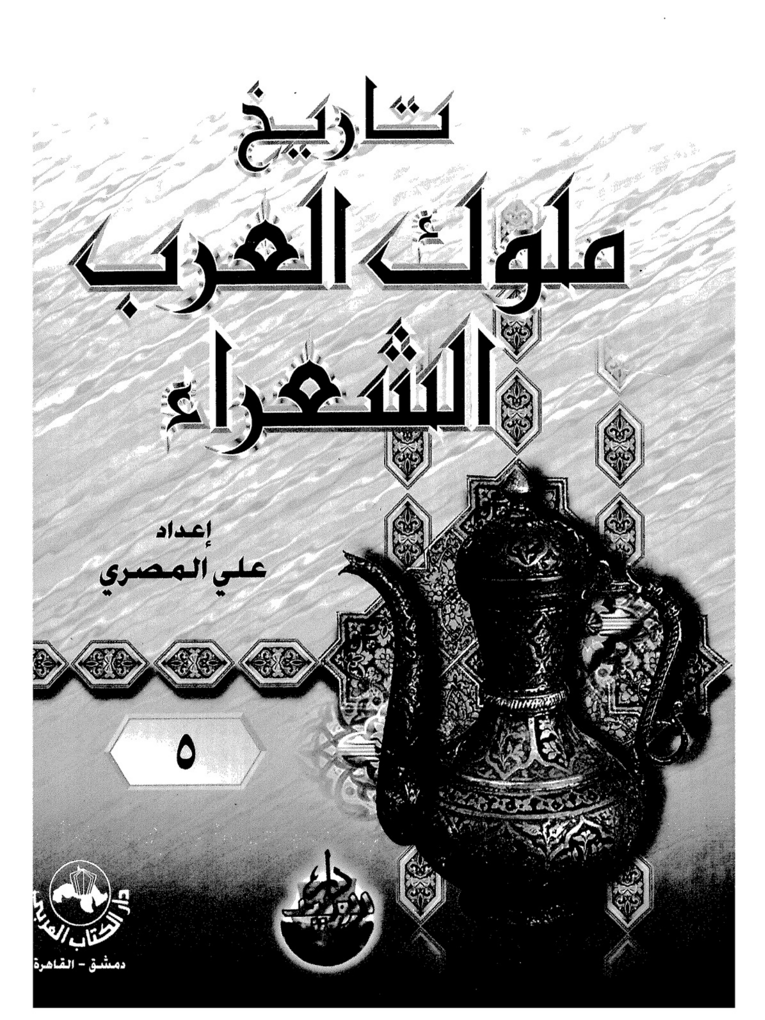

تاريخ
ملوك العرب
الشعراء
إعداد
علي المصري
٥
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة




تاريخ
ملوك العرب الشعراء

تاريخ
ملوك العرب الشعراء

إعداد

علي المصري

الجزء الخامس



دار الكتاب العربي



جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٢١ ـ ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١م



دار الكتـــاب العـــربي /

دمشق· الحلبوني ـ هاتف ٢٢٣٥٤٠١

القاهرة· ٥٢ ش عبد الخالق ثروت، شقة ١١

تلفاكس ٣٩١٦١٢٢

لبنان ص.ب ٣٠٠٤٣ هاتف ٠٣/٦٥٢٢٤١

محتوى الجزء الخامس

الباب السابع
الدولة الأموية في الأندلس
وملوك الطوائف
الفصل الأول

ويتضمن :

آ ـ الأندلس جغرافياً وتاريخياً .

ب ـ تاريخ العرب في الأندلس .

١ ـ مقدمة

٢ ـ الفتح العربيّ

٣ ـ أعصر الحكم في الأندلس

١" ـ عصر الولاة العرب زمن بني أمية

٢" ـ الدولة الأمويّة في الأندلس

٣" ـ ملوك الطوائف في الأندلس

آ ـ بنو جهور بقرطبة
ب ـ بنو عبّاد بإشبيلية
جـ ـ بنو حماد في مالقة
د ـ بنو الأفطس ببطليوس
هـ ـ بنو هود بسرقسطة
و ـ بنو زيري بن ميادة بغرناطة
ز ـ بنو صمادح في المرية
حـ ـ الدولة العامرية في بلنسيه
ط ـ دولة ذي النون في طليطلة
٤" ـ دولة المرابطين
٥" ـ دولة الموحِّدين
٦" ـ دولة بني الأحمر
٤ ـ سمات هذه الأعصر .

الفصل الثاني

الدولة الأموية في الأندلس

آ ـ عصر الإزدهار ، ويتضمَّن تسعة خلفاء .

١ ـ عبد الرحمن الداخل ١١٣ ـ ١٧٢ هـ/٧٢٩ ـ ٧٨٨م .
٢ ـ هشام بن عبد الرحمن الداخل ١٣٩ ـ ١٨٠ هـ/٧٥٦ ـ ٧٩٦ م .
٣ ـ الحكم بن هشام الأوّل بن عبد الرحمن الداخل ١٥٤ ـ ٢٠٦ هـ/٧٧٠ ـ ٨٢٢ م .
٤ ـ عبد الرحمن الثاني بن الحكم ١٧٦ ـ ٢٣٨ هـ/٧٩١ ـ ٨٥٢ م .

٥ ـ محمّد بن عبد الرحمن الثاني بن الحكم ٢٠٦ ـ ٢٧٣ هـ/ ٨٢٠ ـ ٨٨٦ م .

٦ ـ المنذر بن محمّد بن عبد الرحمن الثاني ٢٢٩ ـ ٢٧٥ هـ/٨٤٢ ـ ٨٨٧ م .

٧ ـ عبدالله بن محمّد بن عبد الرحمن الثاني ٢٢٩ ـ ٣٠٠ هـ/٨٤٣ ـ ٩١٢ م .

٨ ـ عبد الرحمن الثالث بن محمد بن عبدالله «الناصر» ٢٧٧ ـ ٣٥٠ هـ/٨٩٠ ـ ٩٦١ م .

٩ ـ الحكم الثاني بن عبد الرحمن الناصر «المستنصر» ٣٠٢ ـ ٣٦٦ هـ/٩١٤ ـ ٩٧٦ م .

ب ـ عصر التقهقر والإنحلال ويتضمّن سبعة خلفاء .

١٠ ـ هشام الثاني بن الحكم الثاني «المؤيّد» ٣٤٦ ـ ٣٩٩ هـ/٩٥٦ ـ ١٠٠٩ م .

ومحمد بن عبدالله الملقب بالمنصور بن أبي عامر ٣٢٦ ـ ٣٩٢ هـ/٩٣٨ ـ ١٠٠٢ م .

١١ ـ محمّد بن هشام بن عبد الجبّار بن عبد الرحمن الناصر «المهديّ» ٣٦٦ ـ ٤٠٠ هـ/٩٧٧ ـ ١٠١٠ م .

١٢ ـ سليمان بن الحكم الثاني بن الناصر «المستعين بالله» ٣٥٤ ـ ٤٠٧ هـ/٩٦٥ ـ ١٠١٦ م .

١٣ ـ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر الأموي ٣٦٨ ـ ٤٠٨ هـ/٩٧٨ ـ ١٠١٨ م .

١٤ ـ عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الأموي ٣٩٢ ـ ٤١٤ هـ/١٠٠٢ ـ ١٠٢٤ م .

١٥ ـ محمّد بن عبد الرحمن بن عبيدالله بن الناصر «المستكفي بالله» ٣٦٦ ـ ٤١٦ هـ/٩٧٦ ـ ١٠٢٥ م .

١٦ ـ هشام الثالث بن محمّد بن بعد الملك بن الناصر «المعتد بالله» ٣٦٤ ـ ٤٢٨ هـ/٩٧٤ ـ ١٠٣٦ م .

الفصل الثالث

عصر ملوك الطوائف

١ ـ ملوك دولة بني جهور بقرطبة

آ ـ أبو الحزم بن جهور ٣٦٤ ـ ٤٣٥ هـ/٩٧٤ ـ ١٠٤٤ م .

ب ـ أبو الوليد محمد بن جهور ٣٩١ ـ ٤٥٦ هـ/١٠٠٠ ـ ١٠٦٤ م .

جـ ـ عبد الملك بن محمد بن جهور ٤٢٠ ـ ٤٧٢ هـ/١٠٢٨ ـ ١٠٨٠ م .

٢ ـ ملوك بني الأفطس ببطليوس .

عمر المتوكل ، بن محمد المظفر ، بن عبدالله بن محمد بن مسلمة أبو حفص التجيبي ٤٢٠ ـ ٤٨٩ هـ/١٠٢٨ ـ ١٠٩٤ م

٣ ـ ملوك بني هود بسرقسطة

آ ـ أحمد المقتدر ٤١٥ ـ ٤٣٥ ـ ٤٧٤ هـ/١٠٢٣ ـ ١٠٤٣ ـ ١٠٨١ م .

٤ ـ ملوك بني حمّود بقرطبة .

آ ـ علي بن حمّود الملقب بالناصر لدين الله ٣٥٤ ـ ٤٠٨ هـ/٩٦٥ ـ ١٠١٨ م .

ب ـ وأخوه القاسم بن حمّود الملقب بالمأمون ٣٥١ ـ ٤٣١ هـ/٩٦٢ ـ ١٠٤٠ م .

جـ ـ يحيى بن علي بن حمود الملقب بالمعتلي بالله ٣٨٥ ـ ٤٢٧ هـ/٩٩٥ ـ ١٠٣٥ م .

٥ ـ ملوك دولة بني عبّاد باشبيلية .

آ ـ محمّد بن إسماعيل بن عبّاد ٣٦٠ ـ ٤٣٣ هـ/٩٧٠ ـ ١٠٤٢ م .

ب ـ عبّاد بن إسماعيل الملقب «بالمعتضد بالله» ٤٠٤ ـ ٤٦١ هـ/١٠١٣ ـ ١٠٦٩ م .

حـ ـ محمد بن عبدالله بن محمد ، ابن إسماعيل الملقب «بالمعتمد على الله» ٤٣١ ـ ٤٨٨ هـ/١٠٤٠ ـ ١٠٩٥ م .

آ ـ نشأته .

ب ـ الشعراء الذين صحبوا المعتمد بن عبّاد .

جـ ـ ضعف عرب الأندلس وزوال دولة بني عبّاد .
د ـ ما حدث بعد الزلّاقة .
هـ ـ أسر المعتمد في أغمات .
و ـ شاعرية المعتمد .
ز ـ قيمة شعر المعتمد .
حـ ـ أولاد المعتمد وأمهم .

الباب السابع
الدولة الأموية في الأندلس
وملوك الطوائف

الفصل الأول

آ ـ الأندلس جغرافياً وتاريخياً .

ب ـ تاريخ العرب في الأندلس .

١ ـ مقدمة

٢ ـ الفتح العربيّ

٣ ـ أعصر الحكم في الأندلس

١" ـ عصر الولاة العرب زمن بني أمية

٢" ـ الدولة الأمويّة في الأندلس

٣" ـ ملوك الطوائف في الأندلس

آ ـ بنو جهور بقرطبة

ب ـ بنو عبّاد بإشبيلية

جـ ـ بنوحماد في مالقة

د ـ بنو الأفطس ببطليوس

هـ ـ بنو هود بسرقسطة

و ـ بنو زيري بن ميادة بغرناطة

ز ـ بنو صمادح في المرية

ح ـ الدولة العامرية في بلنسيه

ط ـ دولة ذي النون في طليطلة

٤" ـ دولة المرابطين

٥" ـ دولة الموحِّدين

٦" ـ دولة بني الأحمر

٤ ـ سمات هذه الأعصر .

الفصل الثاني

الدولة الأموية في الأندلس

أ ـ عصر الإزدهار ، ويتضمَّن تسعة خلفاء .

١ ـ عبد الرحمن الداخل ١١٣ ـ ١٧٢ هـ/٧٢٩ ـ ٧٨٨م .

٢ - هشام بن عبد الرحمن الداخل ١٣٩ - ١٨٠ هـ/٧٥٦ - ٧٩٦ م .

٣ - الحكم بن هشام الأوّل بن عبد الرحمن الداخل ١٥٤ - ٢٠٦ هـ/٧٧٠ - ٨٢٢ م .

٤ - عبد الرحمن الثاني بن الحكم ١٧٦ - ٢٣٨ هـ/٧٩١ - ٨٥٢ م .

٥ - محمّد بن عبد الرحمن الثاني بن الحكم ٢٠٦ - ٢٧٣ هـ/٨٢٠ - ٨٨٦ م .

٦ - المنذر بن محمّد بن عبد الرحمن الثاني ٢٢٩ - ٢٧٥ هـ/٨٤٢ - ٨٨٧ م .

٧ - عبدالله بن محمّد بن عبد الرحمن الثاني ٢٢٩ - ٣٠٠ هـ/٨٤٣ - ٩١٢ م .

٨ - عبد الرحمن الثالث بن محمد بن عبدالله «الناصر» ٢٧٧ - ٣٥٠ هـ/٨٩٠ - ٩٦١ م .

٩ - الحكم الثاني بن عبد الرحمن الناصر «المستنصر» ٣٠٢ - ٣٦٦ هـ/٩١٤ - ٩٧٦ م .

ب - عصر التقهقر والإنحلال ويتضمّن سبعة خلفاء .

١٠ ـ هشام الثاني بن الحكم الثاني «المؤيّد» ٣٤٦ ـ ٣٩٩ هـ/٩٥٦ ـ ١٠٠٩ م .

ومحمد بن عبدالله الملقب بالمنصور بن أبي عامر ٣٢٦ ـ ٣٩٢ هـ/٩٣٨ ـ ١٠٠٢ م .

١١ ـ محمّد بن هشام بن عبد الجبّار بن عبد الرحمن الناصر «المهديّ» ٣٦٦ ـ ٤٠٠ هـ/٩٧٧ ـ ١٠١٠ م .

١٢ ـ سليمان بن الحكم الثاني بن الناصر «المستعين بالله» ٣٥٤ ـ ٤٠٧ هـ/٩٦٥ ـ ١٠١٦ م .

١٣ ـ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر الأموي ٣٦٨ ـ ٤٠٨ هـ/٩٧٨ ـ ١٠١٨ م .

١٤ ـ عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الأموي ٣٩٢ ـ ٤١٤ هـ/١٠٠٢ ـ ١٠٢٤ م .

١٥ ـ محمّد بن عبد الرحمن بن عبيدالله بن الناصر «المستكفي بالله» ٣٦٦ ـ ٤١٦ هـ/٩٧٦ ـ ١٠٢٥ م .

١٦ ـ هشام الثالث بن محمّد بن عبد الملك بن الناصر «المعتد بالله» ٣٦٤ ـ ٤٢٨ هـ/٩٧٤ ـ ١٠٣٦ م .

الفصل الثالث

عصر ملوك الطوائف

ملوك دولة بني جهور بقرطبة

أ ـ أبو الحزم بن جهور ٣٦٤ ـ ٤٣٥ هـ/٩٧٤ ـ ١٠٤٤ م .

ب ـ أبو الوليد محمد بن جهور ٣٩١ ـ ٤٥٦ هـ/١٠٠٠ ـ ١٠٦٤ م .

جـ ـ عبد الملك بن محمد بن جهور ٤٢٠ ـ ٤٧٢ هـ/١٠٢٨ ـ ١٠٨٠ م .

٢ ـ ملوك بني الأفطس ببطليوس .

عمر المتوكل ، بن محمد المظفر ، بن عبدالله بن محمد بن مسلمة أبو حفص التجيبي ٤٢٠ ـ ٤٨٩ هـ/١٠٢٨ ـ ١٠٩٤ م

٣ ـ ملوك بني هود

ـ أحمد المقتدر ٤١٥ ـ ٤٣٥ ـ ٤٧٤ هـ/١٠٢٣ ـ ١٠٤٣ ـ ١٠٨١ م .

٤ ـ ملوك بني حمّود بقرطبة .

ـ علي بن حمّود الملقب بالناصر لدين الله ٣٥٤ ـ ٤٠٨ هـ/٩٦٥ ـ ١٠١٨ م .

- وأخوه القاسم بن حمّود الملقب بالمأمون ٣٥١ - ٤٣١ هـ/٩٦٢ - ١٠٤٠ م .

- يحيى بن علي بن حمود الملقب بالمعتلي بالله ٣٨٥ - ٤٢٧ هـ/٩٩٥ - ١٠٣٥ م .

٥ - ملوك دولة بني عبّاد باشبيلية .

آ - محمّد بن إسماعيل بن عبّاد ٣٦٠ - ٤٣٣ هـ/ ٩٧٠ - ١٠٤٢ م .

ب - المعتضد بالله بن عبّاد ٤٠٤ - ٤٦١ هـ/١٠١٣ - ١٠٦٩ م .

حـ - المعتمد على الله بن عبّاد ٤٣١ - ٤٨٨ هـ/١٠٤٠ - ١٠٩٥ م .

- نشأته
- الشعراء الذين صحبوه
- ضعف عرب الأندلس وزوال دولة بني عبّاد
- ما حدث بعد الزلاقة
- المعتمد في أغمات
- شاعريّة المعتمد وشعره
- قيمة شعر المعتمد
- أولاد المعتمد وأمّهم

الفصل الأول

أ ـ الأندلس جغرافياً وتاريخياً .

ب ـ تاريخ العرب في الأندلس .

١ ـ مقدمة

٢ ـ الفتح العربيّ

٣ ـ أعصر الحكم في الأندلس

١" ـ عصر الولاة العرب

٢" ـ عصر الدولة الأمويّة

٣" ـ عصر ملوك الطوائف

أ ـ بنو جهور بقرطبة

ب ـ بنو عبّاد بإشبيلية

جـ ـ بنوحماد في مالقة

د ـ بنو الأفطس ببطليوس

هـ - بنو هود بسرقسطة

و - بنو زيري بن ميادة بغرناطة

ز - بنو صمادح في المرية

ح - الدولة العامرية في بلنسيه

ط - دولة ذي النون في طليطلة

٤" - دولة المرابطين

٥" - دولة الموحِّدين

٦" - دولة بني الأحمر

٤ - سمات هذه الأعصر.

أ ـ الأندلس جغرافياً وتاريخياً

أُخِذت كلمة أندلس من «أندلوشيا» وأصلها «فاندلوشيا» نسبة إلى «الفندال» وهو اسم للشعب الذي نزل إلى هذه البلاد في القرن الخامس الميلاديّ . وقد أطلق العرب كلمة الأندلس على جميع البلاد المعروفة الآن باسم «اسبانيا والبرتغال» فهي شبه الجزيرة الشامل لهاتين المملكتين ، الواقعة بين خطي عرض ٣٦ و٤٣ شمالاً . وكثيراً ما يطلقون عليها «جزيرة الأندلس» تساهلاً ، كما سمُّوا جزيرة العرب .

وسمِّيت اسبانيا أخذاً من «إشبان» ملك الروم الذي أَسَّسَ مدينة إشبيليا ، فسمَّاها الرومان إسبانيا ، في حين يُسمِّيها اليونان إيبيريا ، والعرب يسمونها الأندلس ، وإن كان اسم الأندلس إنما يطلق على الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة فحسب .

فتح العرب الأندلس سنة اثنتين وتسعين للهجرة في خلافة الوليد بن عبدالملك . وازدهرت فيها الحضارة العربيّة طيلة ثمانية قرون ونيِّف ٩٢ ـ ٨٩٧ هـ ، وهم الذين أثَّلوا المدنيّة والعمران والمجد فيها ، ومنها انبثق النور

والعرفان في العصر القديم ، ليضيءَ ظلمات أوروبا ، ويدعو إلى تحرير العقول والأفكار والأرواح ، وإلى حياة جديدة تقضي على الجهل والرجعيَّة والاقطاع والجمود .

وغدت الأندلس منبع الحضارة والارتقاء ، بفضل ساستها العرب ، وأمرائها العرب ، ومفكرِّيها العرب ، وعلمائها العرب ، ومدنهم الجميلة الرائعة التي شيَّدوها كقرطبة ، واشبيلية ، وطليطلة ، وغرناطة ، وجيَّان ، وشَلَب ، وكلُّها تقع على حوض الوادي الكبير ، وغيرها من المدن العريقة . وأمَّا المِريةُ ، ومرسية ، وبلنسية ، ومالقة ، ودانية ، وشاطبة ، وبرشلونة ، وطرطوشة فتقع على الساحل المشرف على البحر الأبيض المتوسط . في حين أن طليطلة ومدريد تقعان داخل الهضبة الأندلسية .

وكانت الأندلسُ مدَّةَ الدولة الأموية قُبَّةَ الإسلام . وملاذَ أعلام الأنام ، بها استقرَّ سريرُ الخلافة الأمويّة المروانيّة ، وفيها تمخّضت خلاصةُ القبائل المعديَّة اليمانيّة ، وإليها كانت الرحلة في الرواية ، إذْ كانت مركزَ الكرماء ، ومعدِنَ العلماء ، ولم تبلغ مدينة من مدن الإسلام من العزِّ والحضارة ما بلغته قرطبة ، عدا بغداد ودمشق .

فمن مدنها العريقة خرج أئمةُ الفكر والعلم والأدب والفلسفة ، خلال العصور السالفة الزاهية ، التي حكم فيها العرب الأندلس . الأندلس الشهيدةُ التي تآمر عليها وعلى حضارتها أعداءُ الإسلام من المتعصِّبين ، فأحرقوا مدنَها ، وهدَّموا جامعاتِها ، وبدَّدوا مكتباتها ، وشرَّدوا أهلها ، وقضوا على آثار الحضارة فيها ظلماً وجهلاً واستبداداً ، ممّا لا نسمّية حركة تحرير ، لأنَّ الشعب الاسبانّي كان قد اختلط حينئذٍ بالشعب العربيّ ، وصار أهل البلاد شعباً واحداً له خصائصه

الفكريّة والثقافيّة ، لأنَّ حركة التحرير لا ترادف الجهل والرجعيّة والوحشيّة ، ولا تعني سفك الدماء ، وتمزيق الأشلاء ، وهدم الجامعات ، وحرق المكتبات ، واستباحة الأعراض ، وانتهاك الحرمات ، والقضاء على شعب كبير له تاريخه وسماته وخصائصه في تاريخ الحضارة الأنسانيّة .

والكلّ في العالم يعلم أنّه لولا معركة تور ، لما تأخَّرتِ النهضة الأوربيّة نحو تسعة قرون طوال . هذه المعركة التي أدَّت إلى انتكاس الإنسانيّة والحضارة بانتصار شارل مارتل على عبد الرحمن الغافقي خريف سنة ٧٣٢ م ـ ١١٤ هـ . ويشهد على ذلك ما قاله فيها مسيو كلود فارير ، الأديب الفرنسي الأشهر : «في سنة ٧٣٢ م ١١٤ هـ حدثت فاجعة ربَّما كانت أشأمَ الفجائع التي انقضَّت على الإنسانية في القرون الوسطى ، وكان منها أن غمرت العالم الغربيَّ ، مدة سبعة قرون أو ثمانية إنْ لم نقل أكثر ، طبقةٌ عميقة من التوحُّش لم تبدأ بالتبدُّدِ إلاّ على عهد النهضة «رونسانس» . . هذه الفاجعة هي التي أُريد أن أمقتَ حتى ذكرها ، وأعني بها الانتصار البغيض ، الذي ظفر به على مقربة من بواتيه ، أولئك البرابرة المحاربون من الافرنج بقيادة الكار ولنجي شارل مارتل ، على كتائب العرب المسلمين الذين لم يُحسْن عبد الرحمن الغافقي جمعهم على ما ينبغي من الكثرة ، فانهزموا راجعين أدراجهم . في ذلك اليوم المشؤوم تراجعت المدنيّة ثمانية قرون إلى الوراء . ويكفي المرء أن يطوف في حدائق الأندلس ، أو بين الآثار العربية التي لا تزال تأخذ بالأبصار وممَّا يبدو من عواصم السحر والخيال ؛ اشبيلية ، وغرناطة ، وقرطبة ، وطليطلة ، ليشاهدَ ـ والألم الغريب آخذ منه ـ ما عساها أن تكون بلادنا الفرنسيّة ، لو أنقذ الإسلام العمرانيّ الفلسفيّ السلميّ المتسامح ـ لأسلم مجموعة كل هذا ـ فخلَّصها من الأهاويل التي لا أسماء لها ، وكان من ذلك أن نتج خراب (غاليا) القديمة ، التي استعبدها أولاً لصوصٌ أو سترازيا ، ثم اقتطع جزءاً منها

قرصان النورمانديّين ، ثم تجزأت وتمزّقت وغرقت في دماء ودموع ، وفرغت من الرجال بما انبعث في أرجائها من الدعوة للحروب الصليبيّة ، ثم انتفخت بالأشلاء والجثث بما دهمتها من الحروب الخارجيّة والأهليّة الكثيرة العدد . حدث ذلك في حين كان العالم الإسلامي من نهر الوادي الكبير في أوروبا ، إلى نهر السند في قلب آسيا ، يزدهر كلّ الازدهار في ظلّ الإسلام . . ليس ما كتبته فصلاً من التاريخ الرسمي ، بل هو التاريخ الحقيقي الذي يتعلّمه المرءُ بنفسه ، وممّا يجتازه من بحار ، ويقطعه من فيافٍ وآفاق ، ويقلّبه من خزائن الكتب الأجنبيّة ، وليس هذا بعزيز على حياة سائح يريد أن يفضح ـ عقب رحلة له ـ ما كان يلمسه بأطراف بنانه من تلك الأكاذيب الكبرى السفيهة التي أراد معلمونا ـ ولا يزالون يريدون ـ وضعها أمام أعيننا كأنّها حقيقة ، بل هي الحقيقة» .

هذه شهادةُ باحثٍ ومؤرِّخ شهير يدلي بها للتاريخ الإنساني والحضارة البشرية على هذا الكوكب لتعيش ، بكل أمانةٍ وصدق ، لا قصد له إلاّ تصوير الحقيقة التي حاول أعداءُ الإسلام والعروبة والإنسان أن يطمسوها .

وهذه شهادة أخرى لأديب فرنسي آخر ، لاحظَ وأحسَّ ، فأراد أن يترجم إحساسه ، إنه المسيو هنري دي سامبوت ، مدير مجلة (ريفو بار لمنتير) هذه الشهادة الصريحة ، فيقول : «لولا انتصار جيش شارل مارتل الهمجيّ على تقدُّم العرب في فرنسا ، لما وقعت فرنسا من ظلمات القرون الوسطى ، ولما أصيبت بفظائعها ، ولما كابدت المذابح الأهليّة الناشئة عن التعصُّب الدِّيني والمذهبيّ ، ولولا ذلك الانتصار البربري على العرب لنجت اسبانيا من وطأة محاكم التفتيش ، ولولا ذلك لما تأخّرت سيرُ المدنيّة ثمانية قرون . إنّنا مدينون للشعوب العربية بكلِّ محامد حضارتنا : في العلم ، والفن ، والصناعة ، مع أننا نزعم اليوم أنَّ لنا حقَّ السيطرة على تلك الشعوب العريقة في الفضائل ، وحسبها أنّها مثال الكمال

البشري مدّة ثمانية قرون ، بينما كنا يومئذ مثال الهمجيّة . وإنّه لكذبٌ وافتراء ما ندّعيه من أنَّ الزمان قد اختلف ، وأنَّهم صاروا يمثِّلون اليوم ما كنا نمثله نحن فيما مضى» .

ونعلم كذلك أنّه لولا التعصُّبُ المسيحيّ في اسبانيا ، ومأساة طرد العرب منها ، وما صنعتُه محاكم التفتيش في أهلها العرب المسلمين وغيرهم ، لولا ذلك كلِّه لكانت اسبانيا اليوم أعزَّ دولةٍ في العالم ، ولما تأخَّر بدءُ النهضة في أوربا ، وما أجلَّ ما يقوله نيتشه فيلسوف ألمانيا الشهر : «لقد حرمتنا المسيحيّة ميراث العبقريّة القديمة ، ثم حرمتنا بعد ذلك الإسلامَ ، لقد ديست بالأقدام تلك المدنيّة العظيمة ، مدنية الأندلس المغربيّة ، ولماذا ؟ لأنها نشأتْ من أصول رفيعة ، ومن غرائز شريفة ، نعم من غرائز رجال . إن تلك المدنيّة الإسلاميّة لم تنكر الحياة ، بل أجابتها بالإيجاب ، وفتحت لها صدرها» .

وفي تصوير مدى الجرم الإنساني الفظيع الذي ارتكبه الإسبانيّون في حقّ العرب ، ليس فحسب ، بل بحقِّ الإنسانيّة جمعاء ، يقول الأستاذ محمد عبدالله عنان في كتابه ديوان التحقيق : «في سنة ١٤٩٩ م ذهب الكردينال كمنيس إلى غرناطة ، وحث مطرانها إلاون تالافيرا ، على اتِّخاذ وسائل جديدة لتنصير المسلمين . وجمعَ فقهاء المدينة وشرح لهم أصول النصرانيّة ، ودعاهم إلى اعتناقها ، وأغدق عليهم التحف والهدايا ، فأقبل بعضهم على التَّنصر إمّا اتّقاء الاضطهاد ، أو اغتناماً للحظوة ، وتبعهم جماعة كبيرة من العامّة . ولما حاول بعض الأعيان المسلمين التدخُّل والاحتجاج بأن هذه السياسة تنافي روح العهود المقطوعة ونصوصها ، أجاب كمنيس بالوعيد ، وهدَّد باتباع الشدّة والعنف ، وعمد إلى ارتكاب جريمة من أشنع الجرائم البربريّة ـ لا يدانيها غير جرائم البرابرة الموغول حين اقتحموا بغداد ـ إذْ أَمَرَ بجمع كلِّ ما يستطاع جمعه من الكتب

العربيّة ، ونظمت أكداساً في أكبر ساحات المدينة ، وكان منها عدد كبير من المصاحف المزخرفة وكتب الفقه والكلام ، ومنها أيضاً كثير من كتب الآداب والعلوم ، وأضرمت فيها النار جميعاً ، ولم يستثن منها سوى ثلثمئة كتاب في الطبّ» .

ويختلف المؤرخون في تقدير عدد المخطوطات العربية التي ذهبت فريسة هذه الجريمة الانسانية الشائنة . فيقدرها بعضهم بأكثر من مليون ، ولكن كوندي يقدرها بثمانين ألفاً ، وتقديره أرجح وأقرب إلى المعقول ، لأن المكتبة الأموية الشهيرة في قرطبة لم تزد على ستمئة ألف مجلد . وقد بُددت هذه المجموعة الكبيرة أيام ثورات البربر واقتحامهم لقرطبة ، ولم يجتمع في غرناطة في مجموعة واحدة مثل هذا القدر ، ولكن أُنشئت بها مجموعات مختلفة ما بين خاصة وعامة ، وكان طبيعاً أنها وهي مركز العلوم الإسلامية ، بعد قرطبة ، أن تحتوي على أنفس الآثار الإسلاميّة من حيث التفكير والفنون ، ويؤيّد كوندي تقديره بقرائن وشواهد لابأس بها[1] .

---

(١) انظر ديوان التحقيق لمحمد عبدالله عنان صفحة ٣٥ ودائرة معارف قصة الأدب في الأندلس لمحمد عبد المنعم خفاجة ١٢ ومابعد .

ب ـ تاريخ العرب في الأندلس

١ ـ مقدّمة :

دخلت إلى بلاد الأندلس في عصور التاريخ الأولى ، قبائل من الجلاقة والسلت والبسك ، واستقرَّ البعض على الشواطى الساحلية . ثم هاجرت إليها سلالات حاميَّةٌ من البربر سكّان إفريقيا . وقبل الميلاد بعشرة قرون ، دلفت إليها سلالات ساميَّةٌ من الفينيقيّين الذين استوطنوا قرطاجنة . وفي عصور الإغريق الأولى دخل إلى البلاد كثيرٌ من اليونانيّين . ثم استولى عليها الرومان في أوائل القرن الثالث الميلاديّ ، وأطلقوا عليها اسم هسبانيا ، وكانت حاضرتهم مدينة طالقة القريبة من اشبيلية ، واستمرَّ حكمهم لها زمناً طويلاً . ثم غلبتهم عليها قبائل الفندال الجرمانية التي أسَّستْ لها على نهر الوادي الكبير مملكةً سميِّت باسمهم فندلس ، ومن هذا الاسم أشتقَّ العربُ كلمة أندلس . ثم أغارت قبائل القوط على الفندال ، فنسخوا الحكم الفندلسي من البلاد ، واتَّخذوا مدينة طليطلة عاصمةً لملكهم ، وقد دام القوط في حكمهم لها ثلاثةَ قرون ، بلغ فيها منتهى الفخامة والترف ، وفي عهدهم انتشر الدين المسيحيّ ، بعد أن تغلَّب على الوثنيّة الأولى . وكان آخر ملوكهم رودريك الذي اغتصب العرش لنفسه ، وطغى

واستبدَّ وروَّعَ الشعب ، فهاجر الكثير منهم إلى بلاد الإمبراطوريّة الإسلاميّة ، ينعمون في ظلالها بالعدل والأمن والحريّة . وفي عهد رودريك هذا افتتح العرب المسلمون الأندلس بمساعدة أبنائها ، تخلُّصاً من هذا الحاكم الجائر ، ورغبة في الأمن والسلام والرفاهيّة في ظلال الحكم الإسلاميّ النبيل[1] .

٢ ـ الفتح العربي :

فتح العرب المسلمون مصر عام ٢٠ هـ ، وتوغّلوا في شمال إفريقية بعد ذلك ، وأسّسوا مدينة القيروان عام ٥٠ هـ . واستمرّوا في فتوحاتهم حتى بلغَ عقبةُ بن نافع شاطىء بحر الظلمات ـ المحيط الأطلسي ـ ونزل بفرسه فيه ، وهو يقول : «اللّهم فاشهد لو كان وراء هذا البحر قومٌ لخضته إليهم» وظلّ والياً على شمال إفريقية .

وخلف موسى بن نصير عقبةَ بن نافع عام ٨٨ هـ في ولايته ، موفداً من قبل الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦ هـ) ، وكان موسى لا يقلُّ عزيمةً وهمَّةً عن عُقْبَةَ ، فتطلَّع إلى فتح جديدٍ يُجدِّدُ به معجزات البطولة العربيّة ، فلم يجد أمامه إلّا بلاد الأندلس .

في هذا الوقت بالذات كان على عرش اسبانيا رودريك الظالم ، حيث يتربَّصُ به شعبه ريب المنون ، وأنصار الملك المخلوع «ملك الجوت» الذي اغتُصِبَ عرشُه ، يدبِّرون له المكائد ، يُساعدهم حاكم سبتة الكونت يُلْيان الذائد عن شرفه وكرامته في قصة ابنته التي أغواها رودريك عن عفافها . فأخذ يرشدُ موسى بن نصير إلى مواطن الضعف من القوط ، ويُحَبِّبُ إليه فَتْحَ البلاد ، ويضعُ اسطوله تحت تصرفه .

---

(١) قصة الأدب في الأندلس لمحمد عبد المنعم خفاجي ١/٥١ وما بعد .

فأرسل موسى بن نصير مولاه طريفاً عام ٩١ هـ - ٧١٠ م ومعه خمسمئة مسلم اجتازوا الطريق المسمى الآن مضيق جبل طارق ، وكان العرب يسمُّونه بحر الزقاق ، على أربع سفن قدَّمها إليهم يوليان (جوليان) بعد أن زوَّدهم بأدِلّاء وعرَّفهم بعورات البلاد ومسالكها .

ونجحت سريةُ طريف ، وفتح بها المدينة الخضراء ، واستيقن موسى بنُ نصير من اخلاص جوليان ، ومن سهولة فتح البلاد . فأغرى هذا كلُّه موسى لفتح البلاد ، فاأرسل عام ٩٢ هـ - ٧١١ م طارق بن زياد في سبعةِ آلافٍ ، نزل بهم على الأرض الأندلسيّة على صخرة صارت تُسمَّى منذ ذلك الحين جبل طارق . واقتحم بهم طارقُ تلك البلاد بسهولة ويُسرٍ حتى وبدون مقاومة ، إلى أن وصل نهرَ جواديليت - نهر بقة - وإذا جيشٌ كثيفٌ زاحفٌ باتجاهم يقودُهُ رودريكُ نفسه ، في خمسة أمثال جيش طارق أو يزيد .

أعدَّ طارقٌ جيشه وعبَّأَهُ تعبئةً قِتالية ، وخطبَ فيهم خطبته المشهورة التي يعرفها كلُّ عربي ، ومنها : «أيُّها الناسُ ! أين المفرُّ ؟ البحر من ورائكم ، والعدوُّ منْ أمامكم ، وليس لكم والله إلاّ الصدق والصبر . واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيعُ من الأيتام في مأدبة اللئام . وقد استقبلكم عدوْكم بجيشه وأسلحته ، وأقواتُهُ موفورةٌ ، وأنتم لاوِزْرَ لكم إلاّ سيوفكم ، ولا أقواتَ إلاّ ما تستخلصونه من أيدي عدوِّكم . . . وقد انتخبكم الوليدُ ابن عبد الملك ، أمير المؤمنين ، من الأبطال عرباناً ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ، ثقةً منه بارتياحكم للطِّعان ، واستياحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون حظُّه منكم ثواب الله على إعلاءِ كلمته ، وإظهارِ دينه بهذه الجزيرة . . واعلموا أنِّي أوَّلُ مجيب إلى ما دعوتكم إليه ، وإني عند ملتقى الجمعين ، حاملٌ بنفسي على طاغية القوم رودريك «لذريق» فقاتِلُهُ إن شاء الله تعالى . فاحملوا معي ، فإن هلِكْتُ بعده فقد

كفيتكم أمره ، وإن لم يعوزكم بطلٌ عامل تسندون أموركم إليه ، وإن هلكت قبل وصولي إليه ، فاخلفوني في عزيمتي هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا من فتح هذه الجزيرة بقتله . . .»[1] .

ثم انقضُّوا على عدوِّهم كالصواعق ، وحاربوا جيوشَه سبعةَ أيّامٍ حتى انتصروا نصراً خالداً ، ورُئي حذاءُ لذريق وجوادُه على شاطىء النهر ، فقيل إنه مات غريقاً . وبعد أن تمَّ النصرُ ، وجَدَ طارقٌ من سهولة الفتح ما أغراه بالإمعان في أن يُثخن في الأرض ، فوالى حركاته الحربيّة ، وتوالت انتصاراتُه ، ثم أرسل سبعمئة من رجاله ففتحوا كروديا أي قرطبة .

ورأى طارقٌ أن يعاجل أعداءَه ويلاحقهم ، ويسرع إلى طليطلة قبل أن يولّوا عليهم ملكاً يجمع كلمتهم ويلمُّ شعثهم ، فتقدّم قاصداً طليطلة ، بعد أن فرَّق جيشه فرقاً ، فرقة إلى قرطبة ، وأخرى إلى مالقة ، وثالثة إلى غرناطة ، فاستولت كلّ فرقة على البلد الذي قصدته ، وسارَ هُوَ إلى طليطلة عاصمة البلاد ، فوجدَها مغلقة الأبواب ، حصينة الأسوار فحاصرها زمناً ، حتى اضطرَّ أهلها إلى الصلح ، فصالحهم على أنَّ لهم الحريَّة ، وهم أحرار في دينهم إن بقوا ، وترك لهم كنائسهم .

وبلغت هذه الانتصاراتُ الباهرةُ موسى بنَ نُصير ، فبادر يخبر الخليفة الوليد بما أفاءَ الله على جيش المسلمين ، ثم شَخَصَ في حملةٍ عسكرية كثيفة يُتمُّ الفتح ويساعد طارقاً ، فاستخلف ابنه عبد العزيز على القيروان وذلك عام ٩٣ هـ ، ولمَّا بلغ ميدان القتال وجد طارقاً قد كادَ يبلغ الشمال ، فاستدعاه إليه ، والتقيا عند مدينة تلافيرا ، فساط طارقاً على وجهه ، لأنه خالَفَ أوامره ، وتوسَّع في فتحه ،

(١) قصة الأدب في الأندلس لمحمد عبد المنعم خفاجة ١/٥٢ـ ٥٥ .

وأوْغَل بدماءِ السملمين بعيداً في أرض الفرنج . واستكان المولى إلى مولاه فلم يُبْدِ امتعاضاً ، وحمل طارق إليه الغنائم ، ونسب الفتح إلى موسى لأنَّ طارقاً من قِبَله ، ولأنه أتمَّ الفتح .

ولم يخلع موسى طارقاً ، ولم يستبدَّ هو بهذه القيادة ، بل اقتسما فتح البلاد بجيشهما فجعلا يشرِّقان ويغرِّبان ، ويصعدان وينحدران ، ويتلاقيان ويفترقان أربع سنين عدداً ، حتى ملكوا أواسطَ البلادِ وشرقَها وبلاد جيليقيا ـ البرتغال ـ في غربها ، ولم يتركا في الشمال إلَّا نفراً يسيراً من المسيحيِّين استهانا بهم ، وإن كانوا فيما بعد من أسباب البلاءِ على المسلمين والإسلام في الأندلس .

ويقول بعض المؤرِّخين إنَّه ، أي موسى ، إنَّما ضرب طارقاً بالسوط لأنَّه حسده أن يستأثر بهذا المجد العظيم دون سيِّده ، وأن ابن نُصير كان يحبُّ أن يكونَ هو الفاتحَ وليس طارقاً . والحقيقة أن موسى كان يخاف على المسلمين ، وكانت سياسته أن يتمَّ فتح البلاد بالتدريج ، وقدْ روي أن ابن نُصير قال لمولاه طارق عند اللقاء : كيف غرَّرْتَ بنفسك وبالمسلمين ولم تخف ألَّا أستطيع أن أُمدَّكَ بمال ولا رجال[1] ؟!

وأقام موسى بالأندلس مجاهداً ، وجامعاً للأموال والغنائم ، ومرتِّباً للأُمور إلى عام ٩٥ هـ ، وقبض على طارق ، ثم استخلف ابنه عبد العزيز ، وذهب إلى القيروان فدمشق ومعه طارق . ومات الخليفة الوليد بن عبد الملك عام ٩٦ هـ ، وموسى بطبريَّة من أرض فلسطين . وهناك من يقول إن موسى وصل دمشق وأدرَكَ الوليد حياً . وكان موسى من صنائع الوليد ، وكان الخليفة سليمان بن عبد الملك يحقد عليه . ولذلك لم يلبث أن تولى سليمانُ الخلافة ، فاتَّهم موسى بالخيانة

---

(١) قصة الأدب في الأندلس لمحمد عبد المنعم خفاجة ١/٥٥ ـ ٥٦ .

والغلول في الغنائم . واستخصم طارقٌ لديه بأنَّ موسى نَفَسَ عليه جهاده وبلاءه ، ويروى أن سليمان قال لموسى : من فتح الأندلس[1] ؟ فقال : أنا يا أمير المؤمنين . فقال طارق : سلْهُ يا أمير المؤمنين عن الرِجل المفقودة من مائدة سليمان أين هي ؟ فلم يعلم موسى عنها شيئاً . فقال طارق : هي عندي يا أمير المؤمنين ، وأحضرها ، فأقرُّوا له أنه فاتح الأندلس ، لامولاه ، ونفى سليمانُ موسى بنَ نصير إلى المدينة في الحجاز فمات فيها سنة ٩٨ هـ رحمه الله[2] .

---

(١) تاريخ الأندلس لعبد الفتاح بدوي طبعة ١٩٤٠ م .
(٢) قصة الأدب في الأندلس لمحمد عبد المنعم خفاجة ١/٥٦ .

٣ ـ أعصر الحكم في الأندلس

١ً ـ عصر الولاة العرب :

حكم الأندلسَ الولاةُ العرب للدولة الأموية بدمشق ، وعددهم عشرون ، حيث استمروا ستاً وأربعين سنة ٩٢ ـ ١٣٧ هـ ، وهم :

ـ طارق بن زياد ٩٢ هـ .

ـ موسى بن نصير ٩٣ ـ ٩٥ هـ .

ـ عبد العزيز بن موسى بن نصير ٩٥ ـ ٩٨ هـ وقد مات مقتولاً .

ـ أبو أيّوب ابن حبيب اللخمي ابن اخت موسى بن نصير ٩٨ ـ ١٠٠ هـ .

ـ الحر بن عبد الرحمن الثقفي ١٠٠ ـ ١٠٣ هـ . وكلّهم في عهد سليمان بن عبد الملك .

ـ السمح بن مالك ، من قبل عمر بن عبد العزيز ١٠٣ ـ ١٠٤ هـ وقد بنى قنطرة قرطبة وأوغل في فتح شمال اسبانيا مما يتاخم جنوب فرنسا ، حيث استشهد بالقرب من مدينة ليون ، ونجا قائد جيشه عبد الرحمن الغافقي .

ـ عنبسة بن سحيم الكلبي ١٠٤ ـ ١٠٨ هـ .

ـ عزرة بن عبد الله الفهري ١٠٨ هـ .

ـ يحيى بن سلمة ١٠٨ ـ ١٠٩ هـ .
ـ عثمان بن أبي نسعة ١٠٩ ـ ١١٠ هـ .
ـ حذيفة بن الأحوص ١١٠ ـ ١١١ هـ .
ـ الهيثم بن عدي ١١١ ـ ١١٢ هـ .
ـ عبد الرحمن الغافقي ١١٢ ـ ١١٤ هـ وهو بطل معركة تور عام ١١٤٣ هـ على أرض فرنسا على بعد أربعين كيلو متراً من باريس ، حيث قتل وهزم جيشه .
ـ عبد الملك بن قطن الفهري ١١٤ ـ ١١٦ هـ وقد عزل .
ـ عبدالله بن الحجاج السلولي ١١٦ ـ ١٢١ هـ ثمّ تلا ذلك عهد الثورات : كثورة ابن قطن في الأندلس ، وثورة كلثوم ابن عيّاض القشيري في المغرب ، ثم ثار الجنود البرابرة في الأندلس على ابن قطن حيث قتل .
ـ ثم تولًى حسام بن ضرار الكلبي ١٢٥ ـ ١٢٨ هـ .
ـ ثوابة بن سلامة الجذامي ١٢٩ ـ ١٣٢ هـ .
ـ يوسف بن عبد الرحمن الفهري ١٣٢ ـ ١٣٨ هـ .

ودخل عبد الرحمن الداخل الفارس الأموي صقر قريش ، بلاد الأندلس ، فاراً من دمشق بعد قيام الدولة العباسية ١٣٢ هـ ، واستولى على مقاليد الأمور فيها سنة ١٣٧ هـ حيث انتزعها بالقوة من يوسف الفهري .

ولم تكن الأندلس في عهد الولاة ذات صبغة خاصّة مستقلّة ، بل كانت تابعة لسياسة الدولة الأمويّة في دمشق ، وكان ولاتها يتلقّون التعليمات من الحاكم العربي الأكبر في القيروان ، الذي يأخذها بدوره من دمشق ، ويأخذون الولاية من هذا الحاكم ومن الخليفة نفسه ، وفي هذا العهد كثرت الفتوحات ، التي حمل لواءها القائد عبد الرحمن الغافقي[1] .

٢" ـ الدولة الأموية في الأندلس :

دخل الأندلس أموي طموح هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، الأموي واستولى على مقاليد الحكم فيها بالسياسة والدهاء سنة ١٣٨ هـ ، وكان أحد الذين تمكّنوا من النجاة من أيدي العباسيّين وطلبهم . ودخل إلى الأندلس في ربيع الآخر سنة ١٣٨ هـ ـ ٧٥٥ م ونودي به أميراً على الأندلس بتدبير اليمانيّة وجنود الشام فيها ، ثم سار إلى اشبيلية وانتصر فيها يوم عيد الأضحى سنة ١٣٨ هـ ـ ٧٥٦ م على جيوش أمير الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهريّ ، ثم تنازل الأخير لعبد الرحمن عن الإمارة على أن يأمن على نفسه وأتباعه ، ثم نكث يوسف فقتله عبد الرحمن وقتل الصميل ودخل قرطبة عاصمة البلاد في صفر سنة ١٣٩ هـ ـ تموز ٧٥٦ م ، كما انتصر على العلاء بن مغيث الذي دخل الأندلس والياً من قبل الخليفة المنصور عام ١٤٦ م ، وانتصر على أتباع يوسف الفهري في طليطلة ، وعلى اليمنيين ، وعلى ابن أبي الصباح حاكم اشبيلية ، وعلى البربر الثائرين ، وعلى كثير من الثورات الداخلية ، وعلى جيوش سالمان . وأسس لنفسه ولأحفاده دولة عظيمة ، واسعة الأرجاء ، وريِّقة الحضارة، امتدَّ حكمها نحو ثلاثة قرون ١٣٨ ـ ٤٢٨ هـ ، ولقّب نفسه وذريته بالأمراء أبناء الخلفاء ، حتى جاء عبد الرحمن الناصر ٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ فلقَّب نفسه أمير المؤمنين .

وتولّى الحُكمَ منهم ستّة عشَر أميراً في دورين تخللت بينهما دولة بني حمود حقبة صغيرة ، وهم :

١ ـ عبد الرحمن الداخل ١٣٨ ـ ١٧٢ هـ .

٢ ـ هشام الأوّل ابن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام ١٧٢ ـ ١٨٠ هـ .

٣ ـ الحكم الأول ابن هشام الأوّل ١٨٠ ـ ٢٠٦ هـ .

٤ ـ عبد الرحمن الثاني ابن الحكم الأوّل ٢٠٦ ـ ٢٣٨ هـ ، وفي عهده قدم زرياب المغنّي إلى الأندلس فأكرم وفادته .

٥ ـ محمّد الأوّل بن عبد الرحمن الثاني ٢٣٨ ـ ٢٧٣ هـ .

٦ ـ المنذر بن محمّد الأوّل ٢٧٣ ـ ٢٧٥ هـ .

٧ ـ عبدالله بن محمّد الأوّل ٢٧٥ ـ ٣٠٠ هـ .

٨ ـ وعبد الرحمن الثالث ابن محمّد الأول المسمّى بالناصر ٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ .

٩ ـ الحكم الثاني بن عبد الرحمن الناصر ٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ ولقّب بالمستنصر .

١٠ ـ وهشام الثاني بن الحكم الثاني ٣٦٦ ـ ٣٩٩ هـ . ولقّب بالمؤيّد وقد استبدَّ بالأمر في دولته حاجبه المنصور بن أبي عامر المتوفّى عام ٣٩٤ هـ .

١١ ـ ومحمّد بن هشام الثاني بن عبد الجبّار بن الناصر ٣٩٩ ـ ٤٠٠ هـ ولقّب بالمهديّ .

١٢ ـ سليمان بن الحكم ٤٠٠ ـ ٤٠٧ هـ ولقب بالمستعين بالله .

١٣ ـ عبد الرحمن الرابع ٤٠٧ ـ ٤١٢ هـ ولقب بالمرتضي .

١٤ ـ عبد الرحمن الخامس ٤١٤ ـ ٤١٤ هـ بن هشام «المستظهر» .

١٥ ـ محمد بن عبد الرحمن بن عبيدالله بن عبد الرحمن الناصر ٤١٤ ـ ٤١٦ هـ/١٠٢٣ ـ ١٠٢٥ م .

١٦ ـ وهشام الثالث ، المعتمد ٤١٦ ـ ٤٢٨ هـ .

وقد بلغت الدولة في عهد الأمويّين غاية كبيرة من الحضارة ، وخطب ودَّها ملوك الغرب ، وأصبحت قرطبة قبلة الملوك ، وكعبة العلماء ، وملاذ الحضارة والثقافة . ولقّب الناصر نفسه بالخليفة .

ولمّا ضعفت الدولة في آخر عهدها كان الحجاب هم كلُّ شيء في الدولة ، فالمنصور بن أبي عامر حاجب هشام الثاني ٣٦٦ ـ ٣٩٩ هـ كان بيده كلُّ الأمور ،

فلما مات عام ٣٩٤ هـ خلفه ابنه أبو مروان عبد الملك بن أبي عامر على الوزارة والحجابة لهشام ، ولقّب نفسه بالمظفَّر ، وكان أحرص الناس على جمع علوم الأدب واللغة والتاريخ ، وانتخب مما جمع له كتاباً كبيراً سمّاه المظفريّ ، واستمر أبناؤه يحكون بطليوس إلى عام ٤٨٥ هـ ، وكانت أيّامهم مواسم للأدب ، وملاذاً للعلم والعلماء ، وفيهم نظم الوزير ابن عبدون المتوفي عام ٥٢٠ هـ قصيدته الرائيّة المشهورة[1] .

وأشهر ملوك الأندلس هو عبد الرحمن الناصر الذي شجَّع العلوم والآداب والثقافة ، وبلغت الدولة في عهده ذروة مجدها ، وشيَّد القصور والمباني وجلب المياه واستدعى لذلك المهندسين من بغداد والقسطنطينيّة ، ثم بنى المتنزهات ، وأقام النواعير والنوافير ، ثمَّ اختطَّ مدينة الزهراء واتخذها منزله وكرسيّاً لملكه ، واتّخذ فيها مجالات للوحش فسيحة الفِناء ، ومسارح للطيور مظلّلة بالشباك ، واتّخذ فيها داراً لصناعة آلات السلاح للحرب ، والحلى للزينة ، وغيرها من المهن ، وضرب النقود ووضع اسمه عليها[2] .

٣" ـ ملوك الطوائف في الأندلس :

ظلَّ أمر الحكم في الأندلس لبني أميّة إلى سنة ٤٢٨ هـ وتولّى الحكم منهم ستّة عشر أميراً ، وكان سليمان المستعين بالله الأمويّ قد استعان بالقاسم وعليّ ابني حمود وهما أعقاب الأدارسة الذين حكموا المغرب من عام ١٧٢ هـ حتّى عام ٣١٣ هـ وذلك بعد انقراض دولة الأدارسة بفاس ، وجعلهما قائدين على البربر والعبيد في بعض حروبه ، ثم عقد للقاسم على الجزيرة الخضراء ، ولعلي على طنجة.

---

(١) قصة الأدب في الأندلس لمحمد عبد المنعم خفاجة .
(٢) تاريخ ابن خلدون ونفح الطيب ١٨٤/١ .

فطمع عليٌّ في الخلافة ، وادّعى أنّ هشام الثاني (٣٦٦ ـ ٣٩٩ هـ) كتب له بالعهد ، ودخل قرطبة ولقّب نفسه بالناصر ، وبقي حكم الأندلس بين بني حمّود وبني أميّة ستّ سنين ٤٢٢ ـ ٤٢٨ هـ وهو عام انتهاء الحكم الأمويّ في الأندلس ، وملك بني حمّود لها حيث استمرّ حكمهم لها حتّى عام ٤٥٠ هـ .

ثم حكم الأندلس ملوك الطوائف نحو ستّ وخمسين سنة ، بعد أن انقرض ملك الأمويّين ، وانفرط عقد الدولة ، وانتثر سلك الخلافة ، وقام في كلّ جهة أمير .

آ ـ وكان من أشهر الأمراء بنو جهور بقرطبة ٤٢٥ ـ ٤٦١ هـ ومنهم أبو الحزم بن جهور المتوفّى عام ٤٣٥ هـ وينتهي نسبهم إلى أبي عبدة الكلبي جدهم الذي قدم إلى الأندلس ، وكانوا ذوي شرف في قرطبة ، وتولّوا الوزارة أيّام المستنصر وبني عامر ، ولمّا خلت قرطبة من الأمويّين وبني حمود ، اجتمع الناس على جهور ابن محمّد بن جهور سنة ٤٢٢ هـ ، إذ كان حازماً عاقلاً ، لم يخض غمار الفتن التي تداولت قرطبة ، بل ترك الأمور للعصبيّة تُشبع نهمها وتشفي غلّتها . وقد علم أنّ هذه الفتن الهوج لا يُبنَى عليها ملك ولا يستقرُّ سلطان . فترك الفتن حتى فنيَ فيها ذووها ، فلمّا خلا له الجوُّ ، وصفّرَ الفِناء ، وأقفر النادي من الرؤساء ، وأمكنته الفرصة وثب عليها ، ولم يتحوّل عن داره إلى قصر الخلافة ، وتولّى ابن زيدون الشاعر له الوزارة ، ولمّا غضب عليه استعطفه بالرسالة الجدّية . وكان ابن جهور على سنن أهل الفضل ، يعود المرضى ويشهد الجنائز ، ولا يحتجب عن الناس ، ونشر الأمن والطمأنينة ، وضبط الأمور بحكمه وسداد ، ورفع لواء الحضارة حتّى عادت به قرطبة إلى أكمل حالاتها من الحضارة والرخاء والأمن ، إذْ منع عنها من كان يطلبها من البرابرة ؛ بخفض الجناح ، والرفق في المعاملة حتى حصل على سلمهم واستدرار مرافق بلادهم . وقد تضاعف ثراؤه

حتى صار لا تقع العين على أغنى منه ، إلّا أنّه حاط ذلك بالبخل الشديد ، والمنع الخالص ، اللذين لولاهما ما وجد عائبُه فيه طعناً ، وكان مع هذا أشدَّ الناس تواضعاً ، وأشبههم ظاهراً بباطن ، وكان أديباً يتذوَّق الأدب ، وشاعراً يشدو بالشعر . ولم تزلْ قرطبةُ به مشرقةً ، وغصون الأمل فيها مورقة حتى مات سنة ٤٣٥ هـ ، فتولى بعده ابنه أبو الوليد ، فأقرَّ الأمور على ما كانت عليه أيّام والده ، حتى جاء بعده ابنه عبد الملك ، فغلبه ابن ذي النون على قرطبة ، ثم استولى عليها المعتمد بن عبّاد سنة ٤٦١ هـ[1] .

ب ـ وبنو عبّاد بإشبيلية ٤١٤ ـ ٤٨٤ هـ ، وكان أبو القاسم بن عبّاد تولى القضاء على اشبيلية ، والفتن عاصفة ، والثورات جامحة ، فثارت قرطبةُ على القاسم بن حمود حتى خرج عنها ، وقصد إشبيلية ، ولكنّها حذت حذو قرطبة بزعامة هذا القاضي ، ونجحت في صد اللاجيء . واجتمع أهل إشبيلية على القاضي بن عبّاد ؛ فقام بالأمر حتى مات سنة ٤٣٣ هـ ، فخلفه ابنه المعتضد ، وكان شديداً حازماً قاسياً داهية .

أوتي من جمال الصورة ، وتمام الخلقة ، وفخامة الهيئة ، وسباطة البنان ، وحضور الخاطر ، وصدق الحس ما فاق به نظراءه . وكان إلى هذا شاعراً يحسن الصنعة ، ويعرف للشعراء قدرهم .

ثم تولّى بعده ابنه المعتمد بن عبّاد سنة ٤٦١ هـ وكان يتشبّه بهارون الرشيد والواثق بالله من ملوك بني العبّاس ؛ ذكاء نفس وغزارة أدب . وكان شعره كأنّه الحلل المنشَّرةُ ، واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من الملوك، وكان أندى ملوك الأندلس راحة، وأرحبهم ساحةً، وكان مجلسه ملتقى الرجال، وموسم الشعراء، وأفاضل الأدباء. وكانت قرطبة أشهى حلمه، وكان

(١) انظر قصة الأدب ففي الأندلس لمحمد عبد المنعم الخفاجة ١/٦٧ .

رَوْمُ أمرها منتهى أمله ، فمازال يعمل الحيلة حتى استولى عليها ، فأعطى زمامها لابنه الظافر حتى قتل بها سنة ٤٦٦ هـ في حالة مؤثِّرة وصفها صاحب القلائد ، ثم ولّاها ابنه الثاني المأمون حتى قتل كذلك .

وكانت دولة بني عباد من أبهج الدول كرماً وفضلاً وأدباً ، حتى قال أبو بكر الداني : إنها أشبه شيء بالدولة العباسية ببغداد ، سعة مكارم وجمع فضائل ، ولذلك ألَّفَ فيها كتاباً مستقلاً أسماه «الاعتماد في أخبار بني عباد» .

أما نهاية المعتمد فقد كانت من أفجع النهايات ، وحسبك أن تقرأ شعره الذي يصور فيه نكبته ، والذي سنفرد له فصلاً خاصاً به . فقد كان المعتمد أكبرَ ملوك الطوائف وأكثَرهم بلاداً ، وكان يؤدي الضريبة للأذفونش ، فلما ملك هذا طليطلة لم يعد يقبل ضريبة المعتمد طمعاً في أخذ بلاده ، فأرسل إليه يتهدَّده . فضرب المعتمد الرسول وقتل من معه ، فاستعد الأذفونش لقتاله ، فاستعان المعتمد بالأمير يوسف بن تاشفين ، فتم له النصر ، وهرب الأذفونش .

وفي العام التالي غدر يوسف هذا بالمعتمد بتأثير الدس والوشاية، فأغار على بلاد المعتمد ، وانتزعها من أبنائه ، ثم حاصر المعتمد بإشبيلية ، وقبض عليه ، واعتقله بمدينة أغمات ، وأودعه ذُلَّ قيدها وظلام سجنها ، وشُرِّد أبناؤه ، وذُلَّت بناته ، وتحطَّم ملكه الشامخ ، وانطوى بساط عِزِّه ومجده ، ودخلت عليه بناته في سجنه يوم عيد ، وكن يغزلن للناس بالأجرة في أغمات ، حتّى إنّ إحداهنّ غزلت لبيت صاحب الشرطة الذي كان في خدمة أبيها وهو في سلطانه .

ومازال يرسل من زفراته ، ويسكب من دموعه ، حتى مات بالسجن سنة ٤٨٨ هـ ، فلما مات زار قبره جماعة من الشعراء منهم ابن اللبانة الذي وقف في يوم عيد والناس عند قبور أهليهم ، فأنشد بصوت عال :

مَلِكَ المُلوكِ ! أَسَامِعٌ فَأُنَادِي ؟ أَمْ قَدْ عَدَتْكَ عَنِ السَّمَاعِ عَوادِ ؟
لَمَّا نُقِلْتَ عَنِ القُصُورِ وَلَمْ تَكُنْ فيهَا كَما قَدْ كنتَ في الأَعْيَادِ
أَقْبَلْتُ في هَذَا الثَّرَى لَكَ خَاضِعاً وَجَعَلْتُ قَبْرَكَ مَوْضِعَ الإِنْشَادِ

جـ - وبنو حمود في مالقة ٤٠٧ - ٤٤٩ هـ ، وكنا قد أشرنا إلى أن المستعين بالله الأموي قد استعان ببني حمود سنة ٤٠٧ هـ ، وهم شيعة من المغرب ، ينتسبون إلى إدريس من سلالة الحسن بن علي . فاستقلّوا بمالقة ، وتنقّلوا بينها وبن قرطبة والجزيرة الخضراء ، إلى أن انقرضت دولتهم في بداية سنة ٤٥٠ هـ/١٠٥٨ م .

د - وبنو الأفطس ببطليوس ٤٢١ - ٤٨٧ هـ ، وكانت دولتهم متحضِّرة نهضت بالعلوم والفنون ومنهم ابن الأفطس الملقَّب بالمظفَّر ، صاحب التاريخ المظفَّريّ ، واستمرّ حكم أبنائه فيها إلى عام ٤٨٥ هـ . وكان لابنه المتوكِّل قدم راسخة في صناعة النظم والنثر ، وكانت أيّام بني المظفَّر أعياداً ومواسم ، وكانوا ملجأ لأهل الأدب وفيهم يقول الوزير ابن عبدون قصيدته المشهورة:

«الدهرُ يفجعُ بعدَ العَين والأَثرِ فما البكاءُ على الأشباحِ والصُّورِ»

هـ - وبنو هود بسرقسطة ٤١٢ - ٥٣٦ هـ ، وكانت الدولة الهوديّة دولة عربية أشهر ملوكها المقتدر بالله ، وابنه المؤتمن .

و - وبنو زيري بن ميادة بغرناطة ٤٠٣ - ٤٨٣ هـ ، حيث استقلّوا بغرناطة ، وهي دولة بربريّة دام حكمها ثمانون عاماً بغرناطة .

ز - وبنو صُمادح في المرية ، حيث انتهى حكمهم عام ٤٨٤ هـ .

ح - الدولة العامرية في بلنسية وشاطبة ٤١٢ - ٤٧٨ هـ ، وهم من موالي بني عامر .

ط ـ ودولة ذي النون في طليطلة ٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ ، وهي دولة بربرية من قبائل هوارة . وقد قامت بين ملوك الطوائف حروب متصلة ، وكان القوي فيهم يغلب الضعيف، فيزيل سلطانه، كما أزال ملوك بني عباد حكم بن جهور في قرطبة . ولم يتوان بعضهم عن أن يستنجد بملوك الفرنجة ، فيغتنم هؤلاء الفرصة ويهاجمون الأندلس ويستولون على عواصمهم ، ويخضعون ملوكها ، ويجعلونهم عمالاً لهم ، كما فعل فرديناند الأوّل بالمظفّر ملك بطليوس ، وبالمأمون ملك طليطلة ، وكما فعل ألفونس السادس بملك سرقسطة .

ولم يكن التنافس بين هؤلاء الملوك سياسيّاً فقط ، بل كان أيضاً عمرانيّاً ، وأدبيّاً ، وفنيّاً ، فتنافسوا في ابتناء الحصون والقلاع ، وتنافسوا في مجالس الأدب والطرب وفي تشجيع الشعراء والمغنّين .

وكان من بين هؤلاء الملوك من خطب في المساجد لخلفاء بني أميّة وإن زالت خلافتهم ، ومنهم من خطب لبني العبّاس على رغم بعدهم عنهم ، ومنهم من تقلّب بنعوت الخلفاء كبني عبّاد ، فكان منهم المعتضد والمعتمد .

ومن أجل تهافتهم على هذه النعوت العبّاسية ، قال الشاعر :

مِمَّا يُزَهِّدُني في أَرْضِ أَنْدَلُسٍ ... أَسْمَاءُ مُعْتَضِدٍ فيها وَمُعْتَمِدِ
أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ في غَيْرِ مَوْضِعِها ... كَالهِرِّ يَحْكي انْتِفَاخاً صَوْلَةَ الأَسَدِ[1]

ومن الإنصاف لهؤلاء الملوك أن نذكر أنّهم رعوا حركة الأدب ، وقرّبوا أصحابها ، وكانت أكثر عواصمهم أسواقاً لها ، وكان منهم أدباء وشعراء كالمظفّر ، وابنه المتوكّل ملكي بطليوس ، والمعتمد بن عبّاد ملك إشبيلية ، وكان أكثرهم

---

(١) انظر كتاب في الأدب الأندلسي لجودت الركابي ٢٤ . ونفخ الطيب للمقري ٢/١١٢٥ . وقصة الأدب في الأندلس لمحمد عبد المنعم خفاجة ١/٦٧ ـ ٦٩ .

يدعو إلى بلاطه العلماء والشعراء والفلاسفة يحاضرهم ويجالسهم ، وفي عهدهم ظهرت الفلسفة وعلى رأسها ابن باجة .

ودام أمرُ الطوائف نحو مئة سنة تقريباً استطاع في أواخرها ملوك الإسبان من جمع كلمتهم ، فهاجموا هذه الدويلات واحدةً واحدة ، وقضوا عليها حتى بلغوا إشبيلية عاصمة بني العبّاد ، فضايقوا المعتمد حتى اضطّر إلى أن يطلب النجدة من أمير المرابطين في العدوة الإفريقيّة . فجاء يوسف بن تاشفين ، أمير المرابطين، وحمى ملوك الطوائف، إلّا دولة سرقسطة فإنّ صاحبها اعتصم بالفرنجة فحموها حيناً من الزمن ، ولم ينل منها المرابطون إلّا في سنة ٥٠٣ هـ ١١٠٩ م ، واستعادها ألفونس الأوّل ملك أرغون سنة ٥١٢ هـ ١١١٨ م .

٤" ـ دولة المرابطين ٤٤٨ ـ ٥٤٠ هـ/١٠٥٦ ـ ١١٤٦ م[1] :

تنحدر هذه الدولة من قبيلة لَمْتُونَة من برابرة صنهاجة في المغرب ، وكان من عادتهم أن يضعوا لثاماً على وجوههم ، فلقّبوا بالملثّمين .

وسمُّوا بالمرابطين لأنَّ أحدهم وهو يحيى بن إبراهيم أسلم فجأةً ، وأحضر فقيهاً اسمه عبدالله بن ياسين ، ليعلم قبيلته القرآن وأحكام الدين . ثم مات يحيى ، فتفرّق الناس عن هذا الفقيه ، ولم يفُتَّ ذلك في عضده ، بل جمع فئة منهم واعتزل بهم في جزيرة من السنغال ، وابتنى لهم رباطاً ، يرابطون به للعبادة والتأهُّب للقتال ، فسمّوا المرابطين . ولما كثر عددهم وبلغوا الألف ، قام هذا الفقيه عبدالله بن ياسين يحضّهم على الجهاد في سبيل الحقّ ، وأمرهم بإرشاد عشائرهم للدخول في الإسلام . ولّما أبت هذه أن تهتدي بهديهم ، شنّوا عليها

---

(١) انظر الأدباء العرب لبطرس البستاني ٣/٢٥ .

الغارة ، وقتلوا خلقاً كثيراً ، حتى أسلمت . ثم تابعوا الغزوات في بلاد المغرب يدعون الناس إلى دينهم ، ناشرين الرعب والهول في تلك الأنحاء [١].

وجعل عبدالله قيادة الجيش ليحيى بن عمر ، الذي كانت له زعامة قبيلة لَمْتُونَة ، وبذلك بدأت به دولة المرابطين سنة ٤٤٨ هـ . فلمّا مات ، خَلَفَهُ أخوه أبو بكر . ثم تنازل أبو بكر لابن عمِّه يوسف بن تاشفين سنة ٤٥٣ هـ ، فدوَّخ يوسفُ المغربَ ، وفتح فاس وطنجة وسبتة ، وبنى مرّاكش وجعلها داراً له فعظمت هيبته وذاع ذكره .

وكانت الأندلس في ذلك الحين تعاني أشدَّ الضيم من ملوك الإسبان ، حيث أنَّ ألفونس صاب قشتالة غزاها غير مرّة ، وأثخن في المسلمين ، وأخضع ملوك الطوائف ، حتى بلغ جزيرة طريف ، وأدخل قوائم فرسه في البحر وقال : «هذا آخر بلاد الأندلس قد وطئته» . فلما بلغ الضعف بالمسلمين حدَّهُ أجمعوا رأيهم على استنفار يوسف بن تاشفين ، فكتب إليه المعتمد بن عبّاد صاحب إشبيلية يعلمه بحال الأندلس ويسأله المساعدة ، وكذلك كتب إليه أهل الأندلس كافَّة يستنجدونه على العدو المغير .

فجمع ابن تاشفين جيشاً كثيفاً وهبَّ إلى نجدة المعتمد في كتائب بربريّة من قبائل زناتة ومصمودة ، إضافة إلى قبيلته ، وقهر الإفرنج وانتصر عليهم في موقعة الزلّاقة الشهيرة سنة ٤٧٩ هـ/١٠٨٦م ، فازداد يوسف قوَّة وعظمة بهذا الانتصار ، وتلقَّب منذ ذلك اليوم بأمير المسلمين ، إذ أتاه هذا التقليد من الخليفة العبّاسي ببغداد ، المقتدي بأمر الله ، ولقّبه ناصر الدولة . ثم رجع يوسف إلى المغرب ظافراً منصوراً ، بعد أن ثبَّت للمعتمد سلطته . [٢]

(١) أدباء العرب لبطرس البستاني ٢٥/٣ وما بعد .
(٢) الادب في الأندلس لجودة الركابي ٢٦ وما بعده .

ولم تنقض سوى ثلاث سنوات حتى أعاد الفرنجة الكرّة في الغزو ، فطلب المعتمد النجدة ثانية . فعاد يوسف بن تاشفين وقضى على المناوئين الغزاة سنة ٤٨٨ هـ/١٠٩١م . . وطابت الأندلس لابن تاشفين برياضها الغنَّاء وقصورها ومواردها فقرَّرَ الإقامة ، واستبّد بالملك لنفسه ، وتعلَّل بخصومة مع المعتمد ، وأخذه أسيراً إلى أغمات في إفريقية حيث قضى غمّاً وحزناً في منفاه وسجنه ، وملك ابن تاشفين الأندلس سنة ٤٨٧ هـ .

وقد اتخذ يوسف قرطبة عاصمة لملكه ، وكان يدعو على منابر قرطبة للخليفة العبّاسيّ ، ودانت بلاد الأندلس لحكمه ، واستمرّ يجاهد ويغزو الفرنجة حتّى مات سنة [1] ٥٠٠ هـ/١١٠٦م فقام من بعده ابنه علي ، ولقَّب نفسه بلقب أبيه «أمير المسلمين» وتابع خطَّة والده في صدِّ هجمات الفرنجة عن البلاد . وجعل مقرَّه مراكش وترك أخاه في الأندلس .

وكان يتعصَّب للمذهب المالكيّ ، ولا يبتُّ في صغيرة ولا في كبيرة إلّا بمحضر أربعة من الفقهاء ، كما كان يبغض مباحث الفلسفة والجدل وعلم الكلام ، فأمر الناس أن لا يَخُوّضَ فيها أحد ، وتوعَّد من وَجدَ عنده كتاباً فيها ، ولّما وصلت كتب الغزالي إلى المغرب أمر بإحراقها . وأصبح آلة بيد الفقهاء ، فساد التعصُّب والارهاب ، وكثرت الوشايات ، وخنقت حريَّة الفكر ، وانقطع للعبادة ، فذهبت ريح دولة المرابطين ، وزادت الفتن والثورات حتى مات سنة ٥٣٧ هـ ، وزاد في الطين بلّة ظهور المهديّ محمد بن تومرت في جبال المصامدة بالمغرب مما أدى إلى سقوط المرابطين وقيام الموحِّدين .

ثم خلفه ابنه بن علي الذي مات مقتولاً سنة ٥٤٠ هـ . بعد أن دام حكم المرابطين في الأندلس نحو ستين سنة ٤٨٠ ـ ٥٤٠ هـ ، أديل منهم بعدها إلى دولة الموحِّدين .

٥" - دولة الموحِّدين ٥٢٤ - ٦٢٩ هـ/ ١١٢٩ - ١٢٣١ م :

الموحِّدون طائفة إفريقيّة أخرى من أصحاب ابن تومرت ، الذي أراد أن يضع للدين عهداً جديداً ، فدعا نفسه بالموحِّد وجمع حوله الأنصار ، وأعلنت جماعاته بعد ذلك الجهاد على المرابطين فغلبوهم في إفريقية ، ثم نقلوا الحرب إلى الأندلس ، وغلبوهم فيها أيضاً .

نشأ محمد بن تومرت في جبل السوس من المغرب الأقصى ، بين قومه من بني هرغة ، وهم بطن من بني مصمودة ، وهي قبيلة شديدة البأس كثيرة العدد . وبدت عليه دلائل التقوى منذ حداثته ، فكان يزور قبور الأولياء ويتبرَّك بها . وطلب العلم في بلده ، فوجد أنَّ المدارس في المغرب لا غَناء فيها ، فرحل إلى الشرق ، ونزل بغداد سنة ٥٠٠ هـ ، وتتلمذ على أبي حامد الغزالي في المدرسة النظاميّة ، فأخذ عنه طرفاً صالحاً من العلم وأصول الدين .

فلمّا رجع إلى المغرب شرع يدعو الناس إلى التمسُّك بأهداب الشرع ، وإقامة السنّة ويبينّ لهم فساد الملوك ، والأمراء وظلمهم ، ويدعوهم إلى عصيانهم . وأطلق على طريقته اسم التوحيد ، فتبعه خلق من بني هرغة ، فعرفوا بالموحِّدين . ثمّ أوقع في خلدهم أنّ النبيّ بشر بالمهديّ الذي يملأ الأرض عدلاً ، وقال : إنّه يخرج من المغرب الأقصى ، فقام إليه عشرة رجال ، وقالوا له : أنت المهدي ، وبايعوه وساروا في ركابه ، يبثُّون له الدعوة في بلاد المصمودة حتى كثر أتباعه ، ورسخت تعاليمه ، فدعاهم إلى جهاد المرابطين ، وأباح لهم دماءهم ، فبايعوه على الموت . فجنَّد منهم عشرة آلاف ، وقدّم عليهم أبا محمّد البشير ، أحد صحابته

---

(١) انظر في الصفحة ٧١ من قصة الأدب في الأندلس حيث تاريخ الوفاة ٤٩٣ هـ ، بينما في الأدب في الأندلس للركابي جعلها ٥٠٠ هـ/١١٠٦ م وهو الأصح كما جاء في الأعلام للزركلي ٢٢٢/٨ .

العشرة ، ودعا لهم ، فراحوا يغزون في بلاد المغرب حتى بلغوا مراكش وحاصروها ، فامتنعت عليهم[1] .

ثم مات المهديّ محمّد بن تومرت سنة ٥٢٤ هـ قبل أن يفتحوها ، فخلفه عبد المؤمن بن علي أحبُّ صحابته إليه فبايعوه بالخلافة ، وتلقّب بأمير المؤمنين . وتابع عبد المؤمن جهاده حتى أزال دولة المرابطين ، وأقام دولة الموحِّدين . ولمّا مات علي بن تاشفين عام ٥٣٧ هـ فتح عبد المؤمن الأندلس عام ٥٣٨ هـ فأنتزعها من أيدي الملثَّمين ـ المرابطين ـ واقتصَّ أثر تاشفين بن علي حتى قتله عام ٥٤٠ هـ وبذلك انتهت دولة المرابطين .

ولما استتبَّ الأمر لعبد المؤمن بن علي ، ولّى ابنه يوسف على إشبيليّة ، وولّى ابنه عثمان على غرناطة ، ثمّ عاد هو إلى مراكش ظافراً منصوراً ، فأقام بها حتّى توفيّ عام ٥٥٨ هـ . وكانت دولة الموحِّدين تشمل على شمال بلاد المغرب من طرابلس إلى مراكش ، كما كانت تشمل الأندلس .

وترك عبد المؤمن لأسرته عرشاً وطيداً وملكاً كبيراً ، خلفه عليه ابنه أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن على الملك والولاية ٥٥٨ ـ ٥٨٠ هـ ١١٦٢ ـ ١١٨٤ م . وفي عهده بلغت دولة الموحِّدين أوج عزِّها الذي دامت خلافته اثنين وعشرين عاماً .

ثم خلفه المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ٥٨٠ ـ ٥٩٥ هـ/١١٨٤ ـ ١١٩٨ م . وفي عهده استمرَّ ازدهار الدولة وصعود نجمها ، وظلّوا متمسِّكين بأصول الدين . وكانوا في الأندلس أعلق بالحضارة من المرابطين ، فإنّ أبا يعقوب استقدم الفلاسفة إلى بلاطه كابن طُفَيْل وابن رشد ،

---

(١) أدباء العرب للبستاني ٣/٢٩ ـ ٣٠ .

وعني بالعمارة ، ومن آثاره الباقية منارة الجامع الكبير في إشبيلية .

ثم أعقبه ابنه الناصر أبو عبدالله محمّد بن يعقوب ٥٩٥ ـ ٦١٠ هـ ، حيث سار على خطّة أسلافه في تشجيع العلم والعمران[1] .

ثم خلفه ابنه يوسف ٦١٠ ـ ٦٢١ . وحكم الموحّدون البلاد ، نحو سبع وثمانين سنة من ٥٤١ هـ إلى ٦٢٩ هـ إلى أن تغلّب ابن هود عليهم في بعض البلاد عام ٦٢٢ هـ ، ثم زالت دولتهم ودولةابن هود عام ٦٢٩ هـ ، حيث حكم البلاد بنو الأحمر عام ٦٢٩ هـ .

٦" ـ دولة بني الأحمر ٦٢٩ ـ ٨٩٧ هـ/١٢٣١ ـ ١٤٩١ م :

بعد زوال دولة الموحّدين من الأندلس ، استطاع محمّد بن هود صاحب بطليوس أن يبسط سلطانه على كثير من المدن الأندلسيّة ، فشمل به مرسية وقرطبة وإشبيلية ، وكان يرى في مقاتلة أعدائه النصارى عاملاً لدعم قوته وسلطانه ، ولكنّه كان أضعف من أن يردّهم عن مملكته ويحرس استقلالها ويردُّ المكايد عنها .

في هذا الوقت الذي كانت فيه الأندلس ترزح تحت عبء الفتنة والضعف ، كان في أرجونة من حصون قرطبة ، قبيلة عربية من بني الأحمر ينتهي نسبها إلى سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجيّ ، وعميدها محمّد بن يوسف بن نصر . فاتّفق هذا مع الاسبانيّين أن يمدّوه بجيش لقتال ابن هود ، على أن ينزل لهم عن بسائط الأندلس ، إذا استتبَّ أمره فيها[2] .

---

(١) انظر أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث للبستاني ٢٩/٣ ـ ٣٠ . وقصة الأدب في الأندلس لمحمد عبد المنعم خفاجة ٧٢/١ .

(٢) انظر نهاية الأندلس لمحمد عبدالله عنان ١٨ ـ ٤٠ . وسقوط قرطبة في تاريخ ابن خلدون ، وكذلك نفخ الطيب .

فاغتنم الفرنجة الفرصة وزحفوا بجموعهم يستولون على المدائن والحصون ، حتى بلغو قرطبة ، فحاصروها ستّة أشهر ، ثم سقطت في أيديهم سنة ٦٣٣ هـ/١٢٣٥ م بعد أن لبثت نحو خمسمئة وعشرين سنة عاصمة لإسبانيا المسلمة ، وقُتل ابن هود في المرية ، ولم يبق للمسلمين العرب غير اقطاعة الأندلس وعاصمتها غرناطة ، يتولّاها ابن الأحمر أمير المسلمين من قبل فرديناان الثالث . وعاشت هذه الدولة الصغيرة ما ينيف على مئتين وخمسين سنة[1] . ويعود ذلك إلى أنَّ الملوك الإسبانيّين كانوا منشغلين عنها بمحاربة بعضهم البعض ، ولأنّ دولة بني الأحمر كانت تستنجد بسلاطين المغرب أيّام شدّتها ، فيجيزون إليها جيوشهم لدفع غائلة أعدائهم المسيحيّين عن أرباضها .

ولمّا تأذّن القدر بزوالها ، تولّى أمرها السلطان أبو الحسن علي بن الأحمر سنة ٨٨٨ هـ/١٤٨٣ م ، نازعه الملك أخوه أبو محمّد الملقّب بالزّغَل ، وبويع له بمالقة ، فقامت الفتنة بين الأخوين ، حتى خضع الزّغل لأخيه .

وكان لأبي الحسن زوجتان إحداهما ابنة عمّه عائشة ، والثانية إسبانية مسيحيّة اسمها إيزابِلَّة ، فلما أسلمت سُمِّيت الثريّا ، وكان يؤثرها على عائشة ، ويخصّها بالإكرام والمودّة ، حتى إنّه قدّم أحدَ أولادها لولاية العهد . فاحتدمت الغيرة في صدر عائشة ، وفرّت من القصر ومعها أولادها ولجأت إلى وادي آش ، فعضدها الشعب وبايع ولدها أبا عبدالله ، فشمّر الشرُّ عن ساق وقدم بين حزب أبي عبدالله ، وحزب والده أبي الحسن واقتتلوا بالشوارع ، وعمّت الفوضى في أنحاء البلاد ، واستمرّت الحروب بين الابن وأبيه حتى رجحت كفّة الولد أبي عبدالله ، فأقام سرير ملكه في غرناطة ، ثم خرج غازياً الإسبانيّين فأسروه .

---

(١) انظر المراجع السابقة .

أجمعَ أهل غرناطة على إرجاع والده لسرير الملك ، وكان لاجئاً إلى مالقة ، وقد ذهب بصره . فأبى الملك وهو على هذه الحال ، وقدّم أخاه أبا محمد الزَّغَل، فتسلّم العرش ، وكان شجاعاً حازماً ، أخذ يحارب الإسبان ، ويثخن فيهم . فرأوا أن يرموه بابن أخيه أبي عبدالله المأسور لديهم ، فأطلقوا سراحه ، وأمدّوه بالعساكر ، فثار يطلب الملك من عمّه ، فطالت بينهما الفتنة حتى استولى ابن الأخ على غرناطة ، وكان العمُّ غائباً عنها ، فلمّا بلغه الخبر فتّ في عضده ، وعطف إلى وادي آش وهي مدينة من أعمال غرناطة ، وتحصَّن بها .

واستفاد الإسبانيون الفرنجة من هذه الفتن الداخليّة ، فوالوا غزواتهم على المسلمين ، ثم ازدادوا قوّة بعد أن تزوَّج فرديناد الخامس ملك أرغون ، إيزابلّة الكاثولكيكيّة ملكة قشتالة سنة ٨٧٤ هـ/١٤٦٩ م ، فاتّحدت مملكتان قويّتان ضدَّ دولة بني الأحمر ، وأصلوها حرباً عواناً بقيادة فرديناد ، وكانت إيزابلّة تتولّى خدمة الجرحى بنفسها ، حتى حاصرت جيوشهما غرناطة سنة ٨٩٦ هـ/١٤٩٠ م ، وسلمها أبو عبدالله في غرة ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ/كانون الأول ١٤٩١ م بمعاهدة أباحت للمسلمين واليهود حريَّة الدين .

وأعطي أبو عبدالله ضيعة يقيم فيها ، وخرج وأهله من قصر الحمراء في غرناطة حزيناً منخلع القلب ، ومشى مطرقاً إلى منفاه ، حتى إذا انعطفت به الطريق ، وكادت الحمراء تتوارى عنه ، أرسل إليها النظرة الأخيرة وهطلت عيناه بالدموع[1] . فقال له أمه عائشة : «ابكِ مثل النساء ملكاً لم تحافظ عليه مثل الرجال» . ولا يزال ذاك الموضع يسمّى إلى اليوم : زفرة المغربي .

---

(١) أدبا العرب في الأندلس وعصر الانبعاث لبطرس البستاني ٣/٣٠ـ ٣٣ .

وأقام أبو عبدالله في ضيعته الجديدة سنة أي إلى سنة ٨٩٨ هـ/١٤٩٢ م ثمّ عبر البحر إلى المغرب ، ونزل بفاس واتّخذها مقرّاً حتى مات عام ٩٤٠ هـ[١] .

ولم يف ملوك إسبانية بعهد فردينان لابن الأحمر يوم فتح غرناطة ، بل طفقوا يضطهدون المسلمين ويرهقونهم حتى أجلوهم عن سائر الأندلس ، بعد أن نكّلت محاكم التفتيش بهم . وفي عام ١٥٦٣ م ثار أحد سلالة بني سراج ، ولجأ إلى جبال البشرات ، وتبعه كثيرون من غرناطة ، ونادوا بأحد حفده خلفاء قرطبة ملكاً عليهم باسم محمّد بن أميّة واستمرّت هذه الثورة عامين ، ثم ولوا أمرهم عبدالله بن أبيه أحد الزعماء المشهورين حتى غلبوا على أمرهم ، وعلق الاسبان رأس عبدالله هذا على أحد أبواب قرطبة ثلاثين سنة ، وأخذ يطردون العرب بالجملة ، حتى وصل عدد الذين طردوا من الأندلس أكثر من ثلاثة ملايين[٢] .

وكانت نكبة الأندلس في عهد بايزيد الثاني السلطان العثماني ، وقايتباي سلطان مصر ، وقد اتّفق السلطانان على غزو اسبانيا بأسطول كبير يسيره بايزيد ، وجيش بري يسيره قايتباي مصر ، ولكنْ شُغِل بايزيد بثورة سياسيّة في بلاده ، وخدعَ الإسبانُ مِلِكَ مصر بمعلومات كاذبة عن مصرع الأندلس ، ولم تُجدِ رسائل بايزيد الثاني وقايتباي إلى البابا وملكي اسبانيا والبرتغال شيئاً في تخفيف معاملة الإسبان للمسلمين المغلوبين ، وهكذا أراد الله ولا رادّ لمشيئته ، قل اللّهمَ مالِكَ المُلْكِ ، تعطي المُلْكَ مَنْ تشاء ، وتنزعُ المُلكَ ممّن تشاء ، وتعزُّ من تشاء وتذلّ من تشاء[٣] .

وقد وصف أبو البقاء صالح بن شريف الرندي قبل ذلك بكثير معاملة

---

(١) المرجع السابق ٣٤ .
(٢) قصة الأدب في الاندلس لمحمد عبد المنعم خفاجة ١/٧٥ ـ ٧٦ .
(٣) انظر نفح الطيب ٢/٦١٥ في سقوط غرناطة .

مسيحيّ إسبانيا للمسلمين بقصيدته النونية التي يقول فيها :

يَامَنْ لِذِلَّـةِ قَوْمٍ بَعْدَ عِزِّهِمُ ! أَحَـالَ حَـالَهُمُ جَـوْرٌ وَطُغْيَـانُ(1)
فَلَوْ تَرَاهُمْ حَيَارَى لاَ دَليلَ لَهُمْ عَلَيْهِمْ في ثِيَـابِ الـذُّلِّ أَلْـوَانُ
وَلَـوْ رَأَيْتَ بُكَـاهُمْ عِنْـدَ بِيعَهُمُ لَهَالَكَ الأَمْرُ وَاسْتَهْوَتْكَ أَحْزَانُ(2)
يَـارُبَّ أُمٍّ وَطِفْـلٍ حِيـلَ بَيْنَهُمَا كَـمَا تَـفَـرَّقُ أَرْواحٌ وَأَبْـدانُ
وَطِفْلَةٍ مِثْل حُسْنِ الشَّمْسِ إذْ طَلَعَتْ كَـأَنَّمَـا هِيَ يَـاقُـوتٌ وَمَـرْجَـانُ
يَقُودُهَا العِلْجُ لِلْمَكْـرُوهِ مَكْرَهَـةً وَالعَـيْنُ بَـاكِيَـةٌ وَالقَلْبُ وَلْهَـانُ(3)
لِمِثْلِ هَذَا يَذُوبُ القَلْبُ مِنْ كَمَدٍ إنْ كَانَ في القَلْبِ إسْلاَمٌ وَإِيمَانُ

ويقول فيها في موضع آخر :

فَجَـائِـعُ الـدَّهْـرِ أَنْـوَاعٌ مُنَـوَّعَـةٌ وَلِـلـزَّمَـانِ مَسرَّاتٌ وَأَحْـزَانُ
وَلِـلْحَـوادِثِ سُلْوانٌ يُـسَـهِّـلُهَـا وَمَـا لِمَا حَلَّ بِالإِسْـلاَمِ سُلْوَانُ

ويُنبِّه في جزء منها فيقول :

يَاغَافِـلاً وَلَهُ في الـدَّهْرِ مَـوْعِظَةٌ إنْ كُنْتَ في سِنَةٍ فَالدَّهْرُ يَقْظَانُ(4)
وَمَـاشِيـاً مَـرِحـاً يُلهيـهِ مَـوْطِنُـهُ أَبَعْدَ حِمْصٍ تَغُرُّ المَرْءَ أَوْطَانُ(5) ؟
تِلْكَ المُصيبَـةُ أَنْسَتْ مَـاتَقَـدَّمَها وَمَا لَهَا مِنْ طِوَالِ الدَّهْرِ نِسْيَانُ

ويثير الحماسة ، ويستنهض الهمم فيقول :

يَـارَاكِبِينَ عِتَـاقَ الخَيْلِ ضَـامِـرَةً كَأَنَّهَا في مَجَالِ السَّبقِ عِقْبَـانُ(6)

---

(1) يا من : الياء هنا للاستغاثة والندبة .
(2) البيع : دور العبادة .
(3) العلج : الأعجمي .
(4) السنة : النعاس .
(5) حمص : بلد بالأندلس .
(6) العتاق : الخيل الأصيلة .

وَحَامِلِينَ سُيُوفَ الهِنْدِ مُرْهَفَةً كَأَنَّها فِي ظَلَامِ النَّقْعِ نِيرَانُ[1]
وَرَاتِعِين وَرَاءَ البَحْرِ فِي دَعَةٍ لَهُمْ بِأَوْطَانِهِمْ عِزٌّ وَسُلْطَانُ
أَعِنْدَكُمْ نَبَأٌ عَنْ آلِ أَنْدَلُسٍ ؟ فَقَدْ سَرَى بِحَدِيثِ القَوْمِ رُكْبَانُ
أَلَا نُفُوسٌ أَبِيَّاتٌ لَهَا هِمَمٌ ؟ أَمَا عَلَى المَجْدِ أَنْصَارٌ وَأَعْوَانُ ؟

وامتاز عصر بني الأحمر بتعزيز الآداب ، فنبغ في دولتهم كوكبة من الشعراء والكتاب ، وعرف جماعة من سلاطينهم بالشعر والنثر ، كأبي عبدالله محمّد بن محمد المخلوع ثالث ملوكهم[2] . وهكذا طويت أعلامهم في الثاني من كانون الثاني سنة ١٤٩٢ م .

٤ ـ سمات هذه الأعصر :

تمتاز العصور الأندلسيّة بسمات رئيسية تطبعها وتلوِّنها من أربع نواح متناقضة ، ألا وهي التعصُّب ، والاستبداد ، والتساهل ، والحريّة :

فقد كان لوجود المسلمين في بقعة تتاخمها البلاد النصرانيّة ويناصبهم أهلها العداء ، دافعٌ قوي لإذكاء الشعور الديني في نفوسهم،يزيد في تأريث عصبية حميّة الفقهاء ، وما لهم من نفوذ وسلطان . فلم يكن لسوى المسلمين أن يتولوا الخطط والمناصب العالية في الأندلس . وحِرْصُ الفقهاء على سلطانهم الديني ، جعلهم يثيرون العامة ويستعدّون الخلفاء والملوك على ذوي التفكير إذا تعاطوا الفلسفة ، لأنّهم نظروا في القرآن ، ومحّصوا أحكام الدين ، وخرجوا بها عن الشرع والسنّة ، فأصبح الشعب بتأثيرهم بادي السخط على الفلاسفة

(١) النقع : غبار المعركة .
(٢) أدباء العرب في الأندلس لبطرس البستاني ٣٤/٣ وقصة الأدب في الأندلس لمحمد عبد المنعم خفاجة ٨١/١ .

ويرميهم بالزندقة ، ويزوّرُ لهم مُتنكراً ، ويتمنى هلاكهم . وأصبح ولاة الأمر إذا أرادوا التودُّد إلى الفقهاء والعامّة . قاموا بإحراق الكتب المتّهمة ، وباضطهاد كلِّ مفكِّر غُمِزت عقيدتُه، فراجت سوق الدسائس والوشايات ، وتفاقمت السعايات والمكايد ، فساد الاستبدادُ ولقيت حريّة التفكير شرّاً وعنتاً ، فنُكِب من أجلها ابن رشد وأصحابه ، وأُبعد ابنُ هاني عن الأندلس .

على أن هذا لا ينفي مرور فترات تطول أو تقصر يقوم فيها بالأمر ملوكٌ حازمون وعادلون ، يؤيِّدون حرية الفكر ، دون أن يُغضبوا الفقهاء والعامّة ، فتخفُّ الوشايات والدسائس ، وتنتعش الفلسفة شأنها في زمن الموحِّدين .

وكانت الأندلس دارَ خصب وغنىً ، وموطن حضارة ولهو وجمال ، فانصرف أهلها إلى متع الحياة يتذوَّقونها ، فأسرفوا في طلب الملذّات ، وانغمسوا في حمأة الدعارة وتَهتَّكَ شاعرهم وكاتبهم ، فنطقت شفتاه بأفحش الأقوال ، وتمادى في ذكر مجالس اللهو والخمر والتعهُّر ، غيرَ مُتحوِّب ولا وجِل .

ولم يجدْ من الملوك والفقهاء وازعاً يَزَعُهم ، لأنّهم لم يروا في عبث الناس ومجونهم ما يُخشى منه على الدين ما دامت له الحرمة في النفوس ، ولهم السلطان العزيز ، فأَرْخوا عنانَ التساهل ، وأباحوا حريّة القول والعمل ، فساءت الأخلاق ، وأبرَزتِ الخلاعةُ مِعصميها ، فكان ضرر التسامح أبلغَ من ضرر التعصُّب والاستبداد[1] .

ففي الدور الأموي الذي يشمل عهد الولاة ٩٢ ـ ١٣٧ هـ وعهد الإمارة والخلافة ١٣٧ ـ ٤٢٨ هـ كان دورَ الساسية العربية ، وفيه نزح إلى الجزيرة الإسبانيّة العرب اليمانيّة ولا سيّما أهل الشام ، وتفرقوا في المدن والدساكر ، فنشط

(١) أدباء العرب ٣/٣٥ ـ ٣٦ لبطرس البستاني .

العمران في هذا الدور وتوضّحت أسسُ النهضة الأدبيَّة والغنائية ، والعلمية والفكرية ، وبلغت الأندلس أوجَ عزتها ومنعتها ، وكانت مرهوبة الجانب يخطبُ ودها الفرنجة وملوك أوربا ، وأصبحت جامعاتها موئلاً لطلاّب العلم من جميع أنحاء الدنيا .

أما الدور الثاني ، دور ملوك الطوائف ، فقد تميَّز بازدهار الحركة الأدبيَّة ، وكثرة الشعراء والشاعرات ، وشاع فن الموشَّح بعد أن ظهرت طلائعه في نهاية الدور الأمويّ ، رافق ذلك ضعفٌ سياسي ، وفوضى اجتماعيّة ، وثورات كثيرة .

واتّسم دور المرابطين بالتعصُّب الديني ، وبتسلُّط البرابرة ، وضعف الحركة الأدبيّة ، وظهور فن الزجل ، هذا الشعر العاميّ الشعبيّ الذي لاقى رواجاً كبيراً في هذا العهد ، وكاد ينافس الشعر التقليديّ ، وذلك لضعف العنصر العربيّ الأصيل وسيادة اللكنة البربريّة وغيرها .

وتميَّز دور الموحِّدين بالحماسة الدينيّة ، ولكنّها لم تُقيِّد الفلاسفة ، فنمت الحركة الفلسفية نموّاً دعا إلى التأمُّل الدينيّ من ناحية ، والتفكير الفلسفيّ الحرِّ من ناحية أخرى ، وتابعت الحياة لسياسيّة هبوطها التدريجي ، وقويت شهيَّةُ الأعداء الطامعين ، الذين أخذوا يتوسَّعون في اقتطاع أجزاء من أرض الأندلس .

أمَّا دورُ بني الأحمر ، والجلاء ، فقد عُرِف بحياة الرخاء ، وحياة القلق ، رخاء داخلي وقلق يبثُّه في النفوس عدوٌ متربِّص ، شَعَر بضعف الحكّام المسلمين واستسلامهم ، فأخذ يُنزِل بهم النكبة تِلْوَ النكبة ، وفي هذه الغمرة أخذت النفوس الحسّاسة تنشر شعر الأنين حيناً ، وتجأر بشعر الاستنجاد والاستغاثة حيناً آخر . ونضجت في هذا الدور تلك الفنون الأدبيّة التي استحدثت في الأندلس من موشَّحات وأزجال ، وساعدت أوزانها وتقاسيمها على أن تجد في اللحن والغناء

طريق ذيوعها وانتشارها بين الناس ، بعد أن وَجد لها الغناءُ نفسُه طريقَ نشأتها وسبيلَ بزوغها[1] .

وقد شهد هذا الدور أقسى محنة نزلت بالعرب على أيدي ملوك الفرنجة وزعمائهم الدينيين ، وتجلَّت في ألوان من الاضطهاد الديني ، والقسوة والتعذيب الذي لم ينته إلاّ بعد أن تمَّ الجلاء الأخير سنة ١٦٠٩ م .

وكانت دواوين التفتيش التي أنشأها الإفرنج لمحو كلِّ أثر للإسلام والعرب ، لطخَة عارٍ في تاريخ المدنيّة . فقد أحرقت تحت تأثير هذه الحملة التعصبيّة ، الكتب العربيّة الكثيرة ، وأبيدت روائع الفكر الإسلامي ، وأتلفت آثار العبقريات ، ولولا أن هذه العبقريات العربية كانت أقوى من يد الإنسان الغاشم لما كانت ترى اليوم ما يشهد على ما شاده الفكر العربي في بلاد الأندلس من مجد ، وما مدَّ به الحضارة الأوربيّة والإنسانيّة من روح أصيل . جرى ذلك كلُّه في مواجهة اللين والتسامح اللذين أبداهما الفاتحون العرب للنصارى واليهود في الأندلس ، والتشجيع الذي أغدقوه لنقل العلوم الأجنبيّة إلى اللغة العربيّة ، وبالعكس ، في جميع الأمصار التي فتحها العرب ، فحافظوا بذلك على الحضارة الإنسانيّة من الضياع ، وحفظوها قبل أن تلفها يدُ الفناء .

وقد شهدت بلاد الأندلس طوال هذه الأدوار ، مختلف المعارك ، وضروب المحن ، واللهو ، والاضطهاد ، والتساهل . وجرى فيها كثير من الاختلاط بين الأجناس والأقوام ، فالعرب الذين تحدَّروا إلى الأندلس جاؤوها بطوائفهم الكثيرة ، وقبائلهم المختلفة ، ومواليهم الذين ينتمون الى شتَّى الجنسيّات في

---

(١) باختصار عن مقال في مجلة الأبحاث عن الأدب الأندلسي للدكتور جبرائيل جبور .

الشرق ، والبربر إنما نزلوا بها مع الفاتحين . وامتزجوا جميعاً بسكّان الجزيرة الأندلسيّة وما يجاورها من قوط واسبان وصقالبة وغيرهم من شعوب الفرنجة . ونشأ من هذا الاختلاف أجيال جديدة مولّدة ، لم تتصف بها الأقطار الأخرى التي دخلها العرب في فتوحاتهم[1] .

---

(١) الأدب في الأندلس للدكتور جودت الركابي ٣١ ـ ٣٣ .

الفصل الثاني
الدولة الأموية في الأندلس

أ ـ عصر الإزدهار ، ويتضمَّن تسعة خلفاء :

١ ـ عبد الرحمن الداخل ١١٣ ـ ١٧٢ هـ/ ٧٢٩ ـ ٧٨٨ م

مدة حكمه ١٣٨ ـ ١٧٢ هـ «اثنتان وثلاثون سنة ونصف»

٢ ـ هشام بن عبد الرحمن الداخل ١٣٩ ـ ١٨٠/ ٧٥٦ ـ ٧٩٦ م

مدة حكمه ١٧٢ ـ ١٨٠ هـ «ثماني سنوات ناقصة»

٣ ـ الحكم بن هشام الأوّل بن عبد الرحمن الداخل ١٥٤ ـ ٢٠٦ هـ/ ٧٧٠ ـ ٨٢٢ م

مدة حكمه ١٨٠ ـ ٢٠٦ هـ/ «سبع وعشرون سنة»

٤ ـ عبد الرحمن الثاني بن الحكم المعروف بالأوسط ١٧٦ ـ ٢٣٨ هـ/ ٧٩١ ـ ٨٥٢ م

مدة حكمه ٢٠٦ ـ ٢٣٨ هـ «إحدى وثلاثون سنة ونصف»

٥ ـ محمد بن عبد الرحمن الثاني بن الحكم ٢٠٦ ـ ٢٧٣ هـ/ ٨٢٠ ـ ٨٨٦ م

مدة حكمه ٢٣٨ ـ ٢٧٣ هـ «أربع وثلاثون سنةً»

٦ ـ المنذر بن محمد بن عبد الرحمن الثاني ٢٢٩ ـ ٢٧٥ هـ/ ٨٤٢ ـ ٨٨٨ م

مدة حكمه ٢٧٣ ـ ٢٧٥ هـ «سنتان ناقصتان»

٧ ـ عبدالله بن محمّد بن عبد الرحمن الثاني ٢٢٩ ـ ٣٠٠ هـ/٨٤٣ ـ ٩١٢ م

مدة حكمه ٢٧٥ ـ ٣٠٠ هـ «خمسة وعشرون عاماً»

٨ ـ عبد الرحمن الثالث بن محمّد بن عبدالله «الناصر» ٢٧٧ ـ ٣٥٠ هـ/ ٨٩٠ ـ ٩٦١ م

مدة حكمه ٣٠٠ ـ ٣٥٠ «خمسون عاماً»

٩ ـ الحكم الثاني بن عبد الرحمن الناصر «المستنصر» ٣٠٢ ـ ٣٦٦ هـ/ ٩١٤ ـ ٩٧٦ م

مدة حكمه ٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ «ستة عشر عاماً»

ب ـ عصر التقهقر والإندثار، ويتضّمن سبعة خلفاء:

١٠ ـ هشام الثاني بن الحكم الثاني «المؤيَّد» ٣٤٦ ـ ٣٩٩ هـ/ ٩٥٦ ـ ١٠٠٩ م

مدة حكمه ٣٦٦ ـ ٣٩٩ هـ «ثلاثة وثلاثون عاماً»

ومحمد بن عبدالله الملقب بالمنصور بن أبي عامر ٣٢٦ ـ ٣٩٢ هـ/ ٩٣٨ ـ ١٠٠٢ م

مدة حكمه ٣٦٦ ـ ٣٩٣ هـ «سبعة وعشرون عاماً»

١١ ـ محمّد بن هشام بن عبد الجبّار بن الناصر «المهديّ» ٣٦٦ ـ ٤٠٠ هـ/٩٧٧ ـ ١٠١٠ م

مدة حكمه ٣٩٩ ـ ٤٠٠ هـ «تسعة أشهر فقط»

١٢ ـ سليمان بن الحكم الثاني بن الناصر «المستعين بالله» ٣٥٤ هـ/ ٤٠٧ ـ ٩٦٥ ـ ١٠١٦ م

مدة حكمه ٤٠٠ ـ ٤٠٧ هـ «سبعة أعوام متقطعة»

١٣ ـ عبد الرحمن بن محمّد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر الأموي «المرتضىٰ» ٣٦٨ ـ ٤٠٨هـ/ ٩٧٨ ـ ١٠١٨ م

مدة حكمه ٤٠٧ ـ ٤٠٨ هـ «سنة واحدة»

١٤ ـ عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبّار «المستظهر» ٣٩٢ ـ ٤١٤ هـ/ ١٠٠٢ ـ ١٠٢٤ م

مدة حكمه ٤١٤ ـ ٤١٤ «سبع وأربعون يوماً»

١٥ ـ محمّد بن عبد الرحمن بن عبيدالله بن الناصر «المستكفي» ٣٦٦ ـ ٤١٦ هـ/ ٩٧٦ ـ ١٠٢٥ م

مدة حكمه ٤١٤ ـ ٤١٦ هـ «سبعة عشر شهراً»

١٦ ـ هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر الأموي «المعتد بالله» ٣٦٤ ـ ٤٢٨ هـ/ ٩٧٤ ـ ١٠٣٦ م

مدة حكمه ٤١٨ ـ ٤٢٢ هـ «أربع سنوات»

أ- عصر الإزدهار الأموي
ويتضّمن تسعة خلفاء

١ ـ عبد الرحمن الداخل صقر قريش
١١٣ ـ ١٧٢ هـ/ ٧٢٩ ـ ٧٨٨ م

هو عبدُ الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أميّة بن عبد شمس بن مناف ، الأمويّ . وُلد في دمشق عام ١١٣ هـ ، وجدُّهُ هشامُ خليفة للمسلمين (١٠٥ ـ ١٢٥ هـ) . وتوفي والده في حياة أبيه ، وكان الناس يتنبّؤون لعبد الرحمن بمستقبل كبير ، حتى قال مَسْلَمَةُ بن عبد الملك[١] فيه : «سيكون لهذا الفتى بالمغرب الأمر العظيم» .

وعندما انتهت الدولة الأموية ١٣٢ هـ وخلفتها الدولة العباسيّة بمساعدة الفرس ، اعتلى السفاحُ أوّلُ خلفائها سُدَّة السلطة ، وكان أشدَّ الناس قسوةً على الأمويّين أبناء عمِّه ، فأمعن في قتل زعمائهم وسفكِ دمائهم ، ودُهِمَ بيتُ عبد الرحمن ، وقُتل أخوه يحيى ، وتمكّن هو من الفرار ، ويحدِّثنا عن فراره فيقول[٢] :

«إنني لجالس يوما في تلك القرية ، في ظلمة بيت تواريت فيه لرمدٍ كان بي ، وابني سليمان بكر ولدي يلعب قدّامي ، إذْ دَخل الصبيُّ فزعاً باكياً ، فأهوى إلى

---

(١) مسلمة بن عبد الملك هو فارس بني أمية بدون منازع .

(٢) انظر تاريخ الأندلس لعبد الفتاح بدوي ٢٢ .

حجري ، فجعلت أدفعه لما كان بي ، ويأبى إلّا التعلّق بي ، وهو دَهِش ، يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع . فخرجت لأنظر ، فإذا الرَّوْعُ قد نزل بالقرية ، ونظرت فإذا الرايات السود عليها منحطّة ، وأخ حَدثُ السنِّ كان معي يشتدُّ هارباً ويقول : النجاةَ يا أخي ، فهذه رايات المُسَوِّدة . فضربت بيدي إلى دنانير تناولتها ، ونجوتُ بنفسي والصبيّ معي ، وأعلمت أخواتي متوجّهي ، وأمرتهنّ أنْ يلحقنني ومولايَ بدرٌ معهنَّ وخرجت ، فكمنت في موضع ناءٍ عن القرية ، فما كان إلّا ساعة حتى أقبلت الخيل ، فأطاحت بالدار فلم تجدْ أثراً . فمضيت ولحقني بدر ، فأتيت رجلاً من معارفي بشطِّ الفرات ، وأمرته أن يبتاع لي دوابًّا وما يصلح لسفري ، فدلَّ عليَّ عبدُ سوءٍ له ، فما راعنا إلّا جلبة الخيل تحفزنا تنادينا من الشط : ارجعا لابأس عليكما . فسبحت حاثاً لنفسي ، وسبح الغلام أخي ، فلما قطعنا نصف الفرات قصَّرَ أخي ، فالتفتُّ لأقويَّ من قلبه ، وإذا هو قد أصغى إليهم وهُمْ يخدعونه عن نفسه ، وناديته: تُقْتَلُ يا أخي ! إليَّ ، إليَّ ، وإذا هو قد اغترَّ بأمانهم وخشي الغرق ، فاستعجل الانقلاب نحوهم ، وقطعت أنا الفرات ، ثم قدَّموا الصبي أخي الذي صار إليهم بالأمان ، فضربوا عنقه ، ومضوا برأسه وأنا أنظر إليه ، فاحتملْتُ فيه ثُكلًا ملأني مخافة ، ومضيت إلى وجهي ، أحسب أني طائرٌ ، فلجأت إلى غيضة فتواريت فيها حتى انقطع عنِّي الطلب ، ثم خرجت هارباً حتى وصلت إلى إفريقية»[1] .

وظلَّ عبد الرحمن يتقلبُ في بلاد المغرب خمس سنين ، وأراد الذهاب إلى الأندلس ، لأنَّ فيها أملاكَ جدِّه هشام ، وقد وهبها لحفيده عبد الرحمن ، ولطموحه في إمارته . وفي ربيع الآخر سنة ١٣٨ هـ ـ ٧٥٥ م دخل عبد الرحمن

---

(١) انظر كتاب صقر قريش لعلي أدهم .

البلاد الأندلسيّة ، ونُودي به أميراً على الأندلس بتدبيرِ اليمانيّة وجنودِ الشام في الأندلس في ألبيرة[1] .

وسار عبد الرحمن إلى إشبيلية ، وانتصرَ فيها في يوم عيد الأضحى ١٣٨ هـ ـ ٧٥٦ م على جيوش أمير الأندلس يوسفَ بن عبد الرحمن الفهريّ . وبعد مناوشات كثيرة عُقد صلح بين يوسف وعبد الرحمن ، تنازل فيه يوسفُ عن الإمارة لعبد الرحمن ، على أن يأمن يوسفُ على نفسه وأتْباعه ، ودخل عبد الرحمن بعد ذلك العاصمة قرطبة ظافراً منصوراً في صفر سنة ١٣٩ هـ ـ تموز ٧٥٦ م . ثم نكث يوسفُ ، فقَتَلهُ ، وقتلَ الصُّميل ، وانتصر على العلاء بن مُغيث الذي دخل الأندلس والياً من قبل الخليفة المنصور عام ١٤٦ هـ ، كما انتصر على أتباع يوسف الفهري في طُلَيْطِلَةَ، وعلى اليمنيّين، وعلى ابن أبي الصباح حاكم إشبيلية لعبد الرحمن ، وعلى البربر الثائرين ، وعلى كثير من الثورات الداخلية ، وعلى جيوش شارلمان الذي تحّرك للقضاء على ملك الداخل تنفيذاً لأغراض هارون الرشيد ببغداد .

وأسّس عبدُ الرحمن لنفسه ولأحفاده دولة عظيمةً واسعة الأرجاء ، امتدَّ حكمها نحو ثلاثة قرون ١٣٨ ـ ٤٢٨ هـ . هذا هو صقر قريش الذي انقضَّ على الأندلس ، فاختطفها واستأثر بها لنفسه وبنيه من بعده حتى حين[2] :

«قال أبو جعفر المنصور يوماً لجلسائه : تعلمون من صقر قريش ؟

قالوا : أمير المؤمنين أيّده الله .

قال : ليس ذاك .

(١) قصة الأدب في الأندلس لمحمد عبد المنعم خفاجي ١/٦٢ .
(٢) قصة الأدب في الأندلس لمحمد عبد المنعم خفاجة ١/٦٢ .

قالوا : فعبد الملك بن مروان .

قال : لا .

قالوا : ما هو؟ وضربوا في عرض الحديث .

فقال أبو جعفر : فتى قريش الأحوذيُّ الفذُّ الذي قذف بنفسه في لجج المهالك لإبتناء مجده ، فاقتحم جزيرة شاسعة المحل ، نائية المطمع ، عصبيّة الجند ، ضرب بين جنودها بخصوصيته ، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته ، حتى انقادَ له عَصِيُّهم ، وذلَّ أبيُّهم ، وإنَّ ذلك لهو الفتى كلّ الفتى ، لا يكذب مادِحُه ، وقد سكن قرطبة ، وبنى بها القصر والمسجد الجامع ، ولقَّبَ نفسه بالداخل ، لأنّه أوَلُ من دخل الأندلس من بني مروان ، ولُقِّبَ هو وذريَّته بالأمراء أبناء الخلفاء»[1] .

وقد بلغت بهذا الأمير جرأته فيما زعموا إلى أن نهض بعمارة بحريّة قاصداً غزو بلاد الشام واستردادها من أيدي العباسيّين ، ولكنَّ الفتن الداخليّة أقعدته عن ذلك . وقد روي عن عبد الرحمن الداخل أنّه استجلب أوّل نخلة من الشرق ، فغرسها في الرصافة التي أنشأها كرصافة جدّه هشام بن عبد الملك ببلاد الشام .

شعره . .

هو أوّل أديب أريب ، وأوّل شاعر أمويّ على أرض الأندلس ، له أشعار فائقة الجودة ، فيها من رونق الشعر ، ورقة المعاني ، وجزالة التراكيب ، ما يوثق صلته بشعراء الدوحة الأمويّة الباسقة ممن سلفه كاليزيد بن معاوية ، والوليد بن

---

(١) المرجع السابق ٦٣/١ .

يزيد بن عبد الملك حيث سهولة التعبير ، ورقّة الحاشية ، وصدق العاطفة والشعور .

ويروى أنه مرَّ ذات يوم بنخلة كان قد غرسها بحديقته في الرصافة ، وكان قد استقدمها من الشرق ، فرآها وحيدة في تلك البقاع ، فألهبت مشاعره ، وذكرته بغُربته وبُعده عن أهله ووطنه ، فقال يصف حاله وحالها :

تَبَدَّتْ لَنَا وَسْطَ الرُّصَافَةِ نَخْلَةٌ تَنَاءَتْ بِأَرْضِ الغَرْبِ عَنْ بَلَدِ النَّخْلِ
فَقُلْتُ : شَبيهي في التَّغَرُّبِ وَالنَّوى وَطُولِ التَّنَائِي عَنْ بَنيَّ ، وَعَنْ أَهْلِي
نَشَأْتِ بِأَرْضٍ أَنْتِ فيهِ غَريبَـةٌ فَمِثْلُكِ في الإِقْصَاءِ وَالْمُنْتَأَىٰ مِثْلِي
سَقَتْكِ غَوادي الْمُزْنِ مِنْ صَوْبِهَا الَّذي يَسِحُّ وَيَسْتَمْرِي السِّمَاكَيْنِ بِالوَبْلِ[1]

وروى الْمُقَّري له أيضاً أنه مرَّ في مناسبة أخرى على تلك النخلة ، فهيَّجت أشجانه الدفينة واستحلبت دمعه المكنون ، فقال يناجيها :

يَـا نَخْـلُ ! أَنْتِ فَـريـدَةٌ مِثْـلي في الأَرْضِ نَـائِيَةٌ عَنِ الأَهْـلِ
تَبكي ! وَهَـلْ تبكي مُـكَمَّـمَـةٌ عَجْمَاءُ ؟ لَمْ تُجْبَلْ عَـلَى جَبْلِ[2]
وَلَـوْ أَنَّهَا عَقِلَتْ ، إِذَنْ لَبَكَـتْ مَـاءَ الفُرَاتِ ، وَمَنْبَتَ النَّخْـلِ !
لَـكِنَّهَـا حُـرِمَـتْ ، وَأَخْـرَجَـني بُغْضي بَني العَبَّـاسِ عَنْ أَهْـلي

وروى صاحب العقد الفريد قال : لَمَّا توطَّد ملك عبد الرحمن بن معاوية ، عمل هذه الأبيات وأخرجَها إلى وزرائه ، فاستَغْربتُ من قوله ، إذ صدَّقها فعلُه ، وهي :

---

(١) نفح الطيب ٥٤/٣ وانظر الحلة السيراء ٣٧/١ .

(٢) وردت قافية هذا البيت في الجزء الثاني من قصة الأدب في الأندلس لمحمد عبد المنعم خفاجه : «لم تجبل على جبلي» .

مَا حَقُّ مَنْ قَامَ ذَا امْتِعَاضٍ بِمُنْتَضَى الشَّفْرَتَيْنِ نَصْلاَ ؟[1]
فَبَزَّ مُلْكاً ، وَشَادَ عِزّاً وَمِنْبَراً لِلْخِطَابِ فَصْلاَ
فَجَازَ قَفْراً ، وَشَقَّ بَحْراً مُسَامِياً لُجَّةً وَمَحْلاَ
وَجَنَّدَ الجُنْدَ حِينَ أَوْدَى وَمَصَّرَ المِصْرَ حِينَ أَجْلَى
ثُمَّ دَعَا أَهْلَهُ جَمِيعاً حَيْثُ انْتَأَوا أَنْ هَلُمَّ أَهْلاَ
فَجَاءَ هَذَا طَرِيدَ جُوعٍ شَرِيدَ سَيْفٍ ، أُبِيدَ قَتْلاَ
فَحَلَّ أَمْناً ، وَنَالَ شِبْعاً وَحَازَ مَالاً ، وَضَمَّ شَمْلاَ
أَلَمْ يَكُنْ حَقُّ ذَا عَلَى ذَا أَوْجَبَ مِنْ مُنْعِمٍ ، وَمَوْلَى ؟[2]

ويقال في سبب نظم هذه القصيدة غير ما أورده ابنُ عبدربه في العقد الفريد ، فيقال : إنّه حاول أن يجمعَ شملَ من تبقّى من أهله في ديار الشام ، فوفد إليه من استطاع . وذكروا أنَّ جماعة من القادمين عليه من الشام حدّثوه يوماً في بعض مجالسهم ، ما كان من أحد أقربائه الذين تخلفوا في المشرق كيف تزلَّف للعبّاسيّين برغم ما أراقوا من دماء قومه . فغاظَ ذلك عبد الرحمن ، واحتقر ذلك الفعلَ من قريبه ، وقام من مجلسه ، وصاغ هذه الأبيات بديهة[3] .

وفي رواية أخرى ، أنّه كتب بهذه الأبيات إلى بعض من وفد عليه من قومه ، لمّا سألَه الزيادَة في رزقه ، واستقلَّ ما قابله به ، وذكَّره بحقِّه . ويروى هذا[4]

(١) جاءت رواية البيت الأول : «شتان» بدلاً «ما حقُّ» انظر قصة الأدب في اوندلس لمحمد عبد المنعم خفاجه صفحة ٢/١٠ مع بعض الزيادة .
(٢) انظر العقد الفريد لابن عبدربه ٤/٤٤٨ ـ ٤٨٩ .
(٣) وجاءت رواية البيت الأخير (أعظم من منعم ومولى) انظر نفح الطيب ٣/٣٨ والحله ١/٣٩ .
(٤) مع إختلاف بسيط في الرواية ، وإسقاط البيت الثاني من الأبيات . انظر نفح الطيب ٣/٣٨ والحلة السيراء ١/٣٩ .

الشعر في كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب صفحة ١٨ على وجه آخر ولسبب آخر ، نلخّصه : في أنَّ جماعة من القادمين عليه من قِبل الشام ، كانوا يتحدّثون في مجلسه عن شجاعة الغمرِ بن يزيدَ بن عبدِ الملك في مجلس السفّاح أيّام المحنة ، حين جبهه بالمعارضة ، ولم تردعه هيبة مجلسه ، ولا سيوف شيعته ، ولم يسكت حتى تناولته سيوفُ بني العبّاس تمزِّقُه . فكأنَّ الأمير عبد الرحمن حين استمع إلى ذلك الحديث ، رأى نفسه فيما بلغ بهمَّته أعظم قدراً منه ، فقال ذلك الشعر .

وتناهى إلى سمع الأمير عبد الرحمن ، حين استقامت له أمور الدولة وشؤونها ، أن بعضهم يَمُنُّ عليه بما بذل له من المعونة ، فحرَّكه ذلك القولُ وهيّجه إلى قول هذه الأبيات يذكر فيها حزمه وعزمَه وعقلَه الذي ساس الأمور ودبَّرها وأحكمَ فتلَها ، معتزّاً بهذا وذاك وبأصوله الأمويّة الموغلة عراقةً ونسباً ، ويردُّ فيها على المتقوِّلين :

لَوْلَايَ مَا مَلَكَ الأَنَامَ الدَّاخِـلُ ... لاَيُلْفَ مُمْتَـنٌّ عَلَيْنَـا قَـائِـلُ :
وَمَقَـادِرٌ بَلَغَت وَحَـالٌ حَـائِـلُ ... سَعْدي ، وَحَزْمي ، وَالْمُهَنَّدُ وَالقَنَا
نَجْمٌ يُـطَالِعُنَـا ، وَنَـجْمٌ آفِـلُ ... إنَّ الْمُلُوكَ مَـعَ الزَّمَـانِ كَـواكِبٌ
أَيَـرومُ تَـدْبِـيرَ البَـرِيَّـةِ غَـافِـلُ ؟ ... وَالحَزْمُ كُلُّ الحَـزْمِ ، أَلَّا تَغْفَلُوا
خَيْرُ السَّعَادَةِ ما حَمَاهَا العَاقِلُ ! ... وَيَقُولُ قَوْمٌ : «سَعْدُهُ لاَ عَقْلُهُ»
بِـالغَرْبِ رَغْـماً وَالسُّعُـودُ قَبَـائِـلُ ... أَبَني أُمَيَّةَ ! قَدْ جَبَرْنَا صَـدْعَكُمْ
فَـالْمُلْكُ فيكُمْ ثَابِتٌ مُتَـواصِـلُ[1] ... مَـادَامَ مِنْ نَسْـلي إمَـامٌ قَـائِمٌ

ومن أبيات بعث بها إلى أخته بالشام ، متشوِّقاً إلى أهله ووطنه ، مشغوفاً بالوجد إلى الأرض التي منها نشأ ، وعليها درج ، وفي ربوعها شبَّ ونضج ؛ أبيات

(١) انظر المعجب في تلخيص أخبار المغرب ١٨ وقصة الأدب الأندلسي ٢/ ١٠ .

تذوب رقّة ، وتسمو عاطفة ، وتدِقُّ إحساساً ، وتتفجَّر صدقاً ، تسيل كأنّها الماء الزلال ، يقول :

أَيُّهَـا الـرَّاكِـبُ المُيَـمِّـمُ أَرْضي أَقْـرِ مِنْ بَعْضِي السَّـلاَمَ لِبَعْضِي
إنَّ جِسْمِي كَـمَا تَـرَاهُ بِـأَرْضٍ وَفُـؤادي ، وَمَـالِكيـهِ بِـأَرْضِ
قَـدَّرَ البَـيْنُ بَيْنَنَـا ، فَـافْتَـرَقْنَـا وَطَوَى البَيْنُ عَنْ جُفُوني غَمْضِي
قَدْ قضَى الدَّهْـرُ بالفِـرَاقِ عَلَيْنَا فَعَسى بِاجْتِمَاعِنَـا سَوْفَ يَقْضِي[1]

وكتب يوماً ، أميّةُ بن يزيد عنه كتاباً إلى بعض عمّاله ، يستقصره فيها فرط فيه من عمله ، فأكثر وأطال الكتاب . فلمّا لَحظة عبد الرحمن ، أمر بقطعه ، وكتب : «أمّا بعد ؛ فإنْ يكن التقصيرُ منكَ مُقَدَّماً ، فحريٌّ أَنْ يكونَ الإكْتَفَاءُ عَنْكَ مُؤَخَّراً ، وقدْ عَلِمْتَ بما تَقَدَّمْتَ ، فاعْتَمِدْ على أَيِّهَا أَحْبَبْتَ»[2] .

هذه البلاغة المعجزة ، والبيان المفصِحُ لا يتأتّى إلاّ من أديب لوذعيّ تمكّن من ناصية القول ، فأسلس له القياد ، فجاء فصيحاً جزْلاً يحاكي أساليب الفصحاء وأهلَ البيان من الأدباء العرب .

وقدم عليه من مصر قريب له اسمه عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم ، وكان من الفرسان الشجعان ، وقد وفد على عبد الرحمن في عشرة رجال فرسان من بنيه ، فولاّة إشبيليةَ ، وقيل ماردة . وولّى أحدَ أبنائه بلدةً أخرى قيل هي لَقَتنا ، وأغنى عبد الملك مع قريبه عبد الرحمن الداخل في حرب يوسف الفهري ، وأبلى بلاء حسناً ، فأحظاه عبد الرحمن ، وزُوِّجتْ كنزةُ ابنةُ عبد الملك من هشام بن عبد الرحمن ولي العهد ، فقال عبد الملك في ذلك قصيدة طويلة ،

---

(١) نفح الطيب للمقري ٥٤/٣ .

(٢) انظر العقد الفريد لابن عبد ربه ٤٨٩/٤ والحاشية رقم ٨ من الصفحة نفسها .

منها :

فَيَا زَمَناً أَوْدَى بِأَهْلِي وَمَعْشَرِي ... لَقَدْ صِرْتَ في أَحْشَائِنَا لَاذِعاً جَمْرا

وَيَزْدادُ دَهْرُ السُّوءِ غِشّاً وَظُلْمَةً ... كَأَنَّ عَلَى شَمْسِ الضُّحَى دُونَنَا سِتْرَا

إلى أَنْ بَدَا مِنْ آل مَرْوانَ مُقْمِرٌ ... أَضَاءَ لَنَا مِنْ بَعْدِ ظُلْمَتِهِ الدَّهْرَا

هِجَانٌ أَصيلُ الرَّأْيِ ، نَدْبٌ مُهَذَّبٌ ... أَقَامَ لَنَا مُلْكاً وَشَدَّ لَنَا أَزْرَا

وَأَنْبَتَ آمَالاً ، وَأَثْبَتَ نِعْمَةً ... وَجِئْنَا ، فَأَلْفَيْنَا الكَرَامَةَ والبِرَّا

أَنَالَ ، وَأَغْنَى مُنْعِماً مُتَفَضِّلاً ... وَأَصْفَى لَنَا مَأْمُولَ أَبْنَائِهِ صِهْرا

فَنَحْنُ حَوَالَيْهِ نُجومٌ تَجَمَّعَتْ ... إلى البَدْرِ ، حَتَّى صِرْنَ مِنْ حَوْلِهِ حِجْرا

ويذكر في هذه القصيدة زفاف ابنته كنزة هذه ، فيقول :

لَعَمْرِي لَقَدْ أَهْدَيْتُ بَيْضَاءَ حُرَّةً ... إلى خَيْرِ مَنْ أَغْلَى بِأَثْمَانِهَا المَهْرَا

لَهَا حَسَبٌ يَأْبَى عَلَى كُلِّ مُقْرِفٍ ... وَيَرْضَى لَهَا تِلْكَ الخَضَارِمَةَ الزُّهْرَا

وَآلُ أَبِي العَاصِ ، هُمْ نُظَرَاؤُهَا ... فَأَكْرِمْ بِشَمسٍ ، أَنْكِحَتْ قَمَراً بَدْرَا[1]

وأتاه في بعض غزواته آتٍ ممن كان يعرف كلفَه بالصيد ، فأخبره عن غرانيقَ واقعة في جانب مضطرب من العسكر ، وحرَّكه إلى اصطيادها ، فأجابه قائلاً :

دَعْني وَصَيْدَ وُقَّعِ الغَرَانِقِ ... فَإِنَّ هِمَّتي في اصْطِيادِ المَارِقِ

في نَفَقٍ إنْ كَانَ أَوْ في حَالِقِ ... إذا التَظَتْ لَوَافِحُ الصَّوائِقِ

كَانَ لِفاعي ظِلَّ بَنْدٍ خَافِقٍ ... غَنيتُ عن رَوْضٍ وَقَصْرٍ شَاهِقٍ[2]

بِالقَفْرِ وَ الإيطَانِ بالسُّرادِقِ ... فَقُلْ لِمَنْ نَامَ عَلَى النَّمارِقِ[3]

(١) انظر التفصيل في المعجب في تلخيص أخبار المغرب ١٨ . والحلة السيرا ١/٥٦ ـ ٥٧ .

(٢) الفاع : ما يتلفع به الانسان من دثار .

(٣) نمارق : جمع نمرقة وهي الوسائد والفرش .

إِنَّ العُـلاَ شُـدَّت بِهَمٍ طَـارِقٍ فَـارْكَبْ إِلَيْهَـا ثَبَـجَ المَضَـائِقِ[1]
أَوْ لاَ فَأَنْتَ أَرْذَلُ الخَلاَئِقِ[2]

وكان ثار عليه ثائرٌ بغربي (بلدة) من أعمال رية بالأندلس ، فغزاه ، فظفر به وأسره ، فبينما هو منصرف وقد حُمل الثائر على بغل مكبولاً ، نظر إليه عبد الرحمن بن معاوية وتحته فرس له ، فقنع رأسه بالقنا ، وقال : يا بغلُ ! ماذا تحمل من الشقاق والنفاق ؟

فقال الثائر : يا فرس ! ماذا تحمل من العفو والرحمة ؟

فقال عبد الرحمن : والله لا تذوق موتاً على يدي أبداً[3] .

وتوفى عبد الرحمن الداخل بعد اثنتين وثلاثين سنة من دخوله الأندلس واستيلائه على الحكم . وكان ولي الملك يوم الجمعة لعشر خلون من ذي الحجة سنة ثمان وثلاثين ومئة هجرية ، وهو ابن ثمان وعشرين سنة ، وتوفي في عشرة جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين ومئة ، فكان ملكه اثنتين وثلاثين سنة وخمسة أشهر . وتولّى بعده ابنه هشام بن عبد الرحمن .

---

(١) ثبج الشيء : وسطه .
(٢) الحلة السيراء ٤١/١ - ٤٢ .
(٣) انظر العقد الفريد لابن عبد ربه ٤٨٩/٤ .

٢ ـ هشام بن عبد الرحمن الداخل
١٣٩ ـ ١٨٠ هـ/٧٥٦ ـ ٧٩٦ م

ولد هشام بن عبد الرحمن الداخل بقرطبة سنة ١٣٩ هـ ، وليَ الخلافة بعد أبيه عبد الرحمن لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ١٧٢ هـ اثنتين وسبعين ومئة .

وهو من أحسن الناس وجهاً ، وأشرفهم نفْساً ، الكامل المروءة ، الحاكم بالكتاب والسنّة ، الذي أخذ الزكاة على حِلِّها ، ووضعها في حقِّها ، لم يعرف منه هفوة في حداثته ، ولا زلَّة في أيَّام صباه ، وذكر أنّه كان يُعرف بالرضا ، وذلك لعدله وفضله[1] .

ورآه يوماً أبوه وهو مقبل ، ممتلىءُ شباباً فأ عجبه ، فقال : يا ليت نساء بني هاشم أبصرنه حتى يَعُدْنَ فوارك[2] . «وإنّ أباه عبد الرحمن استوزره هو وأخاه سليمان ، وأخذهما بالركوب إلى القصر ، ومشاهدة مجالس مشورته . فكانا يركبان متداولين ومتناوبين ، ولا يجتمعان . فإذا كان يوم هشام ، تأهّبَ حاضِرُو المجلسِ من كبار أهل المملكة ، لترتيب الجلسة ، والإفاضة في الحديث ، من إنشاد شعر ،

---

(١) العقد الفريد ٤/٤٩٠ .

(٢) فوارك : جمع فارك وهي المرأة التي تبغض زوجها .

أو ضرب مثل ، أو ذكرٍ يوم من أيّام العرب ، أو وصف حرب ، أو اجتلابِ حيلة ، أو حكاية تدبير ، أو إحمادِ سيرة، وإذا كان يوم سليمان خلا من ذلك كلِّه»[٣]» .

وكان هشام يُصرِّرُ الصُرَرَ بالأموال في ليالي المطر والظُّلمة ، ويبعث بها إلى المساجد ، فيُعطى من وُجد فيها ، يريد بذلك عمارة المساجد . ويروى أنّ رجلاً دخل عليه في حياة أبيه ، وحضَّه على شراء ضيعة كان صاحبها مضطرّاً إلى بيعها في دَين ، وهي ناعمة ومثمرة وطيبة ، فقال له : أنا أريد أمراً إن بلغته غنيتُ عنها ، وَلَاصْطناعُ رجلٍ أحبُّ إليَّ من اكتساب ضيعة . فقال له صاحبه : فاصطنعي بها تجد أكرمَ مُصطنَع . فأمر بابتياعها له . فأشار بعضهم أنَّ الاستعداد بالمال أعون على درك الآمال ؛ فأطرق عنه ثم قال :

البَـذْلُ لاَ الجَمْعُ فِـطْرَةُ الكَرَمِ ... فَلاَ تُرِدْ بِيَ مَـا لَمْ تُرِدْ شِيَمي
مَا أَنَا مِنْ ضَيْعَـةٍ وإنْ نَعِمَتْ ... حَسْبي اصْطِنَاعُ الأَحْرارِ بِالنِّعَمِ
مُلْكُ الـوَرَى وَالعِبَـادِ قَـاطِبَـةً ... لاَ مُلْكُ بَعْضِ الضِّيَاعِ مِنْ هِمَمِي
تَفِيضُ كَفِّيَ في السِّلْم بَحْرَ نَدىً ... وَفي سِجَالِ الحُروبِ بَحْـرَ دَمِ
تَـزِلُّ عَنْ رَاحَتِي البُـدورُ وَمَـا ... تُمْسِـكُ غَـيْرَ الحُسَـامِ وَالقَلَمِ

ثم قال ابن الأبّار : لم أجد لهذا الملك الأمجد ـ مع نشدان ضالّة كلامه ـ غير هذا المَنْشَدِ ، وإن كان قليلاً ، فكفى به دليلاً على سرف الحباء وشرف الحوباء»[٤] .

---

(٣) الحلة السيراء لابن الأبار ٤٢/١ .
(٤) المرجع السابق ٤٢/١ ـ ٤٣ .

وتوفي هشام في صفر سنة ثمانين ومئة ١٨٠ هـ وهو ابن إحدى وثلاثين سنة والأصح إحدى وأربعين سنة ، فكانت مدّة ولايته سبع سنين وعشرة أشهر . ووَليَّ بعده ابنه الحكم بن هشام[1] .

---

(١) العقد الفريد ٤/٤٩٠ لكن الزركلي يعيد ولادته إلى ١٣٩ هـ فيكون موته عند بلوغه الإحدى والأربعين وهو الأصح .

٣ - الحَكَمْ بنُ هِشام
١٥٤ - ٢٠٦ هـ/ ٧٧٠ - ٨٢٢ م

هو الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، وليَ الخلافة بعد موت أبيه في صفر سنة ثمانين ومئة ١٨٠ هـ ، وكان قد ولد في قرطبة سنة ١٥٤ هـ[١] وكانت ولايته ستّاً وعشرين سنة وأحدَ عشر شهراً[٢] . ومات يوم الخميس لثلاث بقين من ذي الحجَّة سنة ستّ ومئتين ، وهو ابن اثنتين وخمسين سنة .

وكان الحَكَمُ بمنزلة الملوك العظام ، شجاعَ النفس ، باسطَ الكفِّ ، عظيمَ العفو ، متخيّراً لأَهل عمله ، ولأَحكام رعيته ، أرْوعَ من يقدر عليهم وأفضلهم ، فيسلِّطهم على نفسه فضلاً عن ولده وسائر خاصّته . وكان له قاضياً قد كفاه أمور رعيّته ، بفضله وعدله وورعه وزهده ، فمرض مرضاً شديداً . . فما رآه إلاّ قضى نحبه . . فاغتمّ له الحكمُ غمّاً شديداً ، قال : وأين لنا بمثله ؟ ومن يقوم للرعيّة مقامه ؟ واستقضى الحكمُ بعده سعيد بن بشير ، فكان أقصدَ الناس إلى حقّ ، وآخذَهم بعدل ، وأبعدهم من هوى ، وأنفذَهم لحُكم .

---

(١) انظر البيان المغرب لابن عذارى .

(٢) كذا في البيان المغرب لابن عذارى ، والذي في سائر الأصول «سبعاً وعشرين سنة» انظر العقد الفريد ٤/٤٩٠ الحاشية .

ورفع إليه رجل من أهل كورة جَيَّان ، أن عاملاً للحَكَمِ اغتصبه جاريةً ، وعمل في تصييرها إلى الحَكَمِ ، فوقعت من قلبه كلَّ موقع ، وأنّ الرجل أثبتَ أمره عند القاضي سعيد بن بشير ، وأتاه ببينة وشهود يشهدون على معرفة ما تظلم منه ، وعلى عين الجارية ومعرفتهم بها . وأوجبت البيِّنة أن تحضر الجارية ، واستأذن القاضي على الحَكم ، فأذن له ، فلمّا دخل عليه ، قال : إنّه لا يتمُّ عدل في العامّة دون إفاضته في الخاصّة ، وحكىَ له أمرَ الجارية وخيَّره في إبرازها إليه ، أو عزله عن القضاء .

فقال له الحكم : ألا أدعوكَ إلى خيرٍ من ذلك ؟! تبتاعُ الجارية من صاحبها بأنفسَ ثمن ، وأبلغ ما يسأله فيها .

فقال : إنَّ الشهود قد شخصوا من كورة جَيَّان يطلبون الحقَّ في مظانّه ، فلما صاروا ببابك تصرفهم دون إنفاذ الحقِّ لأهله ! ولعلَّ قائلاً أن يقول : باع ما يملك بيعَ مُقْتَسرٍ على أمره ! .

فلما رأى الحكمُ عزمه ، أمر بإخراج الجارية من قصره ، وشهد الشهود على عينها ، وقضى بها لصاحبها[1] .

وهكذا كان العرب الأُصلاء من بني أميّة ، فقد قال عنه المقّري : «كان أفحلَ بني أميّة بالأندلس ، وأشدَّهم إقداماً ونجدة ، وكان يشبِّهه بأبي جعفر المنصور من خلفاء بني العبّاس ، في شدّة الملك وتوطيد الدولة وقمع الأعداء»[2] مع الفارق بالكرم والأريحيَّة والعدل .

---

(١) العقد الفريد ٤/٤٩١ .
(٢) نفح الطيب ١/٣٤٠ .

وقال عنه ابن الأبّار : «وكان شجاعاً باسلاً ، أديباً مفتنّاً ، خطيباً مفوّهاً ، وشاعراً مُجوِّداً ، تُحذَرُ صولاته ، وتُستَنْدر أبياته»[1] .

وقد روى صاحب نفح الطيب عن ابن خلدون ، قوله فيه : «إنّه أوّلُ مَن جَنَّدَ الأجناد بالأندلس والمرتزقة ، وجمع الأسلحةَ والعُددَ ، واستكثر من الخدم والحواشي والحشم ، واتّخذ المهالك ، وكانت له عيون يطالعونه بأحوال الناس . وكان يباشر الأمور بنفسه ، وهو الذي وطّأ الملك لعقبه بالأندلس»[2] .

وكانت للحَكَمِ ألفُ فرس مربوطة بباب قصره على جانب النهر ، عليها عشرة عرفاء، تحت يد كلٍّ عريف منها مئة فرس، لا تندب ولا تبرح. فإذا بلغه عن ثائر في طرف من أطراف ملكه ، عاجله قبل استحكام أمره ، فلا يشعر حتى يحاط به .

وأتاه الخبر : أنَّ جابر بن لبيد يحاصر جيَّان ، وهو يلعب بالصولجان في الجسر ، فدعا بعريف من أولئك العرفاء ، فأشار إليه أن يُخرِج مَنْ تحت يده إلى جابر بن لبيد ، ثم فعل مثل ذلك بأصحابه من العرفاء . فلم يشعر ابنُ لبيد حتى تساقطوا عليه متساويين ، فلما رأى ذلك أسقط في يده ، وولّى وصحبه مدبرين[3] .

وفي أيّامه ثار أهل الربض في قرطبة فانبرى إليهم ، وكان جريئاً مقداماً ، وزعموا أنّه حين هاجموه في قصره ، وكانوا بأعداد كثيرة ، وأنّه مقدم على خطر عظيم قد ينتهي به إلى الهلاك ، دعا خادمه أن يأتيه بقارورة غالية[4] ، فتوانى الخادم ظنّاً منه أنَّ سيِّده يلهج في منطقه عند سماعه قعقعة السلاح ، فصاح به وزجره ،

---

(١) انظر الحلة السيراء لابن الأبار ٤٣/١ .
(٢) نفح الطيب ٣٤١/١ .
(٣) العقد الفريد ٤٩٢/٤ .
(٤) الغاليه : نوع من العطر .

وقال له : عجِّل ، فجاءه بالقارورة ، فأفرغها على رأسه ولحيته .

ولم يملك الخادم نفسه أن قال له : وأيّة ساعة طيب هذه يا مولاي فتستعمله ، وقد ترى ما نحن فيه ؟!

فقال له : اسكت لا أمَّ لك ! من أين يعرف قاتلُ الحَكمِ رأسه من رأس غيره إذا هو حُزَّ ، إنْ لم يُفرِّق الطيبُ بينهما ؟ ثم استلأم[1] للحرب ، وأمر بتفريق السلاح والخيل على أجناده ، وأنهضهم لقتال جماهير أهل الربض التي احتشدت تهاجمه ، فانهزمت العامة بعد قتال شديد ، ولم تكن لأحد منهم كَرّة ، وكانوا كالذباب كثرة . ثمَّ لم يلبث بعدها أن هاجمهم وأوقع بهم وقعة شنعاء ، وتمادى القتل والنهب لمنازلهم ، ثم أمر بهدمها وإجلائهم عنها ، وحرث أرضها وأعادها مزرعة[2] .

شعره . .

كان الحكم شاعراً بالفطرة ، زاده صِقالاً مجالسُه الحافلة بالأدباء والشعراء ، وإنّه لا يترك مناسبة إلّا ويقول فيها شعراً . ويظهر لنا من سيرته كما رواها ابن لأبار أنّه لم ينل بعد تلك الوقعة بأهل الربض حلاوة العيش ، إذ أصابته علّة طاولته أربعة أعوام ، وزعموا أنَّه ندم على فعلته بأهل الربض . ومن شعره في ذلك يعذر نفسه بالدفاع عن ملكه وحماية سلطانه ، قوله[3] :

رَأَيْتُ صُدوعَ الأَرْضِ بِالسَّيْفِ رَاقِعاً   وَقِدْماً لأَمْتُ الشَّعْبَ مُذْ كُنْتُ يَافِعاً[4]

---

(١) استلأم : لبس اللأمة وهي الدرع .

(٢) انظر الحلة السيراء لابن الأبار ١/٤٦ .

(٣) العقد الفريد ٤/٤٩٢ .

(٤) رواية العقد «وقدماً رأيت الشعب» .

فَسَائِلْ ثُغُورِي : هَلْ بِهَا اليَوْمَ ثُغْرَةٌ ؟ أُبَادِرُهَا مُسْتَنْضِيَ السَّيْفِ دَارِعَا[1]
وَشَافِهْ عَلَى أَرْضِ الفَضَاءِ جَمَاجِماً كَأَقْحَافِ شِرْيَانِ الهَبِيدِ لَوَامِعَا[2]
تُنْبِيكَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ عَنْ قِرَاعِهِمْ بِوَانٍ ، وَقِدْماً كُنْتُ بِالسَّيْفِ قَارِعا[3]
وَلَمَّا تَسَاقَيْنَا سِجَالَ حُرُوبِنَا سَقَيْتُهُمْ سُمّاً مِنَ المَوْتِ نَاقِعاً
وَهَلْ زِدْتُ أَنْ وَفَّيْتُهُمْ صَاعَ قَرْضِهِمْ فَوَافُوا مَنَايَا قُدِّرَتْ وَمَصَارِعَا
فَهذِي بِلادِي إِنَّنِي قَدْ تَرَكْتُهَا مِهاداً ، وَلَمْ أَتْرُكْ عَلَيْهَا مُنَازِعَا[4]

وقال عثمان بن المثنّى المؤدِّب : قدم علينا عبّاس بن ناصح من الجزيرة أيّام الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، فاستنشدني في شعر الحكم ، فأنشدته ، فلمّا انتهيت إلى قوله :

وَهَلْ زِدْتُ أَنْ وَفَّيْتَهُمْ صَاعَ قَرْضِهِمْ فَوَافُوْا مَنَايَا قُدِّرَتْ وَمَصارِعَا

قال : لو جُوثي الحكم في حكومة لأهل الربض ، لقام بعُذره هذا البيت[5] .

وقد روى له ابن الأبّار في الحلّة السيراء قصيدة في الحرب ، يشير بها إلى أنّه يؤثِر صوتَ صليل السيوف على لحن الأوتار ، فيقول :

غِنَاءُ صَليلِ البيضِ أَشْهىٰ إلىٰ الأُذْنِ مِنَ اللَّحْنِ في الأَوتَارِ وَاللَّهْوِ وَالرُّدْنِ[6]

---

(١) في الأصول : «من منتضى» وما أثبتناه من البيان المغرب ٢ /٧٣ .
(٢) رواية العقد الفريد . وشريان الهبيد : أي شجر الحنضل . والذي في الأصول : «كأجفان شريان الجيد» .
(٣) هذه رواية العقد ٤ /٤٨٢ وأما نفح الطيب : «في قراعهم» والشطر الثاني «وأني كنت بالسيف قارعا» رواية العقد .
(٤) البيت ليس في العقد الفريد وفي الحلة السيراء ١ /٤٧ تسع أبيات .
(٥) العقد الفريد ٤ /٤٩٣ .
(٦) الردن : نسبة إلى الأردان وهي الأكمام كناية عن النساء .

إِذَا اخْتَلَفَتْ زُرْقُ الأَسِنَّةِ وَالقَنَا أَرَتْكَ نُجوماً يَطَّلِعْنَ مِنَ الطَّعْنِ
بِهَا يَهْتَدِي السَّارِي وَتَنْكَشِفُ الدُّجَى وَتَسْتَشْعِرُ الدُّنْيَا لِباساً مِنَ الأَمْنِ
شَقَقْتُ غِمَارَ المَوْتِ تُخْطِىءُ مُهْجَتِي سِهَامُ رَدىً قَبْلِي أَصَابَتْ ذَوِي الجُبْنِ
إِذَا لَفَحَتْ رِيحُ الظَّهَائِرِ لَمْ يَكُنْ لِفَاعِيَ فِيهَا غَيْرَ فَيْءِ القَنَا اللُّدْنِ[1]
وَإِنْ لَمْ يَجِدْ حِصْناً سِوَى الفَرِّ مُقْدِمٌ فَمَالِيَ غَيْرُ السَّيْفِ وَالرُّمْحِ مِنْ حِصْنِ
قَذَفْتُ بِهِمْ مِنْ فَوْقِ بَهْمَاءَ فَارْتَوَتْ لَهُ الأَرْضُ وَاسْتَوْلَى عَلَى السَّهْلِ وَالحَزْنِ[2]
فَسَارَ يُرَوِّي كُلَّ صَدْيَانَ حَائِمٍ وَسَحَّ كَمَا سَحَّتْ عَزَالُ مِنَ المُزْنِ[3]
وَإِنْ عَنَّ لِلتَّيَّـارِ مِنْ سَيَـلانِـهِ ذُرَى شَاهِقٍ أَضْحَى كَمُنْتَفِشِ العِهْنِ[4]
هَنَأْتُ بِهِ حَـرْباً تَقَشَّـعَ بَحْرُهَـا بِحَمْلِ هِنَاءٍ لَيْسَ يَصْلُح لِلْبُدْنِ[5]

ولو أمعنّا النظر في هذه القصيدة ، لأدركنا من الوهلة الأولى أنّ قائلها شاعرٌ فحل تمرَّسَ في أساليب الشعر وأحكم صُنعَه ، وأفتنَّ في نسجه على منوال الفحول من الشعراء . وليس من المعقول أن يكون له فقط هذا النذرُ اليسير من القصيد الذي وصل إلينا . ولابُدَّ من أن يكون تلف قسم كبير منه ، فيما تلف من تراثنا الأدبيّ والفكريّ . بفعل الحملات الوحشيّة التي شنّها البرابرة من مسيحيّي إسبانيا وأوربا على المكتبة العربيّة في الأندلس .

وقد روى المقّرى في نفح الطيب أنّ العبّاس الشاعر نزل بوادي الحجارة ، فسمع امرأة تقول : واغوثاه بك يا حكم ! لقد أهملتنا حتى كَلِبَ العدوّ علينا ، فأيَّمَنا وأيْتَمَنا .

---

(١) الظهائر : الخيل . القنا اللدن : الرمح اللينة المرنة لقوتها .
(٢) البهماء : الركوب من خيل وغيرها .
(٣) عزال من المزن : الضعيف من الغيوم الماطرة .
(٤) العهن : القطن .
(٥) هنأ : طلى بالقطران . البدن : النوق . الحلة السيراء ٤٩/١ .

فسأل عن شأنها ، فقالت : كنت مقبلة من البادية في رفقة ، فخرجت علينا خيل العدو فقتلت وأسرت ، فصنع قصيدته التي مطلعها :

تَمَلْمَلْتُ في وَادِي الحِجَارَةِ مُسْهَراً   أُراعي نُجوماً مَا يُرِدْنَ تَغَوُّرا
إِلَيْكَ أَبَا العَاصي نَضَيْتُ مَطِيَّتِي   تَسِيرُ بِهَمٍّ سَارِياً وَمُهَجِّرَا
تَدَارَكْ نِسَاءَ العَالَمِينَ بِنَصْرَةٍ   فَإِنَّكَ أَحْرَى أَنْ تُغيثَ وَتَنْصُرا[1]

فلما دخل عليه ـ على الحكم ـ أنشده القصيدة ، ووصف له خوف الثغر واستصراخ المرأة باسمه . فما كان منه إلّا أن نادى بالإستعداد للغزو ، وخرج بعد ثلاث إلى وادي الحجارة ، وسأل عن الخيل التي أغارت ، وفتح ديارهم وخرّبها وأسرهم ، وأمر بضرب رقابهم بحضرة المرأة بعد أن أمر بإحضارها . وقال للعبّاس سَلْها هل أغاثها الحكم ؟

فقالت : والله لقد شفى الصدور ، وأنكى العدو ، وأغاث الملهوف فأغاثه الله وأعز نصره . فارتاح لقولها وبدا السرور في وجهه ، وقال :

أَلَمْ تَرَ يَا عَبَّاسُ إنِّي أَجَبْتَها   عَلَى البُعْدِ أَقْتَادُ الخَمِيسَ المُظَفَّرا[3]
فَأَدْرَكْتُ أَوْطَاراً وَبَرَّدْتُ غِلَّةً   وَنَفَّسْتُ مَكْرُوهاً ، وَأَغْنَيْتُ مُعْسِرا

فقال العبّاس : نعم جزاك الله خيراً عن المسلمين وقبّل يده[2] .

هذا جانب من جوانب شعر الحكم في المعارك والطعان ، كيف لا وهو ربُّ السيف والقنا ، فهل له نصيب من شعر الغزل كبقية الملوك ؟

أجل فلكلٍّ رجل صبوة ، وهو بذلك يساير طبيعته البشرية ، لأنّ الغزل

---

(١) انظر نفح الطيب ١/٣٤٣ .
(٢) المرجع السابق ١/٣٤٤ .
(٣) الخميس : الجيش لأنه يتألف من خمسة كراديس مقدمة ومؤخرة وساقة وميمنة وميسرة .

لائط بقلوب الناس ولأنّه الأقرب إلى طبيعتهم ، والحكم يتفق في شعره الغزليّ مع أكثر الملوك الشعراء الذين يعشقون في خضوعهم وتذلُّلهم للحبيب ، حتى وإن كانت جارية في قصره ، لأنّه الطريق الوحيد إلى قلبها ، قلب كلّ أنثى ، فلنستمع إليه يشتكي ويبكي ذُلّ الهوى من جؤذرة تركته صبّاً مستهاماً ، فيقول :

ظَـلَّ مِنْ فَـرْطِ حُبِّـهِ مَمْلُوكـاً ... وَلَقَـدْ كَـانَ قَبْـلَ ذَاكَ مَليكَـا
إنْ بَكىٰ أَوْشَكا الهَوَى زِيَد ظُلْمَاً ... وَبِعَـاداً يُـدْني حِمَـامَاً وَشيكَـا
تَـرَكَتْـهُ جَـآذِرُ القَصْرِ صَبّـاً ... مُسْتَهاماً عَلَى الصَّعيـدِ تَـريكَـا
يَجْعَلُ الخَدَّ وَاضِعاً فَوقَ تُـرْبٍ ... لِلَّذي يَجْعَـلُ الحَـريـرَ أَرِيكَـا
هَكَـذَا يَحْسُنُ التَّذَلُّـلَ في الحُبِّ ... إِذَا كَـانَ في الهَـوَى مَمْلُوكَـا[1]

وقد أورد صاحب نفح الطيب ، من أنّه كان للحكم خمسُ جوارٍ من حظاياه ، يرتعن في صُحبةٍ وألفة ، وكُنَّ من أحبِّ حظاياه إليه ، فتغاضبن عليه وقتاً وقد دبَّت الغيرة بينهن فهجرنه دّلاً وتغاضباً ، فقال فيهن :

قُضُبٌ مِنَ البَانِ مَاسَتْ فَوْقَ كُثْبَانِ ... وَلَّيْنَ عَنِّي ، وَقَدْ أَزْمَعْنَ هُجْراني[2]
نَاشَدْتُهُنَّ بِحَقِّي ، فَاعْتَزَمْنَ عَلَى ... العِصْيَانِ ، حَتَّى خَلاَ مِنْهُنَّ عِصْيَاني
مَلَكْنَني مُلْكَ مَنْ ذَلَّتْ عَزَائِمُهُ ... لِلْحُبِّ ذُلُّ أَسِيرٍ مُوثَقٍ عَانِ
مَنْ لي بِمُغْتَصِبَاتِ الرُّوحِ مِنْ بَدَني ... يَغْصِبْنَني في الهَوَى عِزِّي وَسُلْطَاني[3]

---

(١) انظر الحلة السيراء ١/٤٩ .
(٢) قضب : جمع قضيب يشبه به القد الأملول . والكثبان : كناية عن الأرداف السمينة . أزمعن : انتوين .
(٣) انظر نفح الطيب ١/٣٤٣ حيث رواية البيت الأخير : «من لي بمقتضيات الروح» . والحلة السيراء ١/٥٠ رواية البيت كما وردت .

٤ ـ عبد الرحمن الثاني بن الحكم المعروف بالأوسط
١٧٦ ـ ٢٣٨ هـ/ ٧٩١ ـ ٨٥٢ م

هو عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، المعروف بعبد الرحمن الأوسط . ولي بعد أبيه في ذي الحجّة سنة ست ومئتين ٢٠٦ هـ ، وظلّ في الحكم إحدى وثلاثين سنة ونصف تقريباً ، ومات ليلة الخميس لثلاث خلون من شهر ربيع الآخر سنة ثمانٍ وثلاثين ومئتين ٢٣٨ هـ وهو ابن اثنتين وستينّ سنة[1] .

وكان قد ولد بقرطبة سنة ١٧٦ هـ ، وكان من أندى الناس كفّاً ، وأكرمهم عطفاً ، وأوسعهم فضلاً وأفصحهم لساناً . فقد كتب إليه بعض عُمّاله يسأله عملاً رفيعاً لم يكن من شاكلته ، فوقّع في أسفل كتابه : مَن لم يُصِبْ وَجْهَ مَطْلَبِهِ ، كان الحِرمانُ أوْلَى به[2] .

وهو الذي وفد عليه المغنّي المشرقي المشهور زرياب ، وأفشى صناعة الغناء في الأندلس ، فأكرم مثواه ، وأكثر عطاياه ، وشجّعه ، فارتقى بفضلها فن الغناء بالأندلس .

---

(١) انظر العقد الفريد ٤/٤٩٣ .
(٢) المرجع السابق .

وكان عبد الرحمن هذا عالماً بعلوم الشريعة ، والفلسفة ، وقال عنه ابن الأبّار : كان فصيحاً مفوّهاً شاعراً ، مع سعة العلم والحلم وقلّة القبول للبغي والسعايات ، وهو الذي استكمل فخامة الملك بالأندلس ، وكسا الخلافة الأمويّة أبَّهة الجلالة ، ونعَتَهُ بالرابع من خلفاء بني أميّة بالأندلس(١) .

وكثرت الأموال والدخول عليه ، حتّى أنّه أعطى جاريته مرّةً حلياً بمئة ألف دينار ، فقيل له : إنّ مثل هذا لا ينبغي أن يخرج من خزانة الملك ، فقال : «إنّ لابسه أنفسُ منه خطراً ، وأرفعُ قدراً ، وأكرمُ جوهراً ، وأشرفُ عنصراً» ولزمت مقصورتها مرّةً وهجرته لأنّه أغضبها ، فترضّاها بأنْ أمر بسدّ الباب ببَدَر الدراهم ، وكلَّمها مُسترضياً راغباً في المراجعة ، على أنَّ لها جميعَ ما سدَّ به الباب(٢) .

واشتهرت طروب جاريته بأنّها محبَّبة إليه ، وأنَّها كانت أكثر جواريه سلطاناً عليه . وكان مولعاً بالنساء ، فاستكثر من الجواري ، فكثر أولاده بحيث زعم المقري أنّه كان له من الذكور والإناث نحو مئتين(٣) ، غير أنّ المراكشي لم يذكر له من الذكور سوى ٤١ ، ومن الإناث ٤٢ . وكان بين أولاده عدد من الشعراء . وقد ذكر المؤرِّخون أشعاراً لخمسة منهم .

شعره . .

وذكر له المقّري وابن الأبّار شعراً يتشوق فيه لجاريته طروب ، يسير به على طريقة الأقدمين من حيث تضمينه الغزل ، الفخر بالبأس والشجاعة والبساله ، وكرم الأهل والفخر بالأجداد ، مضفياً على ذاته مسحة دينيّة ، إذْ به تداركَ اللهُ

(١) انظر الحلة السيراء ١/١١٣ .
(٢) انظر نفح الطيب ١/٣٤٩ .
(٣) انظر نفح الطيب ١/٣٤٧ .

دينَ الهدى وقهرَ أهلَ الصليب والشرك فملأ بجيشه الجّرار الحزون والسهوب ، يقول :

فَقَدْتُ الهَوَى مُذْ فَقَدْتُ الحَبِيبَا فَـمَا أَقْطَعُ اللَّيْـلَ إلاَّ نَحيبَـا
وَأَمَّـا بَـدَتْ لِيَ شَمْسُ النَّهَـارِ طَـالِعـةً ، ذَكَّـرَتْني طَـروبَـا[1]
فَيَـا طُـولَ شَـوْقي إلى وَجْهِهَـا وَيَـا كَبِـداً أَوْرَثَـتْهَـا نُـدوبَـا
وَيَـا أَحْسَـنَ الخَـلْقِ في مُـقلَتي وَأَوْفَـرَهُـمْ في فُؤَادي نَـصيـبَـا
لَئِنْ حَـالَ دُونَـكِ بُعْـدُ المَزَارِ مِنْ بَعْـدِ أَنْ كُنْتِ مِنِّي قَـريبَـا
لَقَدْ أَوْرَثَ الشَّوْقُ جِسْمَي الضَّنَى وَأَضْـرَمَ في القَلْبِ مِنِّي لَهيَبـا
عَـدَاني عَـنْـك مَـزَارُ العِـدَا وَقَـوْدي إِلَيْهِمْ لَهـامـاً لَهيبَـا[3]
كَـأَيِّـنْ تَخَـطَّيْتُ مِـنْ سَبْسَـبٍ وَجَـاوَزْتُ بَعْـدَ دُروبٍ دُروبَـا
أُلاَقـي بِـوَجْهـي حَـرَّ الهَجـيرِ إِذَا كَادَ مِنْهُ الحَصَى أَنْ يَـذُوبَا
وَأَدَّرِعُ الـنَّـقْـعَ حَـتَّى لَـبِـسْـتُ وَمِنْ بَعْدِ نُضْرَةٍ وَجْهِي شُحُوبَا
أُريـدُ بِـذَاكَ ثَـوَابَ الإِلَـهِ وَمَنْ غَيْـرُهُ أَبْتَغيـهِ مُثيبَـا ؟؟
أَنَـا ابْنُ الهِشَـامَيْنِ مِنْ غَـالِبٍ أَشِبُّ حُروباً ، وَأُطْفي حُـروبَا[4]
بِيَ ادَّارَكَ الـلَّهُ ديـنَ الهُـدَى فَـأَحْيَيْتُهُ ، وَاصْـطَلَمْتُ الصليبَا[5]
سَمَوْتُ إلى الشِّرْكِ في جَحْفَلٍ مَلأْتُ الحُزُونَ بِهِ وَالسُّهُـوبَـا[6]

---

(١) طروب : اسم جاريته .

(٢) الياء في البيت للندبة . والندوب : آثار الجروح .

(٣) الهاماً : صفة نابت عن موصوف أي قدت لهم جيشاً أكولاً لا يبقى ولا يذر .

(٤) الهشامين هشام بن عبد الملك وهشام بن عبد الرحمن الداخل من أجداده . وغالب من أجداد قريش .

(٥) اصطلم : أحرق وأفنى .

(٦) انظر نفخ الطيب ١/٣٤٩ والحلة السيراء ١/١١٤ ـ ١١٥ .

ويحكى في قصّة الجواهر التي أهداها إلى جاريته طروب ، حين لامه وزيرُه على ذاك كما مرّ معنا ، أنّه دعا شاعرَه وجليسه عبدُ الله بن الشمر ، وذكر له ما كان بينه وبين وزيره في شأن عقد الجوهر ، وقال : هل يحضرك شيء في تأكيد ما احتججنا به ؟ قال : نعم ! وأطرق بريهة ثم أنشأ يقول :

أَتَقْرِنُ حَصْبَاءَ اليَـواقيتِ وَالشُّذْرِ إلى مَنْ تَعالَىَ عَنْ سَنَا الشَّمْسِ وَالبَدْرِ ؟
إلى مَنْ بَرَتْ قِدْماً يَدُ اللَّهِ خَلْقَهُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً غَيْرَهُ أَحَدٌ يَـبْري
فَأَكْرِم بِهِ مِنْ صِيغَةِ اللَّهِ جَوْهَراً تَضَاءَلَ عَنْهُ جَوْهَرُ الـبَرِّ وَالبَحْرِ
لَهُ خَلَقَ الرَّحْمَانُ مَا في سَمَائِهِ وَمَا فَوْقَ أَرْضيهِ ، وَمَكَّنَ في الأَمْرِ

فأعجب الأمير عبد الرحمن ببديهته ، وتحرَّك طبعه للقول ، وأنشأ يقول مناغياً على رويّه :

قَريضُكَ يَا ابْنَ الشَّمْرِ عَفَّى على الشِّعْرِ وَأَشْرَقَ بِالإيضَاحِ في الوَهْمِ وَالفِكْرِ
إِذَا جَالَ في سَمْعٍ يُؤَدِّي بِسِحْرِهِ إلى القَلبِ إِبْداعاً يَجِلُّ عَنِ السِّحْرِ
وَهَلْ بَرَأَ الرَّحْمَنُ في كُلِّ مَا بَرا ؟ أَقَـرَّ لِعَـيْنٍ مِنْ مُنَعَّمَـةٍ بِكْـرٍ ؟!
تَرَى الوَرْدَ فَوْقَ اليَاسَمين بِخَدِّهَا كَمَا نَوَّفَ الرَّوْضُ المُنَوَّرُ بِالزَّهْـرِ
فَلَوْ أَنَّني مُلِّكْتُ قَلْبِي وَنَـاظِرِي نَظَمْتُهُمَا مِنْهَا عَلَى الجِيدِ وَالنَّحْرِ

فقال له ابن الشمر : «ياابن الخلائف ! شعرك والله أجود من شعري»[1] .

وله مقطوعة غزلية مرقَّصة ، فيها من السحر والرقّة والعذوبة ما يرقى بها إلى مصاف أشعار كبار الغزليين ، يقول :

قَـتَـلْـتَـنـي بِهَـواكَـا وَ مَـا أُحِـبُّ سِـوَاكَـا
مَـنْ لي بِسِـحْـرِ جُفُـونٍ تُـديُرُهُ عَـيْـنَـاكَـا

(١) انظر الحلة السيراء ١/١١٦ - ١١٧ .

وَحُمْـرَةٍ فـي بَـيَـاضٍ تُكْسـى بِـهِ وَجْنَتَـاكَـا
اعْـطِـفْ عَـلَيَّ قَـلـيـلاً وَأَحْـيِـنـي بِـرِضَـاكَـا
فَـقَـدْ قَنِـعْـتُ وَحَـسـبِـي بِـأَنْ أَرَى مَـنْ رَآكَـا

ويروى أنّه فرّق في يوم من الأيّام ـ كان قد قُصد فيه ـ بدراً من المال على من حضره ، وكان عبيد الله بن قرلمان أحدَ خواصّه ومواليه غائباً ، فلم ينل شيئاً ، فكتب إليه أبياتاً منها :

يَـامَـلِـكـاً حَـلَّ ذُرَى المَـجـدِ وَعَـمَّ بِـالإِنْـعَـامِ وَالـرِّفْـدِ
طُـوبَى لِمَـن أَسْـمَـعْـتَـهُ دَعْـوَةً فِي يَـوْمِـكَ المَأْنُـوسِ بِـالقَصْـدِ
فَـظَلَّ ذَاكَ اليَـوْمُ مِن قَصْفِـهِ مُـسْـتَـوْطِـنـاً في جَـنَّـةِ الخُـلْدِ
فَـامْنُنْ بِتَنْـوِيـلي جَـدَاً لَمْ يَـزَلْ يَـعِمُّ أَهـلَ القُـرْبِ وَالبُـعْـدِ

فوقع في أسفل القصيدة : من آثر التضجُّع ، فليرضَ بحظِّه من النوم ! فأجابه ابن قرلمان بأبيات ، أوّلها :

لاَ نِمْتُ إِنْ كُنْتُ يَا مَوْلاَيَ مَحْرُوماً . . . .

فأمر له بالصلة ، وردّ في جوابه أبياتاً ، يقول :

لاَغَرْوَ أَنْ كُنْتَ مَمْنُوعاً وَمَحْرُومَـا إِذْ غِبْتَ عَنَّا ، وَكَانَ العُرْفُ مَقْسُومَا
فَلَنْ يَنَالَ امْرُءٌ مِنْ حَـظِّهِ أَمَلاً حَتَّى يَشُدَّ عَلَى الإِجْهَادِ حَيْزُومَا
فَهَـاكَ مِنْ سَيْبِنَا مَـا كُنْتَ تَأْمَلُهُ إِذْ حُمْتَ فَوْقَ رَجَاءِ الوِرْدِ تَحْوِيمَا[2]

وجاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي عنه : «أنّه أوّل من فخم الملك بالأندلس من الأمويّة ، وكسا أبّهة الخلافة والجلالة ، وفي أيّامه أحدث في الأندلس لبس

(١) انظر الحلة السيراء لابن الأبار ١١٨/١ .
(٢) المرجع السابق ١١٨/١ ـ ١١٩ . السيب : العطاء الرفد . الورد : المنهل .

المطرز ، وضرب الدراهم ، ولم يكن بها دارُ ضربٍ منذ فتحها العرب ، وإنّما كانوا يتعاملون بما يُحمَل إليهم من دراهم أهل الشرق . وهو كذلك أوّل من أدخل الفلسفة إلى الإندلس»[1] .

وذكرت له أبيات في الحكمة رواها صا حب نفح الطيب يقول :

وَلَقَــدْ تَعَـارَضُ أَوْجُـهٌ لأوَامِـرٍ   فَيَقُـودُهَا التَّـوْفيقُ نَحْـوَ صَـوَابِهَـا
وَالشَّيْخُ إنْ يَحْوِ النُّهَى بِتَجارِبٍ   فَشَبَابُ رَأْيِ القَومِ عِنْدَ شَبَابِهَا[2]

(١) انظر تاريخ الخلفاء الدين السيوطي ٥٢٢ .
(٢) انظر نفخ الطيب ٣٤٨/١ .

٥ ـ محمد بن عبد الرحمن الثاني «الأوسط»
٢٠٦ ـ ٢٧٣ هـ/ ٨٢٠ ـ ٨٨٦ م

هو محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، ولي الملك بعد أبيه ، يوم الخميس لثلاث من شهر ربيع الآخر سنة ثمانٍ وثلاثين ومئتين ٢٣٨ هـ ، وملك أربعاً وثلاثين سنة . وتوفّي يوم الجمعة مستهلّ ربيع الأوّل سنة ثلاث وسبعين ومئتين ٢٧٣ هـ ، وهو ابن سبع وستّين سنة[1] .

وكان قد ولد بقرطبة سنة ٢٠٦ هـ ، ولّما كان أميراً في حياة أبيه عبد الرحمن ، كتبَ له الشاعر عبد الرحمن بن الشّمرِ ، وكان يتجنّب الوقوف ببابه مخافة نصيرٍ الفتى ، فلما مات نصرٌ هذا كتب ابن الشمر هذه الأبيات إلى محمّد ، يقول فيها :

لَئِنْ غَابَ وَجْهي عَنْكَ إنَّ مَوَدَّتي ... لَشَاهِدَةٌ في كُلِّ يَوْمٍ تُسَلِّمُ
وَمَا عَاقَني إلاَّ عَدُوٌّ مُسَلَّطٌ ... يُذِلُّ ، وَيُقْصِي مَنْ يَشَاءُ وَيُرْغِمُ
وَلَمْ يَسْتَطِلْ إلاَّ بِكُمْ ، وَبِعِزِّكُمْ ... ولا ينبغي أن يُمنح العزَّ مجرم
فمكّنتموه فاستطال عليكم ... وكادت بنا نيرانه تتضرّم
كذلك كلب السوء إن يشبع انبرى ... لمشبعه مستشليا يترمرم

(١) انظر العقد الفريد ٤/٤٩٣ .

وهي قصيدة طويلة تستحقُّ الوقوف كثيراً[1] .

وقالوا عنه : وكان أيْمَنَ الخلفاء بالأندلس ملكاً ، وأسراهم نفساً ، وأكرمهم تثبُّتاً وأناةً ، وكان السعي عنده ساقطاً ، يجمع إلى هذه الخلال الشريفة البلاغة والأدب[2] .

وقال ابن عبدربه : وحدث بَقِيُّ بن محمد الفقيه قال : ما كلَّمتُ أحداً من الملوك أكمل عقلاً ، ولا أبلغَ لفظاً من الأمير محمد . دخلت عليه يوماً في مجلس خلافته ، فافتتح الكلام ، فَحَمِدَ الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي ﷺ ، ثم ذكر الخلفاء خليفة خليفة ، فحكى كُلَّ واحدٍ منهم بِحِلْيته ونَعْتِه ووصفه ، وذكر مآثره ومناقبه، بأفصحَ لسان ، وأبين بيان ، حتى انتهى إلى نفسه فسكت... وقال أيضاً : وكان الأمير محمد غَزَّاءً لأهل الشرك والخلاف ، وربَّما أوغل في بلاد العدوّالستّة الأشهر أو أكثر ، يحرق وينسف ، وله في العدو وقيعة وادي سَليط ، وهي من أمَّهات الوقائع ، لم يُعرف مثلها في الأندلس قبلها . وفيها يقول عبّاس بن فرناس ، وشعره يكفينا من صفتها :

وَمُخْتَلِف الأَصْواتِ ، مُؤْتَلِفِ الزَّحْفِ ... لَهُوم الفَلاَ ، عَبْلِ القَنَابِلِ مُلْتَفٍّ
إذَا أَوْمَضَتْ فيهِ الصَّوَارِمُ خِلْتَهَا ... بُروقاً تَراءَى في الجَهَامِ وَتَسْتَخْفي[3]

شـــعره . . .

وروى ابن الأبّار له في الحلّة السيراء ، قال : قال في منصرفه من بعض غزواته[4] :

---

(١) المرجع السابق .
(٢) انظر الحلة السيراء ١/١١٩ .
(٣) القصيدة طويلة انظر العقد الفريد ٤/٤٩٥ ـ ٤٩٦ .
(٤) انظر الحلة السيراء ١/١١٩ ـ ١٢٠ .

قَفَلْتُ فَأَغْمَدتُ السُّيُوفَ عَنِ الحَرْبِ وَمَا أُغْمِدَتْ عَنيِّ السُّيُوفُ مِنَ الحُبِّ
صَدَرْتُ وَبي لِلْبُعْدِ مَابي ، فَزَادَني إلى الشَّوقِ أَشْواقاً ، رَجائِيَ في القُرْبِ
أُحِلُّ شِدادي في السُّرادِقِ نَازِلاً وَلِلشَّوْقِ عِقْدٌ لَيْسَ يَنْحَلُّ عَنْ قَلْبي
أَقُـرْطُبَةُ ! هَـلْ لِي إلَيْكِ وِفَـادَةٌ تَقَرُّ بِعَيْني أَوْ تُمَهِّدُ مِنْ جَنْبي ؟
سَقَى القَصْرَ غَيْثٌ بِالرُّصَافَةِ مِثْلُهُ وَجَادَتْ عَزَالِيَّهُ كَجُودِيَ في الحُبِّ[1]
عَـدَاني عَدُوٌّ عَنْ حَبيبٍ فَـزُرْتُهُ بِجَيْشٍ تَضيقُ الأَرْضُ عَنْ عُرْضِهِ الرَّحْبُ
إِذَا اسْوَدَّ مِنْ لَيْلِ الدُّروعِ تَبَلَّجَتْ أَسِنَّتُهُ فيهِ ، عَنِ الأَنْجُمِ الشُّهْبِ
عَلَى أَنَّني حِصْنٌ لِجَيْشي إذا الْتَقَوا وَعَزْمي بِهِمْ أَدْنَى السُّيُوفِ إلى الضَّرْبِ

وذكر له أيضاً ، قوله :

ذَكَـرَ الصَّبُـوحَ فَـظَلَّ مُصْـطَبِحاً يَسْـتَعْمِـلُ الإِبْـرِيـقَ وَالقَـدَحَـا
مَـازَالَ حَيّـاً وَهْـوَ يَشْرَ بُهَـا حَتَّى أَمَـاتَتْـهُ الكُؤُوسُ ضُحى[2]

وكان محمدّ من مناجيب الخلفاء ، بَسَقَ من أولاده في الأدب عدّة ، ذكر منهم ابن الأبّار أربعةً كانوا أدباء ، عدا ابنيه اللذين ملكا بعده[3] ، منهم واحد كان اسمه المنذر له شعر ، وهو غير المنذر بن محمّد بن عبد الرحمن الأوسط الذي صار خليفة بعد والده محمّد[4] .

---

(١) انظر الحلة السيراء ١/١٢٠ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) الحلة السيراء ٢/٣٦٦ - ٣٦٧ .
(٤) نفح الطيب ٣/٥٧٤ - ٥٧٩ .

٦ ـ المنذر بن محمّد بن عبد الرحمن الثاني
٢٢٩ ـ ٢٧٥ هـ/٨٤٢ ـ ٨٨٧ م

هو المنذر بن محمد بن عبد الرحمن الثاني بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، ولي الأمارة بعد أبيه ، يوم الأحد لثلاث خلون من ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين ومئتين ٢٧٣ هـ . وكان قد ولد بقرطبة سنة ٢٢٩ هـ ، ومات يوم السبت في غزاة له على بُبَشْتر ، لثلاث عشرة بقيت من صفر سنة خمس وسبعسن ومئتين ٢٧٥ هـ ، وهو ابن ستّ وأربعين سنة[١] .

وكان أشدَّ الناس شكيمة ، وأمضاهم عزيمة ، ولمّا ولي الملك بعث إليه أهل طليطلة بجبايتهم كاملة فردّها عليهم ، وقال : استعينوا بها في حربكم ، فأنا سائر اليكم إن شاء الله . ثم غزا المارق المرتدّ عمر بن حفصون وهو بحصن قامرة[٢] فأحدق به وبخَيْله ورَجلْه ، فلم يجد الفاسقُ منفذاً ولا متنفّساً ، فأعمل الحيلة ولاذ بالمكر والخذيعة ، وأظهر الإنابة والإجابة وأن يكون من مستوطني قرطبة بأهله وولده ، وسأل إلحاق أولاده في الموالي .

---

(١) انظر العقد الفريد ٤/٤٩٦ .
(٢) انظر البيان المغرب ٢/١٩٤ .

فأجابه الأمير إلى كلٍّ ما سأل ، وكتب لهم الأمانات ، وعاد ، ولكنّ المارق نكث عهده وارتدّ ، فعقدَ المنذرُ على نفسه ألاّ يعطيَه صلحاً ولا عهداً ، ثم غزاه الغزاة التي توفي فيها[1] .

ولم يعرف له شعر ، ولكنّه كان فيما ذكر ابن الأبّار ؛ أنّه مع زهده في الأدب وعطوله من حليته ، يعجب بالشعر ، ويفضِّل أهله ، ويرغب في المديح ، وقد مدحه ابن عبدربِّه صاحب العقد الفريد ، فقال فيه :

بِالمُنْذِرِ ابْنِ مُحَمَّدٍ شَرُفَتْ بِلَادُ الأَنْدَلُسْ
فَالطَّيْرُ فيها سَاكِنٌ وَالوَحْشُ فيها قَدْ أَنِسْ[2]

ثم خلفه أخوه عبد الله بن محمّد سنة ٢٧٥ هـ .

---

(١) العقد الفريد ٤/٤٩٧ .
(٢) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ١/٤٦ والحلة السيراء ٢/٣٦٧ .

٧ ـ عبدالله بن محمّد بن عبد الرحمن الثاني
٢٢٩ ـ ٣٠٠ هـ/٨٤٣ ـ ٩١٢ م

هو عبدالله بن محمّد بن عبد الرحمن الثاني ، خلف أخاه المنذر بن محمّد إثر وفاته في إحدى غُزاته ، وقال عنه ابن عبد ربِّه : ثم تولّى عبدالله بن محمّد ، التقيّ النقيّ ، العابد الزاهد ، التالي لكتاب الله ، والقائم بحدود الله ؛ يوم السبت لثلاث عشرة بقيت من صفر سنة خمس وسبعين ومئتين ٢٧٥ هـ . فبنى الساباط ، وخرج إلى الجامع ، والتزم الصلاة إلى جانب المنبر حتى أتاه أجله ، رحمه الله ، يوم الثلاثاء لِليلة بقيت من صفر سنة ثلثمئة ٣٠٠ هـ[١] .

وقال عنه السيوطي : «وهو أصلح خلفاء الأندلس علماً وديناً»[٢] وكانت له غزوات ، منها غزاة بَلِيٍّ التي أنسَتْ كلّ غزاة تقدَّمتها ، وذلك أن المرتدَّ ابن حفصون ألَّب عليه كور الأندلس حتّى لم يبق منها إلاّ قرطبة وحدها ، ثم أقبل في ثلاثين ألفاً من أهل الكور فنزل حصن بَلِيّ ، وخرج إليه الأمير عبدالله بن محمّد في أربعة عشر ألفاً من أهل قرطبة خاصّة ، وأربعة عشر من حشمة ومواليه ، فلم يكن له فيهم إلاّ صدمة صادقة ، أزالهم بها عن معسكرهم ، وفرَّ في خمسة معه وقد

(١) العقد الفريد ٤/٤٩٧ .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٥٩٢ .

طاربهم جناح الفرار ، فعملت الرماح في أكتافهم ، والسيوف في طِلا أعناقهم حتى أفْنوا أو كادوا ، ومن التقِطَ منهم وهم نحو ألف قتلهم الأمير صبراً بين يديه [1].

شعره :

كان الأمير عبدالله أديباً يحب الشعر ويقرضه ، فقد قال عنه ابن الأبّار : «كان شاعراً بليغاً ، بصيراً باللغة ، والغريب ، وأيّام العرب» [2] وله في النسيب قوله :

يَـاكَبِـدَ المُشْتَـاقِ مَـا أَوْجَعَـكْ ... وَيَـا أَسِيرَ الحُبِّ مَـا أَخْشَعَـكْ

وَيَارَسُولَ العَـيْنِ مِنْ لَحْظِهَـا ... بِالـرَّدِّ وَالتَّبْلِيـغِ مَـا أَسْـرَعَـكْ

تَـذْهَـبُ بِـالسِّرِّ فَـتَـأْتِي بِـهِ ... في مَجْلِسٍ يَخْفَى عَلَى مَنْ مَعَكْ

كَمْ حَـاجَـةٍ أَنْجَـزْتَ إِبْـرازَهَـا ... تَبَارَكَ الـرَّحْمَنُ مَـا أَطْـوَعَـكْ [3]

وله في النسيب أيضاً ، قوله :

وَيْحِي عَـلَى شَـادِنٍ كَحِيـلٍ ... في مِـثْـلِهِ يُخْـلَعُ الـعِـذَارُ

كَـأَنَّمَـا وَجْـنَـتَـاهُ وَرْدٌ ... خَـالَـطَهُ الـنُّـورُ وَالـبَـهَـارُ

قَـضِـيـبُ بَـانٍ إِذَا تَـثَـنَّى ... يُـدِيـرُ طَـرْفـاً بِـهِ احْـوِرَارُ

وَقْـفٌ عَـلَيْـهِ صَـفَـاءُ وُدِّي ... مَـا اخْـتَـلَفَ الـلَّيْـلُ وَالـنَّـهَـارُ [4]

وطرق الأمير عبدالله باب الزهد ، وأكثر فيه وجوَّد ، ومن زهديّاته ، قوله :

يَـا مَـنْ يُـراوِغُـهُ الأَجَـلْ ... حَـتَّـامَ يُـلْهِـيـكَ الأَمَـلْ

---

(١) العقد الفريد ٤/٤٩٨ .

(٢) الحلة السيراء ١/١٢٠ .

(٣) انظر قصة الأدب في الأندلس ٢/١١ مع اختلاف رواية البيت الأول . ونفح الطيب ١/٣٥٢ ، والحلة السيراء ١/١٢١ ما رويناه .

(٤) انظر الحلة السيراء ١/١٢١ .

حَـتَّـامَ لاَ تَخْشَى الـرَّدَى وَكَـأَنَّـهُ بِـكَ قَـدْ نَـزَلْ
أَغْفَلْتَ عَنْ طَلَبِ الـنَّجَا ةِ ، وَلاَ نَـجَـاةَ لِمَـنْ غَـفَـلْ
هَـيْـهَـاتَ يَـشْـغَـلُكَ الـرَّجَـا ءُ ، وَلاَ يَـدُومُ لَـكَ الشُّغُـلْ[1]

وقال في الزهد أيضاً :

أَرَى الـدُّنْيَا تَصِـيرُ إِلى فَنَاءِ وَمَـا فِـيهَـا لِشَيْءٍ مِنْ بَـقَـاءِ
فَـبَـادِرْ بِـالإِنَـابَـةِ غَـيْرَ لاَوٍ عَـلَى شَيْءٍ يَـصِـيرُ إِلى فَـنَـاءِ
كَـأَنَّـكَ قَـدْ حُمِلْتَ عَلَى سَرِيرٍ وَصَـارَ جَـدِيـدُ حُسْنِكَ لِلْبَـلاَءِ
فَنَفْسُـك فَابْكِهَـا أَوْ نُحْ عَلَيْهَا فَـرُبَّمَـا رُحِمْتَ عَـلَى البُكَـاءِ[2]

وكان الوزراء في عهده ، كما يقول المقَّري : يطالعون بآرائهم الخليفة في بطاقة ، فطالعه وزيره النضر بن سلمة برأيه في أمر ، في ورقة : فلمّا وقف عليها ، لم يعجبه ذلك الرأي ، فكتب له شعراً هجاه فيه ، مطلعه :

أَنْـتَ يَـا نَضْرُ آبِـدَهْ لَـيْسَ تُـرْجَـى لِـفَـائِـدَهْ[3]

وهجا رجلاً آخر ، وانتقد لحيته الطويلة ، ثم أرضاه فيها بعد[4] .

وقام بعده حفيده عبد الرحمن بن محمّد الملقب بالناصر[5] .

---

(١) المرجع السابق ١/١٢٢ .
(٢) انظر الحلة السيراء ١/١٢٢ .
(٣) نفح الطيب ١/٣٥٣ .
(٤) نفح الطيب ١/٣٥٥ .
(٥) تاريخ الخلفا للسيوطي ٥٩٢ .

٨ ـ عبد الرحمن الثالث بن محمّد ، الملقَّب بالناصر
٢٧٧ ـ ٣٥٠ هـ/ ٨٩٠ ـ ٩٦١ م

هو عبد الرحمن بن محمّد بن عبدالله بن محمّد بن عبد الرحمن الثاني بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل . أبو المطرِّف المروانيّ الأمويّ ، أوَّلُ من تلقَّب بالخلافة من رجال الدولة الأمويّة في الأندلس ، ولُقِّب بأمير المؤمنين ، الناصر لدين الله .

ولد بقرطبة سنة ٢٧٧ هـ وقتل أبوه محمّد بن عبدالله ، وعمره واحد وعشرون يوماً فربّاه جدّه عبدالله بن محمد أمير الأندلس السابع (٢٢٩ ـ ٣٠٠ هـ) وبويع له بالخلافة بعد وفاة جَدَّه سنة ٣٠٠ هـ ، فكان أوَّلَ مُبايِعيهِ أعمامُه لحبِّ جدِّه له ، صبيحة هلال ربيع الأول من السنة ذاتها[١] .

وقال ابن عبد ربِّه : «ثمَّ ولي المُلْكَ القمرُ الأزهرُ ، الأسَدُ الغضنفر ، الميمونُ النقيبة ، المحمودُ الضريبة ، سيِّدُ الخلفاء ، وأنجبُ النُّجباء ، عبدُ الرحمن بن محمّد أمير المؤمنين . . فتولّى المُلْكَ ، والأرض جمرةٌ تحتدم ، ونار تضطرم ، وشقاق ونفاق ، فأخمد نيرانها ، وسكَّن زلازلها ، وافتتحها عَوْداً ، كما

(١) انظر الأعلام الخير الدين الزركلي ٣/٣٢٤ .

افتتحها بدءاً سَمِيُّه عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، رحمه الله»[1] .

وقال خير الدين الزركليّ : «وصَفَا له المُلْكُ ، وظهر له ضعفُ المقتدر الخليفة العبّاسيّ في العراق (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ) فجمع الناس وخطب فيهم ، ذاكراً حقَّ بني أميَّة بالخلافة ، وأنَّهم أسبق إليها من بني العبّاس ، فبايعوه بها سنة ٣١٦ هـ ، وتلقَّب بالناصر لدين الله ، فجري ذلك فيمن بعده ، وكان أسلافهُ يُسمَّوْن بني الخلائف ، ويخطب لهم بالإمارة فقط» ثم قال : وقال ابن شقدة : «عبد الرحمن الناصر أعظم أُمراء بني أميَّة في الأندلس ، كان كبيرَ القدر ، كثير المحاسن ، محبّاً للعمران ، مولعاً بالفتح وتخليد الآثار ، أنشأ مدينة الزهراو، وبنى بها قصر الزهراء المتناهي في الجلالة»[2] .

وقال ابن الأبَّار في وصفه : «أعظمُ بني أمية في المغرب سلطاناً ، وأفخمُهم في القديم والحديث شأناً ، وأطولُهم في الخلافة بل أطول ملوك الإسلام قبله مدةً وزماناً» حكم خمسين سنة وستة أشهر ، وكان حريصاً على المُلْك ، يقظاً ، صارماً ، اتَّصل به أن ابناً له اسمه «عبدالله» سَمَتْ نفسه إلى طلب الخلافة ، وتابعَه قومٌ ، فقبض عليهم جميعاً وسجنهم إلى أن كان يوم عيد الأضحى سنة ٣٣٩ هـ فأحضرهم بين يديه ، وأمر ابنه أن يضطجع له ، فاضطجع ، فذبحه بيده ، والتفت إلى خواصه فقال : هذا ضحيّتي في هذا العيد ، وليذبح كل منكم أُضحيتَه . فاقتسموا أصحابَ عبدالله ، فذبحوهم عن آخرهم . وكان يكتب في دفترٍ أيّامَ السرور التي كانت تصفو له من غير تكدير ، فلم تتجاوز أربعة عشر يوماً»[3] .

---

(١) العقد الفريد ٤/٤٩٨ .

(٢) الأعلام للزركلي والمنتخب لابن شقدة .

(٣) المرجع السابق وخير الدين الزركلي ٣/٣٢٤ .

وقد استطاع الناصر مدّة حكمه أن يُوطِىءَ عساكرَه من بلادِ الإفرنج ما لم يطؤوه قبل في أيّام أسلافه ، ولم يكن مثلُ هذه الغزاة لملك من الملوك في الجاهليّة والإسلام ، وله غَزاةُ مارش[1] التي كانت أخت بدرٍ وحنين[2]. وقال ابن عبد ربِّه : ومن مناقبه : أنَّ الملوك لم تزل تبني على أقدارها ، ويُقضى عليها بآثارها ، وأنّه بنى في المدة القليلة ما لم تبن الخلفاء في المدّة الطويلة . نعم ، لم يبق في القصر الذي فيه مصانع أجداده، ومعالم أَوَّلِيَّتِهِ بنْيةٌ إلاّ وله فيها أثرٌ مُحدث، إمّا تزْييد أو تجديد . . ومن مناقبه التي لا أخت لها ولا نظير ، ما أعجز فيه مَنْ بعده ، وفات فيه مَنْ قبله ، الجودُ الذي لم يعرف لأحدٍ من أجواد الجاهليّة والإسلام إلاّ له[3] .

ولابن عبد ربِّه فيه قصائد طوال ، وله فيه أرجوزة جمع فيها مغازيه كلّها ، وما فتح الله عليه فيها في كلّ غزاة ، ومطلعها :

سُبْحَانَ مَنْ لَمْ تَحْوِهِ أَقْطَارُ ... وَلَمْ تَكُنْ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ[4]

شعره :

يزعم المقّري أنَّه كان للناصر شعرٌ فيقول : هكذا ألفيت البيتين منسوبين إليه بخطّ بعض الأكابر . وهما :

لا يَضُرُّ الصغير حدثانُ سِنٍ ... إنَّما الشأنُ في سُعودِ الصَّغيرِ

كَمْ مُقيم فازَتْ يَدُهُ بِغُنْمٍ ... لم تنلْهُ بالركْضِ كفُّ مُغيرِ

ثم كتب بأثرهما ما نصُّه : الصحيح أنّها لغيره ، والله أعلم[5].

---

(1) مارشن من أعمال جيان انظر البيان المغرب ٢/١٦٦ .

(2) انظر العقد الفريد ٤/٥٠٠ لابن عبد ربه .

(3) انظر العقد الفريد ٤/٥٠٠ .

(4) المرجع السابق ٤/٥٠٠ - ٥٢٧ .

(5) انظر الحلة السيراء ١/١٢٣ - ١٢٤ .

وأورد صاحبُ الحلَّة السيراء ، أنَّ الناصر كان على عُلوِّ جانبه ، واستيلاء هيبته يرتاحُ للشعر ، وينبسطُ إلى أهله ، ويراجع من خاطبه به من خاصته .

وذكر له شعراً نقله عن كِتاب الحدائق ، قال : قال أبو عمر بن محمّد بن فرج صاحب كتاب الحدائق ، حدّثني أبو بكر اسماعيل بن بدر أنّه خاطب أمير المؤمنين الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمّد ، رحمه الله ، في غزاة كان آلي ألاّ يأنس فيها بمنادمة أحد حتى يفتح معقلاً ، فافتتح معقلاً بعد آخر ، وتمادى على عزمه في العزوف عن المنادمة ، فذكر أنَّه كتب إليه :

لَقَدْ حَلَّتْ حُمَيَّا الرَّاحِ عِنْدي وَطَـابَتْ بَعْـدَ فَتْحِـكَ مَعْقِلَيْنْ
وَآذَنَ كُـلُّ هَـمّ بِـانْـفِـرَاجٍ وَأَنْ يَـقْضِي غَـرِيمٌ كُـلَّ دَيْـنِ

قال : فلم يحرِّكه ما خاطبْته به ، فعاودْتُهُ بالمخاطبة ، فقلت :

يَـامَـلِكـاً رَأْيُـهُ ضِـيَـاءٌ فِي كُـلِّ خَـطْبٍ أَلَمَّ دَاجِ
مَـنْ لِي بِـيَـومٍ بِـهِ فَـرَاغٌ لَـيْسَ أَخُـو حَـرْبِـهِ بِـنَـاجِ
بِـكُـلِّ بَيْـضَـاءَ مَـنْ رآهَـا يَحْـسَـبُـهَـا شُـعْـلَةَ السِّراجِ
لاَ تَـنْسَ مَـوْلاَكَ في وَغَـاةٍ وَاذْكُـرْهُ في حَـوْمَـةِ الهِـيَـاجِ

فاستجاب له ، وذكر أنَّهُ جاوبَه شعراً ، بقوله :

كَـيْـفَ وَأَنَّى لِمَـنْ يُـنَـاجِـي ؟ مِنْ لَـوْعَـةِ الهَمِّ مَـا أُنَـاجِي !
يَـطْمَـعُ أَنْ يَسْـتَرِيـحَ وَقْتـاً أَوْ يَـقْـتُـلَ الـرَّاحَ بِـالمِـزَاجِ
لَوْ حُمِّلَ الصَّخْرُ بَعْضَ شَجْوى عَـادَ إِلى رِقَّـةِ الـزُّجَـاجِ
كُنْتُ لِمَـا قَـدْ عَلِمْتَ الهَـوْلَ إِذَا أَنَـا مِمَّـا شَـكَـوْتُ نَـاجِ
فَـصِـرْتُ لِـلْبَـيْنِ في عِـلاَجٍ طَـمَّ وَ أَرْبَى عَـلَى الـعِـلاَجِ
الـوَرْدُ مِمَّـا يَهِـيـجُ حُـزْني وَيَبْعَـثُ السَّـوْسَـنُ اهْتِـيَـاجي
أَرَى لَـيَـالِيَّ بَـعْـدَ حُـسْـنٍ أَقْـبَـحَ مِـنْ أَوْجُـهٍ سِـمَـاجِ

لَا تَـرْجُ مِمَّـا أَرَدْتَ شَـيْئـاً أَوْ يُـؤْذِنَ الهَمُّ بِـانْـفِـراجِ[1]

ويذكر المقرّي في نهاية ترجمته لحياة عبد الرحمن الناصر ، أنّه مما ينسب إليه من الشعر . قوله لابنه وولي عهده الحكم :

مَـا كُـلُّ شَيْءٍ فَـقَـدْتُ إِلاَّ عَـوَّضَـنِي اللهُ مِـنْـهُ شَـيَّـا
إِنِّي إِذَا مَـنَـعْـتُ خَـيْرِي تَـبَـاعَـدَ الخَيْرُ مِـنْ يَـدَيَّـا
مَـنْ كَـانَ لِي نِعْمَـةٌ عَلَيْـهِ فَـإِنَّهَا نِـعْـمَـةٌ عَـلَيَّـا[2]

وكان للناصر الكثير من البنين والبنات ، منهم خمسة هم : الحكم ، وعبد الجبّار ، وسليمان ، وعبد الملك ، وعبيدالله ، وآخر اسمه عبدالله ، يقال : إنّه قتله لأنه كان يزاحم أخاه الحكم في ولاية العهد ، كما مرّ معنا . وكان هذا الابن شاعراً ، وكان من نجباء أولاده ، وله تآليف تدلُّ فيها يقول ابن الأبّار على علمه وفهمه : وكان يتبارى هو وأخوه الحكم في طلب العلم ، ومن شعره مقطوعة مطلعها :

أَمَّـا فُـؤادي ، فَكَـاتِـمٌ أَلَمَـهْ لَوْ لَمْ يَبُحْ نَـاظِرِي بِمَـا كَتَمَهْ[3]

وكان للناصر ابن آخر هو عبد العزيز ، وكان شاعراً أيضاً ، ويقال إنّ أوّل شعر نظمه بعث به إلى أخيه الحكم ، «كتبه على لوح عند دخوله الكتّاب»[4] .

وكان من أولاد أبنائه شعراء وخلفاء . فحفيده ابن عبد الملك كان شاعراً ، فمن شعره في الفخر كما ذكر ذلك صاحب نفح الطيب ٣/١٨٨ قوله :

أَلَسْنَا بَنِي مَرْوَانَ ، كَيْفَ تَبَدَّلَتْ بِنَا الحَالُ ، أَوْ دَارَتْ عَلَيْنَا الدَّوَائِرُ

---

(١) انظر الحلة السيراء ١/١٩٩ - ٢٠٠ .
(٢) انظر نفح الطيب ١/٣٨٠ .
(٣) انظر الحلة السيراء ١/٢٠٦ وللتفصيل انظر تاريخ العرب لحتي ٦١٥ .
(٤) الحلة السيراء ١/٢٠٨ .

إذَا وُلِـدَ المَـوْلُـودُ مِنَّـا تَهَلَّلَتْ   لَهُ الأَرْضُ ، وَاهْتَزَّتْ إِلَيْهِ المَنَابِرُ[1]

وله حفيد آخر اسمه عبد العزيز بن المنذر ، ويعرف بابن الفرنسية ، وكان شاعراً ، له شعر مأثور[2] . كما أنَّ له حفداء ، وأنسباء كثيرين كانوا شعراء : منهم من لم يصلوا إلى الملك ، أو لم يكونوا مقرَّبين لذوي السلطان ، وقد ذُكر عن واحد منهم هو بالفعل شاعر كبير ، يستدلّ على ذلك من شعره الذي ذكره ابن الأبّار ، وهو مروان أبو عبد الملك ابن أحد حفداء عبد الرحمن الناصر . وقيل فيه إنّه كان في بني أميّة كابن المعتزّ في بني العبّاس ، ملاحةَ شعرٍ ، وحسنَ تشبيه[3] وعلى سبيل المثال نذكر له بيتين يصف بهما طول الليل :

فَمَا بَالُ صُبْحِي قَدْ تَقَارَب خَطْوُهُ   فَأَبْطَأَ حَتَّى لَيْسَ يُـرْجَى قُدومُـهُ
كَأَنَّ نُجُومَ اللَّيْلِ قَيَّدَها الدُّجَى   وَأَوْقَفَهَا في مَوْضِعٍ لاَ تَرِ يمُـهُ[4]

---

(١) الحلة السيراء ١/٢٠٩ .
(٢) المرجع السابق ١/٢١٠ .
(٣) انظر الحلة السيراء ١/٢٢١ .
(٤) المرجع السابق ١/٢٢٥ .

٩ - الحكم الثاني بن عبد الرحمن الناصر «المستنصر»
٣٠٢ - ٣٦٦ هـ/ ٩١٤ - ٩٧٦ م

هو الحكم بن عبد الرحمن الناصر ، لقّب بالمستنصر تمييزاً له عن الحكم الأوّل . ولي الحكم بعد أبيه سنة ٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م ودام حكمه ستّة عشر عاماً ، وأمور الدولة متّسقة وأمنُها مستتبّ .

ولد بقرطبة سنة ٣٠٢ هـ/ ٩١٤م ، وتوفي فيها مفلوجاً بعد حكم دام خمسة عشر عاماً[1] وذلك عام ٣٦٦ هـ .

ويروي ابن الأثير : أنّ «أردون بن ألفونس» ملك الإسبان طمع به فتهيّأ للإغارة على قرطبة عاصمة ملكه ، فسبقه المستنصر وغزا الإسبان بنفسه ، فعاقدوه على السلم ، واشترط على «كُنْت برشلونا» وسائر أمراء «الكتلان» دكّ حصونهم القريبة من ثغوره ، وعاهدوه على أن لا يمالئوا عليه أحداً من ملوك المسيحيّين الذين يدخلون معه في حرب . فقوي وكثرت فتوحاته . وزاره «أردون» في قرطبة مستجيراً به . وجاءته بيعة «شانجة بن ردمير» وطاعته مع «قوامس» أهل جليقية وسمورة وأساقفتهم[2] .

---

(١) الأعلام للزركلي ٢/٢٦٧ .
(٢) تاريخ ابن خلدون ٤/١٤٤ .

وأوطأ عساكره أرض العدوة من المغرب الأقصى والأوسط ، وخَطَبَ بدعوته ملوك زناتة من مغراوة ومكناسة[1] .

وكان عالماً بالدّين ، ملمّاً بالأدب والتاريخ ، ضليعاً في معرفة الأنساب ، يروى له شعر جمٌّ ، محبّاً للعلماء ، يستحضرهم من البلدان النائية ، فيستفيد منهم ويحسن إليهم ، جمّاعاً للكتب ، حتّى قيل : إن مكتبته بلغت أربع مئة ألف مجلّد[2] .

وفي أيّام أبيه قصده من «كتلونة» مطران جيرون المسمّى «غودمار» وألف له تاريخاً لبلاد فرنسة من زمن «قلوزيه» إلى ذلك العهد .

وقال ابن حزم : اتّصلت ولايته خمسة عشر عاماً في هدوٍّ وعلّو .

وقال ابن حيان : وباسمه طرّز أبو علي البغداديّ القالي كتاب الأمالي ، وعليه وفد ، فأحمد وفادته[3] .

ويروي ابن خلدون عن علمه الشيء الكثير وممّا يقوله : وبعث في كتاب الأغاني إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني ، وكان نسبه في بني أميّة ، وأرسل إليه فيه ألف دينار من الذهب العين ، فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرجه بالعراق . وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه لمختصر بن عبد الحكم ، وأمثال ذلك . وجمع بداره الحذّاق في صناعة النسخ ، والمهرة في الضبط ، والإجادة في التجليد . . . واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم

---

(١) نفح الطيب ١/ ١٨٠ .

(٢) جمهرة الأنساب ٩٢ .

(٣) انظر بالإضافة للمراجع السابقة غزوات العرب ١٩ و ١٨٢ ـ ١٩٢ . وأزهار الرياض ٢/ ٢٨٦ ـ ٢٩٤ . وجذوة المقتبس ١٣ . والمغرب ١/ ١٨١ .

تكن لأحد قبله ولا من بعده[1] .

ثم أصابت الحَكَمَ العلّةُ فلزم الفراش إلى أن هلك سنة ٣٦٦ هـ لستّ عشرة سنة من خلافته . وولي من بعده ابنه هشام ، وكان صغيراً مناهزاً الحلم ، وكان الحكم قد استوزر له محمّد بن أبي عامر ، وفوَّض إليه في أموره ، فلّما توفّي الحكم بويع هشام ، ولقّب المؤيّد ، بعد أن قُتل ليلتئذ أخو الحكم المرشح لأمره ، تناول الفتكَ به محمّد بن أبي عامر هذا[2] .

شعره . .

كان الحكم شاعراً ، ذا بصر بالشعر وأحواله وأوزانه ، وينظمه في مناسبات شتّى . ومما ينسب إليه قوله :

إلى الله أشكُو مِنْ شَمَائِلِ مُتْرَفٍ عَلَيَّ ظَلُومٍ لاَ يَدينُ بِمَا دِنْتُ
نَأَتْ عَنْهُ دَاري فَاسْتَزَادَ صُدودُهُ وَإِنِّي عَلَى وَجْدي القَديمِ كَما كُنْتُ[3]
وَلَوْ كُنْتُ أَدْري أَنَّ شَوْقي بَالِغٌ مِنَ الوَجْدِ مَا بُلِّغْتُهُ لَمْ أَكُنْ بِنْتُ[4]

وروى له صاحب نفح الطيب في الصفحة ٣٩٥ من الجزء الأوّل ، من نظمه قوله :

عَجِبْتُ وَقَدْ وَدَّعْتُهَا ، كَيْفَ لَمْ أَمُتْ ! وَكَيْفَ انْثَنَتْ بَعْدَ الوَدَاعِ يَدي مَعي ؟
فَيَا مُقْلَتي العَبْرَىٰ عَلَيْهَا اسْكُبي دَمَاً وَيَا كَبِدي الحَرَّى عَلَيْهَا تَقَطَّعي

وملكٌ شاعرٌ هذان نموذجان من شعره ، لابدَّ أن يكون له شعر كثير جيّد

---

(١) تاريخ ابن خلدون ١٤٦/٤ .
(٢) انظر تاريخ ابن خلدون ١٤٦/٤ - ١٤٧ .
(٣) نأت : ابتعدتْ .
(٤) بنت : ابتعدْتُ . انظر نفح الطيب ٣٩٥/١ .

كهذا المستوى ، لكنّه ضاع فيما ضاع من مكتبته العامرة التي سطت عليها يد الزمان نهباً وبيعاً وسرقة ، حين اجتاحت قبائل البربر عاصمته قرطبة .

وكانت خلافة الحَكَمِ نهايةَ عهد القوّة في دولة الأمويّين بالأندلس . لأنَّ هشاماً كان حدثاً لمّا ولي الأمر بعد أبيه . فاستبدَّ بشؤون الدولة وزيره محمّد بن أبي عامر ، وعضدته «صبحُ» أمّ الخليفة الصغير ، لأنّها كانت تهواه[1] .

(١) انظر أدباء العرب لبطرس البستاني ٣/٢١ .

ب ـ عصر التقهقر والإنحلال الأمويّ
ويتضمّن سبعة خلفاء

١٠ ـ هشام الثاني بن الحكم الثاني عبد الرحمن الناصر «المؤيّد»
٣٤٦ ـ ٣٩٩ هـ/ ٩٥٦ ـ ١٠٠٩ م
والحاجب المنصور محمّد بن أبي عامر وصيّاً وحاكماً
٣٢٦ ـ ٣٩٢ هـ/ ٩٣٨ ـ ١٠٠٢ م

بعد وفاة الحكم الثاني ، خلفه ابنه هشام الثاني ، حيث بدأ الضعف والإنحلال يدبُّ إلى جسم الخلافة الأمويّة في الأندلس ، وكان ذلك سنة ٣٦٦ هـ ، إذْ كان هشام حدثاً لا يتجاوز العشرين من عمره ، فقد ولد في قرطبة سنة ٣٤٦ هـ .

استبدت أمه «صبح» البشكنسية الجميلة بشؤون الدولة ، وكان في رعايتها شاب وزر لزوجها اسمه محمد بن عبدالله الملقب بالمنصور بن أبي عامر ، ثم ابن المنصور هذا ، عبد الملك الملقب بالمظفر ، ثم ابنه الثاني عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر ـ واستمر الخليفة المؤيد ـ هشام الثاني بن الحكم الثاني ـ في القفص ، إلى أن طلب منه عبد الرحمن هذا الابن الثاني للمنصور ، أن يوليه عهده ، فأجابه ، وكتب له عهداً بالخلافة من بعده .

فثارت ثائرة أهل الدولة لذلك ، فقتلوا صاحب الشرطة وهو في باب قصر الخلافة بقرطبة سنة ٣٩٩ هـ ، ونادوا بخلع المؤيد وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر لدين الله ، ولقبوه «المهدي بالله» وقتلوا عبد الرحمن الوزير هذا .

ثم كانت فتن انتهت بعودة المؤيد إلى ملكه في أواخر سنة ٤٠٠ هـ والثورات قائمة ، فقَتَلَ المهديَ ، واستمر في الحكم سنتين وشهوراً لم يهدأ له فيها بال ، حتى قُتِل سراً في قرطبة ، بعد أن امتلكها سليمان بن الحكم الملقب «بالمستعين بالله»[1] .

فحجر هذا بدوره على هشام ، ومحا رسم الخلافة ، وكتب اسمه في السكة ، والطراز[2] ، وتلقَّب بالحاجب المنصور ، ودعي له على المنابر ، ولم يترك للخليفة غير الدعاء ليلة الجمعة[3] .

وكان الحاجب المنصور شديد البطش ، كثير الغزوات ، موفقها . أغار على الفرنجة عدة مرات وأثخن فيهم ، وهدم مدنهم كلاون وبرشلونة . ولقد مارس المنصور وولداه من بعده دكتاتورية حقيقيّة في الأندلس ، ما يقرب من حوالي نصف قرن . فصرفوا أمور الدولة كلّها كأنّهم الخلفاء الحقيقيّون ، ودون إقامة كبير وزن للسلالة الأمويّة . واستطاع المنصور أن يصل بالأندلس إلى أوج قوّتها وعظمتها ، كما استطاع ابنه عبد الملك من بعده أن يحافظ إلى حدّ ما ، على التراث الذي تركه له أبوه من بعده ، حتى إذا تولّى الولد الثاني للمنصور ـ عبد الرحمن الملقب بشنجول ـ بدأت بوادر الفتنة الكبرى تظهر في الأفق ، ومالبثت أن استفحلت ، فكانت نتيجتها المباشرة أن أطاحت بحكم السلالة الأمويّة في

(١) انظر معجم الأعلام لخير الدين الزركلي ٨/٨٥ .
(٢) الطراز : ثوب كان ينسج للسلطان ، انظر أدباء العرب ٣/٢١ لبطرس البستاني .
(٣) الحاجب : رتبة الوزير الأول في الأندلس والمغرب آنذاك .

الأندلس ، كما أطاحت بحكم السلالة العامريّة[3] .

ويعود نسب الحاجب المنصور إلى جدّه الأكبر عبد الملك من ذريَّة الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافي القحطاني ، فهو أمويّ داهية ، استطاع بحكمته ودهائه أن يبقي المهابة والجلالة على الحكم الأمويّ ، وأن يستعيد ما فقد من بقاع ، ويروى أنّه لم تهزم له راية ، وأنّ الأندلس لم تعرف عهداً تألّق فيه نجم الإسلام كعهده ، إذا استثنينا عهد عبد الرحمن الناصر . وكان يتمنّى ألّا يموت إلّا في الحروب ، وبالفعل مات عند منصرفه من غزوته الخمسين سنة ٣٩٣ هـ/ ١٠٠٢ م فنقش على قبره هذان البيتان :

آثَارُهُ تُنْبِيكَ عَنْ أَخْبَارِهِ حَتَّى كَأَنَّكَ بِالعُيُونِ تَراهُ
تَاللهِ لَا يَأْتِي الزَّمَانُ بِمِثْلِهِ أَبَداً ، وَلَا يَحْمِي الثُّغورَ سِوَاهُ[1]

وكان الحاجب المنصور محبّاً للفلسفة ، فرمي بالزندقة . فأراد تبرئة نفسه ، فأمر بكتب المنطق والنجوم ، فأخرجت من خزائن الحكم الثاني ـ الذي كان ولوعاً بالقراءه ـ فأحرقت ، وقرَّب في الوقت نفسه العلماءَ والشعراءَ ، وأحسنَ صلاتهم ، فنطقوا بحمده وأشادوا بذكره .

وكان الحاجب المنصور طموحاً ، لا يقف طموحه عند حدود ، ويمنّي نفسه بملك مصر والحجاز والشام ، وقد أشار إلى ذلك ، فيما أثر عنه من شعر ، حيث قال :

مَنَعَ العَيْنَ أَنْ تَذُوقَ المَنَامَا حُبُّها أَنْ تَرَى الصَّفَا وَالمَقَامَا
لِي دُيُونٌ بِالشَّرْقِ عِنْدَ أُنَاسٍ قَدْ أَحَلُّوا بِالمَشْعَرَيْنِ الحَرَامَا

(١) انظر تاريخ العرب في إسبانيا صفحة ٧ للدكتور خالد الصوفي ، وشنجول لقب لعبد الرحمن لأنه كان حفيداً للملك بامبلونا «سانشو جارسيس الثاني أباركا» من جهة أمه .
(٢) انظر الحلة السيراء لابن الأبار ٢١٣/١ ونفح الطيب ٣٩٨/١ .

إنْ قَضَوْهَا نَالُوا الأَماني وإلاَّ جَعَلُوا دُونَها رِقَاباً وَهَامَا
عَنْ قَرِيبٍ تَرَى خُيولَ هِشَامٍ يَبْلُغُ النِّيلَ خَطْوُهَا وَالشَّآما[1]

لقد تطلّع إلى مقاليد الأمور بروح متوثّبة ، كيف لا ؛ وهو رجل من عباقرة التاريخ أهَّلَه للسلطان طموحُه وحَزمُه ، وشجاعتُه وخلقُه ودينه ، فساس الدولة بحنكة وخبرة ، فأحكمَ تدبيرَها ، ومكَّنَ هيبتَها ، وأخاف أعداءها ، وبلغت مغازيه صوب الشمال أبعد ما بلغت في عصر الدولة الأمويّة . غزا أكثر من خمسين غزوة لم يهزم في واحدة منها ، حتى مات غازياً في الشمال ، ونقل إلى مدينة سالم ، فدفن بها سنة ٣٩٢ هـ ١٠٠٢ م[2] .

وقد ذكرت كتب الأدب كثيراً من الشعر الذي ينسب للحاجب المنصور ، وليس ذلك عنه بغريب ، فجدّه الأكبر الوليد بن يزيد بن عبد الملك ١٢٥ - ١٢٦ هـ كان من فحول الملوك والشعراء في الشام ، وكثيراً ما فخر بنفسه ، وهمّته العالية ، كما كان يفتخر بأورمته الأمويّة المغرقة بالأمجاد ، ويعتزُّ كثيراً بنفسه وشجاعته وطموحه الذي لا يقف عند حدٍّ ، وبكرمه وجوده الذي يبذله لكلِّ المعتفين والطالبين ، فساد بشيمه هذه كُلَّ السادة ، وعلا فوق كلِّ العظماء ، وفاخر كلَّ المفتخرين ، حتى أنّه لم يعد يجد من يفاخره ، أو ينازعه السيادة . ثم يشير في بعض أبيات القصيدة إلى أجداده الذين رفعوا أسس المعالي والأمجاد بأطراف الأسنَّة والعوالي ، وتوارثوها كابراً عن كابر ، فمازال يضيفُ إلى بنيان المجد شرفاً ورفعةً ، وينظمُ الصفوفَ ويرتب الجيوش إلى الوغى ، فيقول :

رَمَيْتُ بِنَفسي هَوْلَ كُلِّ عَظيمةٍ وَخَاطَرْتُ ، وَالحرُّ الكَرِيمُ يُخَاطِرُ[3]

---

(١) انظر نفح الطيب ١/٤٠٦ - ٤٠٧ والحلة السيراء ١/٢٧٥ .
(٢) انظر المعتمد بن عباد صفحة ٦ لعبد الوهاب عزام .
(٣) انظر نفح الطيب ١/٤٠٠ والحلة السيراء ١/٢٧٤ - ٢٧٥ مع إختلاف في ترتيب الأبيات .

وَمَا صَاحِبي إلاَّ جَنَانٌ مُشَيَّعٌ   وَأَسْمَــرُ خَـطِّيٌّ وَأَبْيَضُ بَــاتِــرُ
وَمِنْ شِيَمي أنِّي عَلَى كُلِّ طَالِبٍ   أجُــودُ بِمَــالٍ لاَ تَقيــهِ المَعَـاذِرُ
فَسُدْتُ بِنَفْسي أهْلَ كُـلِّ سِيَادَةٍ   وَفَاخَرْتُ حَتَّى لَمْ أجِدْ مَنْ أُفَاخِرُ
وَمَاشِـدْتُ بُنْيَـاناً وَلكِنْ زِيَــادَةً   عَلَى مَا بَنَى عَبْـدُ المَلِيكِ وَعَـامِرُ
رَفَعْنَـا المَعَالي بِـالعَـوَالي حَـديثَـةً   وَأَوْرَثَنَـاهَـا في القَـديِم مُعَـافِـرُ
وَإِنِّي لَزَجَّاءُ الجُيُوشِ إلى الوَغَى   أُسُـودٌ تُـلاَقيهَـا أُسُـودٌ خَـوَادِرُ[1]

وله شعر في الفخر كثير، منه قوله:

أَلَمْ تَـرَني بِعْتُ الإقَامَةَ بِالسُّرى   وَلينَ الحَشَايَا بِالخُيُـولِ الضَّوَامِـرِ
تَبَـدَّلْتُ بَعْـدَ الـزَّعْفَـرانِ وَطيبِـهِ   صَدا الدِّرْعِ مِنْ مُسْتَحْكَمَاتِ المَسَامِرِ
أَرُوني فَتىً يَحْمي حِمَايَ وَمَوْقفي   إذَا اشْتَجَرَ الأقْرَانُ بَيْنَ العَسَاكِرِ
أنَا الحَاجِبُ المَنْصُور مِنْ آلِ عَامِرٍ   بِسَيْفي أَقُدُّ الهَامَ تَحْتَ المَغَافِرِ
تِــلاَدُ أمــيرِ المُؤمنــينَ وَعَبْــدُهُ   وَنَـاصِحُهُ المَشْهُـودُ يَوْمَ المَفَـاخِـرِ
فَلاَ تَحْسبُوا أنِّي شُغِلْتُ بِغَيْـرِكُمْ   وَلَكِنْ عَهِدْتُ اللّهَ في قَتْلِ كَافِرِ[2]

وبعد أن مات الحاجب المنصور، تولّى الأمر بعده ابنه عبد الملك، وتلقَّبَ بالملك المظفَّر، وذلك سنة ٣٩٢ هـ، فحكم سبع سنوات أي حتى عام ٣٩٩ هـ. وخلفه أخوه عبد الرحمن وتلقَّب بالناصر لدين الله. وجرى على سنن أبيه الحاجب المنصور، وأخيه عبد الملك في الحجر على الخليفة هشام بن الحكم، والاستقلال بالملك دونه[3].

ثم طمعت نفسه بالخلافة، فطلب من الخليفة هشام بن الحكم أن يوليه

---

(١) هناك اختلاف في ترتيب الأبيات في الحلة السيراء ١/٢٧٤ ـ ٢٧٥ ونفح الطيب ١/٤٠٠.
(٢) انظر الحلة السيراء ١/٢٧٥ ـ ٢٧٦.
(٣) انظر أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث لبطرس البستاني ٣/٢١ ـ ٢٢.

عهده ، ففعل، فنقم الأمويّون والقرشيّون عليه وخلعوا هشاماً وحبسوه سنة ٣٩٩ هـ[1] ، وبايعوا محمّد بن هشام بن عبد الجبّار ابن عبد الرحمن الناصر (الثالث) وتلقّب بالمهدي[2] .

وفي ذي الحجّة سنة ٤٠٠ هـ ٢٣ تموز سنة ١٠١٠ م عادت الخلافة إلى هشام الثاني بعد انقطاع حوالي سنة ونصف من خلعه على يد محمّد بن هشام «المهديّ» . وبعد مبايعته عينٌ لحجابته الفتى الصقلبي «واضح» وكتب إلى البربر يدعوهم للدخول في طاعته . ولكنّ البربر ما كانوا ليقبلوا بغير سليمان بن الحكم خليفة ، يضاف إلى ذلكِ كرههم لأهل قرطبة لما ارتكبوه في حقهم من القبائح .

وأخذ البربر يقتربون من العاصمة يوماً بعد يوم ، حتى احتلوا مدينة الزهراء في ربيع الأوّل سنة ٤٠١ هـ ١٠١٠ م ، وراحوا يشددون الحصار على قرطبة ، ويعيثون في أنحاء الأندلس ، والجند في قرطبة عاجزون عن الخروج إلى ماوراء الأسوار . ثم جاءت رسل كونت قشتالة «سانشو جارسيا» يطلبون تسليم الحصون التي كانوا قد وعدوا بها ، فتمّ لهم ذلك .

وقست شدّة الحصار على أهل قرطبة ، وعضّهم الجوع ، وانتهى الأمر بظفر البربر ودخلوا المدينة وأعادوا سليمان المستعين بالله ثانية في ١٦ شوال ٤٠٣ هـ ١١ أيّار ١٠١٣ م بعد مضي ما يقرب من ثلاث سنوات على فقدانه الخلافة في المرّة الأولى ٤٠٠ هـ/ ١٠١٠ م[3] .

---

(١) المرجع السابق ٢٢/٣ .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٥٩٣ .
(٣) تاريخ العرب في اسبانيا للدكتور خالد الصوفي ١٧ .

١١ ـ محمّد بن هشام «المهديّ»
٣٦٦ ـ ٤٠٠ هـ/٩٧٧ ـ ١٠١٠ م

هو الخليفة محمّد بن هشام بن عبد الجبّار بن عبد الرحمن الناصر الأموي ، ولُقِّب بالمهديّ . ولي الخلافة بعد أبيه «المؤيَّد» الذي كان قد تنازل عن ولاية العهد لعبدالرحمن بن الحاجب المنصور أبي عامر الذي لقَّب نفسه «بالناصر لدين الله» . فنقم عليه الأمويّون والقرشيّون هذا التنازل ، وخلعوه وسجنوه ، وبايعوا ابنه محمّد بن هشام هذا وذلك في ١٦ جمادى الثانية ٣٩٩ هـ ١٥ شباط ١٠٠٩ م ، وكان الناصر لدين الله غائباً في غزاةٍ ، فلمّا بلغه الخبر قفل عائداً إلى قرطبة ، فامتنع محمّد بن هشام بقرطبة وأغلق أبوابها . فاضطرب الناصر لدين الله ـ عبدالرحمن بن أبي عامر ـ وانفضَّ الناس من حوله ، ورغم أنَّ محمّد بن هشام أمَّنه على نفسِه وحرمِهِ وأموالِهِ لم يرضَ ، وفرَّ نحو أرميلاط على أمل المقاومة فيما بعد ، ولكنَّ محمّد بن هشام أرسل في أثره فرقة من الفرسان ، اهتدت إليه ، واحتزت رأسه وأتوا به إلى الخليفة محمّد بن هشام . وكانت مدّة تولي عبدالرحمن «الناصر لدين الله» للحجابة حوالي خمسة أشهر فقط .[1]

---

(١) انظر أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث لبطرس البستاني ٢١/٣ ـ ٢٢ وتاريخ العرب في اسبانيا للدكتور خالد الصوفي صفحة ٩ ـ ١٠ .

ولمّا استتبّ أمر قرطبة لمحمّد بن هشام ، أرسل إلى الخليفة هشام الثاني «فاتناً» الخصي يؤنّبه على حبّه لآل عامر ، وقبوله بتفويض ولاية العهد لهم ، ويدعوه إلى خلع نفسه إذْ ليس هو أهل للخلافة . وكان جواب هشام الثاني على ذلك الاعتذار إليه ، والإقرار بعجزه ، وبادر بالتخلّي عن الخلافة .

سُرَّ محمّد بن هشام بذلك سروراً عظيماً ، وأرسل فاستحضر الناس ، فشهدوا على خلع هشام لنفسه ، ومبايعته لمحمّد بن هشام ، فبايعه الجميع حالاً وذلك في الليلة نفسها التي قام فيها ١٦ جمادى الثانية ٣٩٩ هـ ١٥ شباط ١٠٠٩م [١].

وبعد أن تمَّ له الأمر سمح للعامّة بمهاجمة قصور العامريّين في مدينة الزهراء ، فهزموا الحامية التي كانت تدافع عن مدينة الحاجب المنصور بن أبي عامر ونهبوها . ثمَّ استولى الخليفة محمّد بن هشام على ما كان قد بقي من الأموال في الزاهرة ، ونقلها إلى مقرِّه في قصر الخلافة ، ثم أمر بإحراق المدينة . وهكذا كانت نهاية العامريّين نهاية محزنة [٢].

وقد ذكر المراكشي في البيان المغرب ٦٥/٣ قوله : «إنَّ من أكبر عِبَرِ الدنيا ما حصل في مدّة نصف شهر ، من فتح قرطبة ، وهدم مدينة الزهراء، وخلع خليفة قديم الولاية هو هشام الثاني بن الحكم ، وتنصيب خليفة جديد هو محمّد بن هشام بن عبد الجبّار ، وزوال دولة آل عامر ، وكرور دولة بني أميّة ، وانتصار جنود من العامّة على جند السلطان المدرَّبة المحنكة ، وكل ذلك على يدي بضعة عشر رجلاً من أراذل العامّة .» [٣]

---

(١) تاريخ العرب في اسبانيا صفحة ١٠ .
(٢) المرجع السابق صفحة ١٠ ـ ١١ .
(٣) البيان المغرب ٦٥/٣ .

لم يكن محمّد بن هشام موفَّقاً في سياسته ، فقد قرَّب إليه أراذل الناس ، فأساؤوا معاملة الشعب كافّة ، ولم يُخفِ بُغضَه للبربر فجاهرهم بالسوء ، ثم أخفى الخليفة هشام الثاني وأشاع بأنّه مات . ورغم أنّه كان قد ولّى سليمان بن هشام بن الناصر عهده من بعده ، إلاَّ أنه غيَّر رأيه بعد ذلك وقبض على سليمان وزجَّه في السجن .

هذه الأمور السياسيّة ، إضافة سوء أخلاقه إذ لم يكن يصحو من الشراب وانهماكه في الفسق والملذّات ، والتسري بالغلمان الصقالبة ، والجواري والإماء ، وبذل موارد بيت المال في هذا السبيل ، وغير ذلك من الأسباب ساعدت على تفاقم الفوضى ، وانتشار الفساد في أنحاء إسبانيا ، وعجّلت في قيام ثورة أطاحت بخلافة محمّد بن هشام هذا[1] .

قاد هذه الثورة شاب متحمِّس من أحفاد عبدالرحمن الناصر هو هشام بن سليمان بن عبدالرحمن الناصر ، ولقَّب نفسه بالرشيد ، ولكنَّ ثورته فشلت بعد أن حاصر قصر الخليفة ، وقُبض أخيراً عليه وقُتل مع ولده ونفر من أنصاره . ثم أمر أن ينادى بين الناس : «من أتى برأس بربريّ فله كذا» فسارع الناس الى الفتك بالبرابرة ونهبوا منازلهم وهتكوا أعراضهم وسبوا نساءهم . وهكذا فشَلَ هذا الشق من الثورة على محمد .[2]

أما الشقّ الثاني فيتمثَّل في اجتماع البرابرة الفارّين بعد ذلك حول سليمان بن الحكم الثاني بن عبدالرحمن الناصر ـ وهو ابن أخي الرشيد الثائر ـ وأخذوا يعملون للتخلُّص من محمّد بن هشام ، وتعاونوا مع كونت قشتالة «ابن مامه دونه»

---

(١) انظر تاريخ المسلمين في اسبانيا لدوزي ٢٩١/٢ والبيان المغرب للعذاري المراكشي ٨٠/٣ .

(٢) تاريخ العرب في اسبانيا للدكتور خالد الصوفي ١٣/١٢ .

وحاصروا قرطبة حتى سقطت المدينة غنيمة سائغة في أيدي البربر والنصارى .[1]
وهرب محمّد بن هشام بعد حكم لم يدم سوى تسعة أشهر ، في ربيع أول ٤٠٠ هـ ٩ تشرين ثاني ١٠٠٩ م وحلَّ محلَّه سليمان بن الحكم في التاريخ نفسه .[2]

ولم يتميز عهده في الأشهر القليلة الستة عشر التي اعتلى فيها سدَّة الخلافة غير هدمه لمدينة الزهراء العامرية ، وقطعه رؤوس خصومه من زعماء الثغور الشمالية الذين أبو الاعتراف بخلافته ، وجعل هذه الرؤوس أحواضاً للأزهار نصبت على ضفتي النهر إزاء قصره . كما عرف أيضاً بصنعه للنبيذ في قصره ، فلقب بالنبّاذ .[3]

---

(١) المرجع السابق ١٣ .
(٢) المرجع نفسه ١٤ .
(٣) تاريخ العرب لفيليب حتى وجرجي جبور .

١٢ ـ سليمان بن الحكم الثاني بن الناصر «المستعين بالله»
٣٥٤ ـ ٤٠٧ هـ/٩٦٥ ـ ١٠١٦ م

هو سليمان بن الحكم ، بن عبدالرحمن بن محمّد الملقب بالناصر . آخر خلفاء بني أميّة في الأندلس في عهدهم الثاني ، قبل دولة الحموديّين ، والذي لُقِّب بالمستعين بالله . [1]

استعان بالبربر في الحكم ، بعد أن خلعوا محمّد بن هشام وبايعوا له بالحُكْمِ [1] بعد مقتل عمه هشام الثاني بن الحكم سنة ٣٩٩ هـ ، وتلقب بالمستعين بالله ، ثم دخل قرطبة سنة ٤٠٠ هـ وتلقب فيها بالظافر بحول الله ، مضافاً الى المستعين بالله .

وظهر المؤيد (هشام الثاني بن الحكم الثاني) في أواخر السنة ، فخرج المستعين بالله إلى شاطبة ، فجمع جيشاً من البربر وهاجم قرطبة . فحصنها المؤيد .

ولم يزل المستعين يقوى إلى أن امتلك الزهراء وسرقسطة وقرطبة، بعد حروب شديدة بينه وبين المؤيد ، فجددت له البيعة بقرطبة سنة ٤٠٣ هـ . وكان في جملة

(١) أدباء العرب في الأندلس لبطرس البستاني ٢٢/٣ .

جنوده القاسم وعليّ ابنا حمود . فولى القاسم الجزيرة الخضراء ، وولى علياً طنجة وسبتة ، فلم يلبث علي أن استقل وزحف إلى مالقه فتملكها ، ثم إلى قرطبة فدخلها وقتل المستعين بالله وأباه وأخاه بيده .

وبمقتله انقطع ذكر بني أمية على منابر الأندلس مدة سبع سنين[1] .

وظلَّ علي بن حمود «الناصر لدين الله» حاكماً لقرطبة حتى قتله ثلاثة ، من صقالبته في حمام قصره ، نظراً لتقربه من البربر ، ومعاداته لأهل قرطبة الذين أيدوا قيام أحد أبناء الأسرة الأموية في شرق الأندلس ، وهو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر الأموي الذي لقب بالمرتضى .

فافترق في عهده شمل الجماعة بالأندلس . وقال المقريّ : وكان من أعظم الأسباب في فساد دولة المستعين أنَّه قال هذه الأبيات ، مستريحاً بها إلى خواصه :

حَلَفْتُ بِمَنْ صَلّىٰ وَصَامَ وَكَبَّرا لأُغْمِدُها فيمَنْ طَغَى وتَجَبَّرا
وَأَنْصرَ دينَ اللَّهِ تَحْيا رُسومُهُ فَبَدَّلَ مَا قَدْ لاَحَ مِنْهَا وَغَيَّرا
فَوَا عَجَبَاً مِنْ عَبْشَمِيٍّ مُمَلَّكٍ بِرَغْمِ المَعَالي وَالمَعَالي تَبَرْبَرا
فَلَوْ أَنَّ أَمْري بالخِيارِ نَبَذْتُهُمْ وَحَاكَمْتُهُمْ لِلسَّيْفِ حُكماً مُحَرَّرا
فَإمَّا حَيَاةٌ تُسْتَلَذُّ بِفَقْدِهِمْ وَإمَّا حِمَامٌ لاَ نَرىَ فيهِ مَا نَرى[2]

بينما يرى صاحب الذخيرة سبباً غير هذا ، وهو اعتماده على عليّ بن حمّود ، وهو خصمه السياسيّ .

وقال صاحب الذخيرة ، ابن بسَّام ، عنه : وكان سليمان ممن مدَّت له في الأدب غاية ، كفى دونها أهل الآداب ، ورفعت له في الشعر رواية ، مشى تحتها

(١) انظر معجم الأعلام للزركلي ١٢٣/٣ .
(٢) انظر نفح الطيب ٤٢٩/١ - ٤٣٠ .

كثير من الشعراء والكتّاب . غير أنّ أيّام الفتون ألوَت بذكره ، وأيدي تلك الحرب الزّبون طوَّت بجملة شعره . وهو أحدُ من شرَّفَ الشعرَ باسمه ، وتصرف على حكمه ، مع قعود أهلِ الأندلس يومئذ عن البحث عن مناقب عظمائهم ، وزهدهم في الإشارة بمراتب زعمائهم ، ولم أظفرْ له إلاَّ بقطعةٍ عارضَ بها هارون الرشيد ، فتشعشعت بها الكؤوس . وتهادتها الأنفاس والنفوس ، وقد أثبت القطعتين معاً ليُرى الفرق ويعرفَ الحق ؛ قال هارون الرشيد :

مَلَكَ الثَّلاثُ الآنِسَاتُ عِنَانِي ... وَحَلَلْنَ مِنْ قَلبي بِكُلِّ مَكَانِ
مَالِي تُطَاوِعُني البَرِيَّةُ كُلُّها ... وَأُطِيعُهُنَّ وَهُنَّ في عِصْيَانِي
مَا ذَاكَ إلاَّ أَنَّ سُلْطَانَ الهَوَى ... وَبِهِ قَوِينَ ، أَعَزُّ مِنْ سُلْطاني[1]

فقال سليمان المستعين ، يعارض هارون الرشيد في قوله : «ملك الثلاث الآنسات عناني» :

عَجَباً يَهابُ اللَّيْثُ حَدَّ سِنَانِي ... وَأَهابُ سِحْرَ فَوَاتِرِ الأَجْفَانِ !
وَأُقَارِعُ الأَهْوالَ لاَ مُتَهَيِّباً ... مِنْهَا سِوى الإِعْرَاضِ وَالهجْرانِ
وَتَمَلَّكَتْ نَفْسِي ثَلاَثٌ كَالدُّمىٰ ... زُهْرُ الوُجُوهِ ، نَوَاعِمُ الأَبْدانِ
كَكَواكِبِ الظَّلْمَاءِ لُحْنَ لِنَاظِرِي ... مِنْ فَوْقِ أَغْصَانٍ عَلَى كُثْبَانِ
هَذي الهِلالُ وَتِلْكَ بِنْتُ المُشْتَري ... حُسْناً وهَذي أُخْتُ غُصْنِ البَانِ
حَاكَمْتُ فيهُنَّ السُّلُوَّ إلىٰ الرِّضىٰ ... فَقَضَى بِسُلْطانٍ عَلَى سُلْطَانِي
فَأَبَحن مِنْ قَلْبِي الحِمَى وَتَرَكْنَني ... في عِزِّ مُلْكِي كالأَسِيرِ العَانِي
لاَ تَعْذِلُوا مَلِكَاً تَذَلَّلَ لِلْهَوَى ... ذُلُّ الهَوَىٰ عِزٌّ وَمُلْكٌ ثَانِي
مَا ضَرَّ أَنِّي عَبْدُهُنَّ صِبَابَةً ... وَبَنُو الزَّمانِ ، وَهُنَّ مِنْ عُبْداني

---

(۱) انظر نفح الطيب۱/ ٤٣٠ ـ ٤٣١ .

إنْ لَمْ أُطِعْ فِيهُنَّ سُلْطَانَ الهَوَى   كَلَفاً بِهِنَّ فَلَسْتُ مِنْ مَرْوَانِ[1]

ويذكر صاحب الحلّة السيراء الخليفة سليمان بن الحكم ، فيقول : إنّه كان من أهل العلم والفهم ، أديباً فصيحاً شاعراً ، له رسائل وأشعار بديعة .

وينقل لنا عن المؤرّخ الأندلسيّ ابن أبي الفيّاض ما ذكره عن الخليفة المستعين بالله سليمان بن الحكم : إنَّ له قصائد طويلة في فنون كثيرة ، مع المعاني العجيبة والألفاظ الغريبة ، إلاّ أنه تقلّد في قيامه بالملك عظيماً ، وحمل إلى عنقه من دماء المسلمين جسيماً .

ثم يذكر له قصيدة قالها قبل استخلافه ، بين يدي ابن عمه الخليفة المهدي ، محمّد بن هشام بن عبد الجبّار بن عبد الرحمن الناصر ، وينقلها عن شاهد عيان ، رآه ينشدها وبيده سيف ، وهو يهنّيه بالخلافة ، ويمتُّ إليه بالقرابة ، مطلعها :

الحمدُ لله حَمداً لاَ نُقَلِّلُهُ   هَذا السرورُ الَّذي كُنَّا نُؤمِّلُه

ويقول عنها : إنّها قصيدة كبيرة رائعة ، واختراعاته فيها فائقة ، مع المعاني الجزلة[2] .

وممّا وجدناه من طرفه ونوادره وتوقيعاته في الحلّة السيراء نستدلُّ بها على شاعريّة فيّاضة وقريحة صافية ، وبديهة لا يربكها القول . فقد كتب إليه بعض خدمه شعراً ، معتذراً فيه . فوقع له على ظهر كتابه شعراً قال فيه :

قَرَأْنَا مَا كَتَبْتَ بِهِ إلَيْنَا   وَعُذْرُكَ وَاضِحٌ فِيها لَدَيْنَا

---

(١) انظر الذخيرة لابن بسام ١/٣٢ ـ ٣٤ . والمعجب ١/٤٥ . ونفح الطيب ١/٤٣٠ ـ ٤٣١ .

(٢) انظر الحلة السيراء لابن الأبار ٢/١٠ ـ ١١ .

وَمَنْ يَكُنِ القَـرِيضُ لَهُ شَفيعاً   فَتَـرْكُ عِتَـابِـهِ فَـرْضٌ عَلَيْنَـا[1]

وكتب آخر يمتُّ إلى خدمته بصلة ، ويسأله تجديد العارفة لديه ، ونظم أبياتاً أولها :

قُـلْ لِـلإِمـامِ المُـسْتَـعِـينْ   وَرَسُـولِ رَبِّ الـعَـالَمِـينْ

فوقع له سليمان :

أَنْـتَ المُـصَـدَّقُ عَـنْـدَنَـا   بِصَرِيـحِ وُدٍّ مُـسْـتَـبِـينْ
فَـارْبـعْ عَـلَيْـكَ فَـهَـمُّـنَـا   تَـوْطَـيـدُ أَمْـرِ المُـسْـلمِـينْ
فَـإِذَا تَـوَطَّـدَ وَاسْـتَـقَـا   مَ ، وَخَـابَ ظَنُّ الحَـاسِـدينْ
أَصْـبَـحْـتَ مِـنْ دُنْـيَـاكَ فِي   أَعْـلَى مَحَـلِّ الآمِـلينْ[2]

وكتب إليه القاضي أبو القاسم بن مقدام ، يشكو ضيق حاله بشعر أوَّله :

وَهَلْ تَرْضَى لِعَبْدِكَ أَنْ يُذالا ؟   وَأَنْ يَبْقى عَلَى الدُّنْيا عِيالاً ؟

فبعث إليه بصلة وكسوة ، ووقَّع على ظهر كتابه بشعر ، قال فيه :

مَـعَـاذَ الله أَنْ تَبـقَـى عِيَـالاً   وَأَنْ نَـرْضَى لِمِثْلِكَ أَنْ يُـذَالا
وَكَـيْفَ وَأَنْـتَ مُنْقَـطِعٌ إِلَيْـنَـا   وقَـدْ عَلِقَتْ يَـداكَ بِنَـا حِبالاً
وَدُونَـكَ مِـنْ نَـوافِلِنَـا يَسِـيرٌ   وَلَكِـنَّـا انْـتَـقَـيْـنَـاهُ كَـلالاَ[3]

الفوضى السياسيّة في عهده . .

بدأ المستعين حكمه برحيل النصارى لقاء تسليمهم بعضَ الثغور ، وبتعيين الولاة ، والعمل على تهدئة الأمور . وكان محمّد بن هشام الخليفة الفارّ ، يواصل

(١) المرجع السابق ٢/١١ .
(٢) انظر المرجع السابق ٢/١١ .
(٣) انظر الحلة السيراء لابن الأبار ٢/١١ - ١٢ .

إتيان المنكر والفواحش ، فلمّا افتضح أمرُه سيَّره إلى طليطلة مع بعض جواريه . ولمّا أرسل الخليفةُ سليمانُ كتيبةً من جيشه للقبض على محمّد بن هشام «المهدي» عاد هؤلاء ليخبروه بتأييد أهل طليطلة والثغر الأدنى كلّه للمهديّ . ثم أخذ بعض كبار الشخصيّات في قرطبة يفرُّون إلى المهديّ في طليطلة ، ولما كَثُر أعوانه استنجد بكونت برشلونة «رامون بوريل الثالث» وأخيه «أرمنجول أورجل» وفرضا شروطهما القاسية ، وزحفوا معاً إلى قرطبة . فخرج سليمان المستعين بالله وحدث اللقاء في ظاهر قرطبة بتاريخ ٥ شوال ٤٠٠ هـ ٢٢ أيار ١٠١٠ م ، هرب الخليفة سليمان ظنّاً منه بإنهزام جيشه ، ورغم أنَّ البربر من جيشه صدُّوا الهجوم إلاّ أنّهم وجدوا أنفسهم بدون خليفة ، فانسحبوا ، وطورِدوا ، ودخل محمّد بن هشام المخلوع قرطبة ثانية بالتاريخ نفسه[1] .

ما إن استقرّ المقام لمحمد بن هشام المهدي ثانيةً بقرطبة حتى أخذ يعدّ العدَّة للقضاء على البربر ، فجهز جيشاً كبيراً انضمّ إليه جيش الفرنجة ، والتقوا بالبرابرة عند وادي آره فدارت على المهديّ وأصحابه الدوائر وانهزموا ليتحصنوا بقرطبة خوفاً من البرابرة ، فاضطهدوا من بها من البرابرة الآمنين ، واستخفَّ جند النصارى بالمسلمين ودينهم في الميادين والساحات ، على مرآى ومسمع من الجميع ، حتى غادر هؤلاء قرطبة لعدم رغبتهم في قتال البرابرة ثانية . فخاف المهديّ وأخذ بتحصين قرطبة بحفر خندق حولها وبناء سور جديد . ولكنّ ذلك لم يفده ، فقد كان مقتله داخل قرطبة . إذْ أن «واضحَ» الفتى الصقلبي كان يحقد على محمّد بن هشام لما أتاه تجاه العامريّين ، وَلِما هو عليه من الزنا والفجور ومعاقرة الخمرة والجور ، فاتفق مع أصحابه فدخلوا عليه القصر ، وأحضروه بين يدي

---

(١) انظر تاريخ العرب في إسبانيا جمهورية بني جهور للدكتور خالد الصو في صفحة ١٤ ـ ١٥ .

هشام الثاني المؤيد حيث قتلوه واحتزّوا رأسه ، وبايعوا بالخلافة هشاماً الثاني بن الحكم «المؤيد»[1] .

وبهذا الشكل انتهت خلافة المهدي الثانية ، التي لم تدم سوى تسعة وأربعين يوماً ، وعادت خلافة هشام الثاني بن الحكم المؤيد التي بدأت في المرة الأولى سنة ٣٦٦ هـ/ ٩٧٦ م ودامت حتى سنة ٣٩٩ هـ/ ١٠٠٩ ن حين خَلَفَهُ محمّد بن هشام المهديّ ، لتعود ثانية في ذي الحجّة سنة ٤٠٠ هـ ٢٣ تموز ١٠١٠ م أي بعد سنة ونصف من خلعه في المرة الأولى[2] . وظلَّ هشام الثاني المؤيَّد هذه المرة ما يقرب من ثلاث سنوات ، لتعود الخلافة إلى سليمان بن الحكسم ثانية في ١٦ شوال ٤٠٣هـ ١١ أيار ١٠١٣ .

وقد دامت خلافة سليمان بن الحكم «المستعين بالله» الثانية ثلاث سنين وثلاثة أشهر ونصف ، وكان من أهمِّ أحداثها تقسيم بلاد الأندلس على رؤساء البربر ، ومن جملتهم علي بن حمّود الذي حظي بحكم سبته ذلك الموقع الجغرافيّ الهامّ ، الأمر الذي آل إلى ثورته على الخليفة سليمان ، وانضمام بعض الأمراء إليه ، وزحفه إلى قرطبة ، وانتصاره على سليمان المستعين بالله وجيوشه ، وقتله له ولأخيه وأبيه . بحّجة أنَّ الخليفة السابق هشام الثاني كلَّفه بالإنتقام من أعدائه ، وولّاه ولاية العهد[3] .

وبويع علي بن حمّود الملقّب «بالناصر لدين الله في ٢٢ محرم ٤٠٧ هـ/ تموز ١٠١٦ م .

(١) نفح الطيب للمقري ٤٠٤/١ والبيان المغرب ١٠٠/٣ للمراكشي .
(٢) تاريخ العرب في إسبانيا ١٦ .
(٣) انظر القسم الأول من الذخيرة لابن بسام المجلد الأول صفحة ٢٦ ، والبيان المغرب لابن عذاري المراكشي ١٢٠/٣ وحاشية تاريخ العرب في إسبانيا أسفل الصفحة ١٧ .

١٣ ـ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر الأموي والملقب «بالمرتضى»
٣٦٨ ـ ٤٠٨ هـ/ ٩٧٨ ـ ١٠١٩ م

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر الأموي ، ولد بقرطبة سنة ٣٦٨ هـ ، وظلّ مقيماً فيها إلى أن قَتَلَ المؤيدُ سليمانَ بن الحكم الثاني ، واستولى عليُّ بن حمود على الملك ، فخرج عبد الرحمن مستخفياً ونزل بجيان[١] .

ولم تدم دولة بني حمود طويلاً في قرطبة ، فقد اختلفوا فيما بينهم ، وتنازعوا على السلطة . فثار عليهم أهل قرطبة ، وقطعوا عنهم الدعوة بعد سبع سنين من حكمهم لها ، واتفقوا على ردّ الأمر إلى بني أمية ، فاختاروا لذلك أميراً أموياً اسمه عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر الأموي ولقبوه «المرتضىٰ» وذلك سنة ٤٠٧ هـ[٢] .

ثم ساروا معه إلى صنهاجة ، ومنها إلى غرناطة ، فقاتلهم بها زاوي بن زيري الصنهاجي . فرأوا من عبد الرحمن هذا صرامة ، فندموا على تقديمه ،

---
(١) الأعلام للزركلي ٣/٣٢٦ .
(٢) المعجب ٤٩ ـ ٥٠ .

فانهزموا عنه . ولم يدم حكمه طويلاً ، إذْ مالبث أن عاد الأمر إلى بني حمود وكان ذلك سنة ٤٠٨ هـ/ ١٠١٨ م ، ودسوا له من قتله غيلة .

وقال ابن حزم عنه : كان رجلاً صالحاً متقشفاً مائلاً إلى الفقه ، لم يلبس في ولايته خزاً إلى أن قُتل[1] .

ثم انقلب أهل قرطبة مرة ثانية على بني حمود وطردوهم ، واختاروا عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، وبايعوه بالخلافة وذلك سنة ٤١٤ هـ ولقبوه «المستظهر بالله» ولم يكن حظه في الحكم أوفر من سابقه ولم يطل أكثر من سبعة وأربعين يوماً ، عندما ثار عليه محمد بن عبد الرحمن بن عبيدالله بن عبد الرحمن الناصر مع طائفة من الغوغاء ، وقتل في ٣ ذي القعدة سنة ٤١٤ هـ/ ١٧ كانون ثاني ١٠٢٤ م كما سنرى .

---

(١) ابن الأثير حوادث سنة ٤٠٧ هـ .

١٤ ـ عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر «المستظهر بالله»
٣٩٢ ـ ٤١٤ هـ/ ١٠٠٢ ـ ١٠٢٤ م

بعد سقوط خلافة القاسم بن حمّود في قرطبه وهربه ، عاد أهل قرطبة إلى التفكير في إسناد الخلافة لأحد الأمويّين أملاً في إصلاح الحال . وكان هناك ثلاثة مرشَّحين لذلك :

- سليمان بن عبد الرحمن المرتضى .
- ومحمّد العراقي .
- وعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبّار .

وكانت الأكثرية تميل إلى مبايعة سليمان بن عبد الرحمن المرتضى . إلاّ أنّه حدث ما لم يكن بالحسبان . فبينما الناس مجتمعون في الجامع الأكبر لمبايعة سليمان ، إذا بعبد الرحمن بن هشام يهجم على الجامع مع بعض أصحابه المسلَّحين، ويضطرُّ الناس لمبايعته رغماً عنهم . ولم يحاول أحد المقاومة ، حتى أنَّ سليمان المرتضى قبَّلَ يده وبايعه بالخلافة ، فتمَّ له ذلك في ١٦ رمضان سنة ٤١٤ هـ/ ٢ كانون أوّل ١٠٢٣ م .

واتّخذ الخليفة الجديد لقب «المستظهر بالله» وكان ذكياً ، وعلى جانب كبير من الثقافة ، إلاّ أنّ دولته لم تعمرّ طويلاً إذ قُتل بعد سبع وأربعين يوماً من توليه الخلافة . ومن أهم أسباب ذلك فراغ بيت المال ، ولجوؤه إلى وسائل غير مشروعة للحصول على الدراهم ، كما أنه تقرَّب من البربر ورفع مقامهم بين الناس ، فعمَّ استياء الناس منه وثاروا عليه وهاجموا قصره ، وقتلوا بعض البرابرة الذين وجدوهم فيه ، واعتدوا على حرمة ، وسبوا أكثر نسائه . واختبأ الخليفة في أتون الحمام ، وبقي فيه حتى عثروا عليه ، فأُحضر أمام محمّد بن عبد الرحمن زعيم الثورة ، وهو ابن عمِّه ، فأمر هذا بقتله ، فقتل في ٣ ذي القعدة ٤١٤ هـ/ ١٧ كانون الثاني ١٠٢٤ م[1] .

وهذا الخليفة الأمويّ عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبّار من أحفاد عبد الرحمن الناصر قد جاء إلى الحكم بعد الخليفة المرتضى عبد الرحمن الرابع بن محمّد بن عبد الملك بعد انقطاع حكم الأمويّين نحوا من سبع سنين . ولكنَّ حكمه لم يدم طويلاً فقتل بعد خمسن يوماً[2] .

وكان عبد الرحمن هذا أديباً شاعراً ، وقد نقل لنا صاحب الذخيرة : ذكره بهذه الصفة الخاصة الأديب أبو طالب من أهل جزيرة شقر في أرجوزته المذكورة ، حيث قال :

ثُمَّ انْقَضَى عَصْرُ بَني حَمّودِ وَالحَرْبُ وَالفِتْنَةُ في مَزيدِ
وَظَهَرَ المُسْتَظْهِرُ المَرْواني وَشِعْرُهُ مِنْ أَحْسَنِ المَعاني
وَقَتَلُوهُ بَعْدَ ذَاكَ صَبْرا مِنْ بَعْدِ مَا قَلَّدوهُ الأَمْرا[3]

(١) انظر تاريخ العرب في إسبانيا للدكتور خالد الصوفي صفحة ٢٠ ـ ٢١ .
(٢) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٥٩٣ .
(٣) انظر الذخيرة لابن بسام القسم الأول المجلد الثاني ٤٢٨ .

وجاء في الذخيرة لابن بسّام في صفة عبد الرحمن المستظهر قوله : وكان على حداثة سنِّه ذكياً يقظاً لبيباً أديباً ، حسن الكلام جيِّد القريحة مليح البلاغة ، يتصرّف فيما شاءه من الخطابة بديهة ورويةً ، ويصوغ قطعاً من الشعر مستجادة . . وكان في وقته نسيج وحده ، فلم يأت بعده مثله ، وهذه جملة ما وجد له من شعره ، ومن ذلك قصيدة كتب بها إلى «مُشْنِفَ» زوجَ سليمان بن الحكم المستعين ، أيّام خطب بنتها من أبيها سليمان ، والمسماة «حَبيبَة» فَلَوَتْهُ ، وكان بقلبه من هذه الفتاة مكانٌ ، لنشأتهما معاً في ذلك الأوان[1] فيقول، فيها :

وَجَالِيَـة عُـذْراً لِتَصْـرِفَ رَغْبتي ... وَتَأْبَى المَعَالي أنْ تُجيزَ لَها عُذْرا
يُكَلِّفُهَـا الأَهْلونَ رَدِّي جَهَـالَـةً ... وَهَلْ حَسَنٌ بِالشَّمْسِ أَنْ تَمنَعَ البَدْرَا ؟
وَمَاذَا عَلَى أُمِّ الحَبيبَـة إذْ رَأَتْ ... جَلاَلَةَ قَدْري ، أَنْ أَكونَ لَها مُهْرا ؟
جَعَلْتُ لَهَـا شَرْطاً عَلَيَّ تَعَبُّدي ... وَسُقْتُ إِلَيْها في الهَوَى مُهْجَتي مَهْرا
تَعَلَّقْتُهَا مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ غَريرَةً ... مُخَـدَّرَةً مِنْ صِيـدِ آبَائِهـا غِـرّا
حَـامَةُ عُشِّ العَبْشَمِيِّـينَ رَفْـرَفَتْ ... فَطِرْتُ إِلَيها مِنْ سَرَاتِهِمُ صَقْرا
لَقَدْ طَالَ صَوْمُ الحُبِّ عَنْكَ ، فَما الَّذي ... يَضُرُّكِ مِنْهُ أَنْ تَكُوني لَهُ فِطْرا ؟
وَإِنِّي لأَسْتَشْفي بِمَـرِّي بِـدَارِكُمْ ... هُدُوءاً ، وَأَسْتَسقي لِسَاكِنَها القَطْرا
وَأُلْصِقُ أَحْشَـائِي بِبَـرْدِ تُـرابِهَـا ... لأُطْفِىء مِنْ نَارِ الأَسى بِكُمْ جَمْرا
فَإِنْ تَصْرفيني يا ابْنَةَ العَمِّ تَصْرِفي ... وَعَيْشَكِ ، كِفْئاً مَدَّ رَغْبَتَهُ سِتْرا
وَإِنِّي لأَرْجُو أن أُطَوِّقَ مَفْخَـري ... بِمُلْكي لَهَا وَهْيَ الَّتي عَظُمَتْ فَخْرا
وَإِنِّي لَـطَعَّانٌ إذا الخَيْـلُ أَقْبَلَتْ ... جَرَائِدُهَا ، حَتَّى تَرَى جَوْنَهَا شُقْرا[2]
وَإِنِّي لأَوْلَى النَّاسِ مِنْ قَوْمِهَا بِهَا ... وَأَنْبَهُهُمْ ذِكـراً وَأَرْفَعُهُـمْ قَـدْرا

---

(١) انظر في الحلة السيراء ٢/١٣ «شنف» .

(٢) انظر المعجب في تلخيص أخبار المغرب ٣٦ جوانبها بدل جرائدها .

وَعِنْدِي مَايُصْبِي الحَلِيمَةَ ثَيِّباً ... وَيُنْسِي الفَتَاةَ الخَوْدَ عُذْرَتَها البِكْرا
جَمَالٌ وَآدابٌ وَخُلْقٌ مُوَطَّأ ... وَلَفْظٌ إِذَا مَا شِئْتِ أَسْمَعَكِ السِّحْرا[1]

«وحبيبةٌ» هذه استبته وخلبت لُبَّهُ ، فأحبَّها وتمكَّن هذا الحبُّ منه ، فملأ عليه حياته ، ويروى أنَّه لمح «حبيبة» هذه يوماً ، وأومأ بالسلام لها ، فلم تردَّه عليه خجلاً ، فكتب إليها :

سَلاَمٌ عَلَى مَنْ لَمْ يَجُدْ بِكَلاَمِهِ ... وَلَمْ يَرَنِي أَهْلاً لِرَدِّ سَلاَمِهِ
سَلاَمٌ عَلَى الرَّامي الَّذي كُلَّما رَمى ... أَصَابَ الفُؤَادَ عَامِداً بِسِهَامِهِ
بِنَفْسي حَبيبٌ لَمْ يَجُدْ لِمُحِبِّهِ ... بِطَيْفِ خَيَالٍ زَائِرٍ في مَنَامِهِ
أَلَمْ تَعْلَمي يَاعَذْبَةَ الاسْمِ إِنَّني ... فَتىً فيكِ مَخْلُوعُ عِذارُ لِجَامِهِ ؟
وَإِنِّي وَفِيٌّ حَافِظٌ لِأَذِمَّتي ... إِذَا لَمْ يَقُلْ غَيْري بِحِفْظِ ذِمَامِهِ
يُبَشِّرُ ذَاكَ الشِّعْرِ شِعْرِيَ إِنَّهُ ... سَيُوصِلُ حَبْلي بَعْدَ طُولِ انْصِرامِهِ
وَمَا شَكَّ طَرْفي أَنَّ طَرْفَكِ مُسْعِدي ... وَمُنْقِذُ قَلْبي مِنْ حِبالِ غَرامِهِ
عَلَيْكِ سَلاَمُ اللهِ مِنْ ذِي تَحِيَّةٍ ... وَإِنْ كَانَ هَذَا زَائداً في احْتِرامِهِ[2]

وله في وصفها أشعار كثيره ، منها وصفه الرائع لها وقد أذهله وجهها الوضيء وثغرها البرود ، ففدّاها بنفسه وروحة ، فقال :

تَبَسَّمَ عَنْ دُرٍّ تَنَضَّدَ في الوَرْسِ ... وَأَسْفَرَ عَنْ وَجْهٍ يَتيهُ عَلَى الشَّمْسِ
غَزَالٌ بَرَاهُ اللهُ مِنْ نُورِ عَرْشِهِ ... لِتَقْطيعِ أَنْفَاسي وَلَيْسَ مِنَ الإِنْسِ
وَهَبْتُ لَهُ مُلكي وَرُوحي وَمُهْجَتي ... وَنَفْسي ، وَلاَ شَيْءَ أَعَزُّ مِنَ النَّفْسِ[3]

وله في الغزل أبيات خفيفة رائعة ، تعبِّر عن إحساس مرهف ونفس اكتوت

---

(١) الذخيرة ١/ ٤٠ - ٤١ .
(٢) انظر الحلة السيراء ٢/ ١٥ والذخيرة القسم الأول المجلد ١/ ٤١ .
(٣) المرجع السابق القسم الأول المجلد ٤١/١ والحلة السيراء ٢/ ١٦ .

بنار الشوق وحُرقة المواعيد ، فانثنى يتشكّى ويعتب ، وهل يفيد العتاب ؟ :

طَالَ عُمْرُ اللَّيْلِ عِنْدي مُذْ تَوَلَّعْتَ بِصَدِّي
يَا غَزالاً نَقَضَ العَهْـدَ وَلَمْ يُوفِ بِوَعْدِ
أَنَسيتَ العَهْدَ إذْ بِتْـنَا عَلَى مَفْرَشي وَرْدِ
وَاجْتَمَعْنَا في وِشاحٍ وَانْتَظَمْنَا نَظْمَ عِقْدِ

والظاهر أنَّ عهده على مفرش الورد لم يطل ، فقد ثار عليه هو الآخر بعد شهرين من خلافته أمويٌ آخر من أقربائه اسمه محمّد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر عبد الرحمن ، ولُقِّب بالمستكفي . وَلَهُ يوم الوثوب عليه ، قوله :

يَا أَيُّها القَمَرُ المُنيرْ كُنْ نَحْوَ شِبْهِكَ لي سَفيرْ
بِتَحِيَّةٍ أَوْدَعْتُهَا شَوْقاً ، بُنَيَّاتِ الصُّدورْ[1]

وتمكّن من التغلُّب عليه والفتك به ، وحلَّ محلَّه ، ولقّب بالمستكفي بالله ، وهو والد الأميرة الأديبة الشهيرة ولّادة ، المعروفة بابنة المستكفي .

---

(١) الحلة السيراء ١٧/٢ والذخيرة القسم الأول المجلد ٤٣/١ .

١٥ - محمد بن عبد الرحمن بن عبيدالله بن الناصر الأموي «المستكفي بالله»
٣٦٦ - ٤١٦ هـ/٩٧٦ - ١٠٢٥ م

هو الخليفة محمّد بن عبد الرحمن بن عبيدالله بن عبد الرحمن الناصر ، بويع بالخلافة يوم قتل المستظهر . وقد اختار هذا الاسم «المستكفي» لنفسه ، فوافق اختياره له ما جرى لسميه قبله المستكفي العباسي (٣٣٣ - ٣٣٤ هـ/٩٤٤ - ٩٤٦ م) من ضعف ووهن في الحكم ، وتخلّف وسوء إدارة . بل زعموا أنّه زاد على سميّه في الضعف والتقصير ، وقال بعض الأدباء : ومن العجب اتفاقهما في الأخلاق ، وفي العمر واللقب ، وإن كلًّ واحد منهما خُلِع عن الأمر ، وكلّ واحد منهما تركه أبوه صغيراً . وخلع بعد سنة وأربعة أشهر[1] .

سار بعد خلعه ، وقد لبس ثياب نساء ، متنقّباً بين امرأتين في ليلة ٢٥ /ربيع الأول ٤١٦ هـ/٢٦ أيار ١٠٢٥ م ، وخرج من قرطبة ومات في إقليش فكانت مدة خلافته سبعة عشر شهراً كلها نكد وسوء[2] . وعادت السلطة في قرطبة

(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٥٩٣ والذخيرة لابن بسام القسم الأول المجلد الأول ٣٨٠ والملوك الشعراء للدكتور جبرائيل جبور ٢٤٥ .
(٢) الذخيرة لابن بسام القسم الأول المجلد الأول ٣٨٢ .

إلى بني حمّود بزعامة يحيى بن علي ، إلاّ أنّه لم يدخل قرطبة ، وظلّ مقيماً بقرمونة ، وانقطعت دعوته عن قرطبة ، فأجمع رأي أهل قرطبة على ردِّ الأمر لبني أميّة ، واتّفقوا أخيراً على تقديم أمويّ آخر من أقرباء المستكفي اسمه ؛ هشام بن محمّد بن عبد الملك[٣] .

والجدير بالذكر أن المستكفي هذا وإن لم يكن شاعراً ، فقد أنجب شاعرة فذةً من شاعرات الأندلس هي ابنته ولاّدة بنت المستكفي . فقد كانت أديبة شاعرة ، تعقد المجالس الأدبيّة في قصرها ، فيتهالك الشعراء والأدباء على حضور ناديها ، لفصاحتها وبلاغتها وحلاوة عشرتها . ولها مع الشاعر ابن زيدون أخبار كثيرة ، تغص بها كتب الأدب .

وكان مجلسها بقرطبة ملتقى الأدباء والشعراء وعلية القوم ، لما عرفت به من عفّة وطهارة وشخصيّة جذابة لا تُطمِع الآخرين فيها . على الرغم مما تقولوا ، فقد زعموا أنها كتبت على أحد عاتقيها :

أَنَا وَاللهِ أُصْلُحُ لِلْمَعَالِي ... وَأَمْشي مِشْيَتي وَأَتيهُ تيهَا

وكتبت على الآخر :

وَأُمْكِنُ عَاشِقي مِنْ صَحْنِ خَدِّي ... وَأُعْطي قُبلَتي مَنْ يَشْتَهيهَا[٤]

وقد تفجّرت ينابيع الشعر في الأندلس في عصر ولاّدة بنت المستكفي ، فنابت بذلك عن أبيها ، وانسحبت جداول الشعر دفّاقة إلى ما بعد عصر ولاّدة ، فقد ظهرت شاعرات كثيرات ، ذكر المقّري في نفح الطيب منهن : أم العلاء بنت يوسف الحجازيّة ، وأمّ السعد بنت عصام الحميري من أهل قرطبة ، وكانت

---

(١) الملوك الشعراء لجبور .

(٢) انظر نفح الطيب ٢٠٥/٤ والذخيرة القسم الأول المجلد الأول ٣٧٦ .

تعرف بسعدونة ، وحسّانة التميميّة ، وأمّ العزيز الشريفة الحسينية ، وأمّ الكرام بنت المعتصم ابن صمادح ملك المرية وكانت عشقت الفتى المشهور بالجمال وعملت فيه الموشّحات .

وذكر منهنّ أيضاً الشاعرة الغسانيّة البجانيّة ، وحفصة بنت الحاح الركونيّة ، والعروضيّة مولاة أبي المطرف[1] .

وكان لهاتيك الشواعر من الحريّة الاجتماعية ما جرّأهن على التغزُّل بأصحابهن من الشباب ، لذلك لم تكن ولّادة وحيدة في هذا الباب[2] .

---

(١) انظر نفح الطيب ٤/١٦٦ ـ ١٧١ .
(٢) نفح الطيب ٤/٢٠٨ .

١٦ ـ هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصري الأموي «المعتد بالله»
٣٦٤ ـ ٤٢٨ هـ/٩٧٤ ـ ١٠٣٦ م

هو الخليفة هشام بن محمّد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ، آخر خلفاء الدولة الأمويّة ، لقّب المعتدّ بالله فأقام مدّة ثمّ خلع ، وسجن إلى أن مات في صفر سنة ٤٢٨ هـ وماتت بموته الدولة الأمويّة بالأندلس[1] .

وكان بعده عهدُ ملوك الطوائف ، فاستبدَّ كلُّ زعيم بمقاطعته ، فمنهم من خطب للخلفاء العباسيّين المجمع على إمامتهم في المشرق ، ومنهم من خطب للخلفاء المروانيّين وإن لم يبق لهم خلافة . وراح هؤلاء الزعماء يتشبّهون بالملوك ، ويتباهون في أبّهة الملك والسلطان ، وآل أمرهم إلى التلقُّب بنعوت الخلفاء العباسيّة كما أشار إلى ذلك ابن رشيق القيرواني في كتابه العمدة في نقد الشعر ، وتروى الأبيات أيضاً لابن عمّار :

مِمَّا يُزَهِّـدُني في أَرْضِ أَنْدَلُسٍ   أَلْقَـابُ مُعْتَضِـدٍ فيهـا وَمُعتَمِـدِ
أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ في غَـيْرِ مَوْضِعِهـا   كَالهِرِّ يَحْكي انْتِفَاخاً صَوْلَةَ الأَسَدِ[2]

---

(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٥٥٣ .
(٢) انظر الذخيرة لابن بسام القسم الرابع المجلد ١٣٤/١ .

وقد تلقّب بهذين اللقبين ملوك الطوائف من بني عبّاد ، وسنرى أنّهم كانوا أشهر ملوك الطوائف وأكرمهم . وقد دافع عنهم المقّري ، فقال : «هذه مقالةُ متعسفٍ كافر للنعم ، ومثل ذلك في حقِّهم لا يقدح ، ومازالت الأشراف تهجى وتمدح»[1] ويروى أن الشاعر ابن اللبانة ، وكان ممن يتردّد على بلاط بعض ملوك الطوائف ، واختصَّ ببلاط بني عبّاد وأخلص لهم حتى ألَّف كتاباً بفضلهم سمّاه : «الاعتماد في أخبار بني عبّاد» .

وهكذا نرى من خلال مسايرتنا لحوادث هذه الفتنة الكبرى ، أنّ ضعفَ الخليفة هشام الثاني بن الحكم ٣٤٦ ـ ٣٩٩ هـ/٩٥٦ ـ ١٠٠٩ م أدّى إلى استبداد آل عامر وتحكُّمهم بمختلف أمور الدولة ، حتى إذا زالت دولة هؤلاء ، طمّت الفتنة وكثرت الثورات ، وتسارع تعاقب الخلفاء حتى بلغ عددهم في الفترة الواقعة بين ٣٩٩ ـ ٤٢٢ هـ/١٠٠٨ ـ ١٠٣٠ م تسعة خلفاء ، منهم من تولّى مرّتين .

وكان لآل حمّود في هذه الفترة نصيب هام في الخلافة وضعفها[2] .

وهذا جدول بأسماء الخلفاء من بني أمية ، وبني حمود في دور الضعف والانحلال ومدة حكمهم ، مأخوذ عن تاريخ العرب في إسبانيا للدكتور خالد الصوفي صفحة ٢٣ .

---

(١) انظر نفح الطيب ٢٥٥/٤ .
(٢) تاريخ العرب في اسبانيا للدكتور خالد الصوفي صفحة ٢٢ .

جدول خلفاء الأندلس بين ٣٤٦ - ٤٢٢ هـ/١٠٠٨ - ١٠٣١ م

١ - هشام الثاني بن الحكم «المؤيد»	٣٤٦ - ٣٩٩ هـ	٩٥٦ - ١٠٠٩ م
٢ - محمد بن هشام بن عبد الجبار «المهدي»	جـ ٢ - ر ١ - ٤٠٠ هـ	ش - ت ٢ - ١٠٠٩ م
٣ - سليمان بن الحكم «المستعين بالله»	ر ١ - ش - ٤٠٠ هـ	ت ٢ - أيار ١٠١٠ م
٤ - محمد بن هشام «للمرة الثانية» المهدي	ش - ذو الحجة - ٤٠٠ هـ	أيار - تموز ١٠١٠ م
٥ - هشام الثاني بن الحكم «للمرة الثانية» المؤيد»	ذو الحجة ٤٠٠ - شوال ٤٠٣ هـ	تموز ١٠١٠ - أيار ١٠١٣ م
٦ - سليمان بن الحكم «للمرة الثانية» المستعين بالله	شوال ٤٠٣ - محرم ٤٠٧ هـ	أيار ١٠١٣ - تموز ١٠١٦ م
- علي بن حمود «الناصر»	محرم ٤٠٧ - ذو القعدة ٤٠٨ هـ	تموز ١٠١٦ - آذار ١٠١٨ م
- القاسم بن حمود «المأمون»	ذو القعدة ٤٠٨ - ربيع ٢ ٤١٢ هـ	آذار ١٠١٨ - آب ١٠٢١ م
- يحيى بن علي بن حمود «المعتلي»	ربيع ٢ ٤١٢ - ذو القعدة ٤١٣ هـ	آب ١٠٢١ - شباط ١٠٢٣ م
- القاسم بن حمود «للمرة الثانية» المأمون	ذو القعدة - جمادى ٢ ٤١٣ هـ	شباط - أيلول ١٠٢٣ م
٧ - عبد الرحمن بن عبد الملك «المرتضى»	ذو القعدة ٤٠٨ هـ	١٠١٨ م
٨ - عبد الرحمن بن هشام «المستظهر»	رمضان - ذو القعدة ٤١٤ هـ	ك ١ ١٠٢٣ - ك ٢ ١٠٢٤ م
٩ - محمد بن عبد الرحمن «المستكفي»	ذو القعدة ٤١٤ - ربيع ٢ ٤١٦ هـ	ك ٢ ١٠٢٤ - أيار ١٠٢٥ م
- يحيى بن علي بن حمود «للمرة الثانية» المعتلي	رمضان ٤١٦ - محرم ٤١٧ هـ	ت ٢ ١٠٢٥ - آذار ١٠٢٦ م
١٠ - هشام بن محمد «المعتمد»	ربيع ٢ ٤١٨ - ذو الحجة ٤٢٢ هـ	حزيران ١٠٢٧ - ت ٢ ١٠٣١ م

الفصل الثالث
ملوك الطوائف

١ ـ ملوك دولة بني جهور بقرطبة :

آ ـ أبو الحزم بن جهور٣٦٤ ـ ٤٣٥ هـ/ ٩٧٤ ـ ١٠٤٤ م

مدة حكمه ٤٢٢ ـ ٤٣٥ هـ ثلاثة عشر عاماً

ب ـ أبو الوليد محمد بن جهور ٣٩١ ـ ٤٥٦ هـ/ ١٠٠٠ ـ ١٠٦٤ م

مدة حكمه ٤٣٥ ـ ٤٥٧ هـ اثنتان وعشرون سنةً

جـ ـ عبد الملك بن محمد بن جهور ٤٢٠ ـ ٤٧٢ هـ/ ١٠٢٨ ـ ١٠٨٠ م

مدة حكمه ٤٥٧ ـ ٤٦١ هـ أربع سنوات

٢ ـ ملوك بني الأفطس ببطليوس :

آ ـ المتوكل أبو حفص عمر ٤٢٠ ـ ٤٨٩ هـ/ ١٠٢٨ ـ ١٠٩٤ م

مدة حكمه ٤٦٠ ـ ٤٨٩ هـ تسعة وعشرون عاماً

٣ ـ ملوك بني هود بسرقسطة :

آ ـ أحمد المقتدر من بني هود ٤١٥ ـ ٤٧٤ هـ/ ١٠٢٣ ـ ١٠٨١ م

مدة حكمه ٤٣٥ ـ ٤٧٤ هـ تسعة وثلاثون عاماً

٤ ـ ملوك بني حمود بقرطبة :

أ ـ علي بن حمود الملقب بالناصر لدين الله ٣٥٤ ـ ٤٠٨ هـ/ ٩٦٥ ـ ١٠١٨ م

مدة حكمه ٤٠٧ ـ ٤٠٨ سنتان

ب ـ القاسم بن حمود الملقب بالمأمون ٣٥١ ـ ٤٣١ هـ/ ٩٦٢ ـ ١٠٤٠ م

مدة حكمه ٤٠٨ ـ ٤١٢ هـ ثلاث سنين ونصف

جـ ـ يحيى بن علي بن حمود ابن أخي القاسم الملقب بالمعتلي بالله ٣٨٥ ـ ٤٢٧ هـ/ ٩٩٥ ـ ١٠٣٥ م

مدة حكمه ٤١٢ ـ ٤٢٧ هـ خمسة عشر عاماً متقطعة

٥ ـ ملوك دولة بني عباد بإشبيلية :

أ ـ محمد بن إسماعيل بن عباد ٤١٤ ـ ٤٣٣ هـ/ ١٠٢٣ ـ ١٠٤٢ م

مدة حكمه ٤١٤ ـ ٤٣٣ تسعة عشر عاماً

ب ـ عباد بن محمد بن اسماعيل الملقب بالمعتضد بالله ٤٠٤ ـ ٤٦١ هـ/ ١٠١٣ ـ ١٠٦٩ م

مدة حكمه ٤٣٣ ـ ٤٦١ هـ ثمانية وعشرون عاماً

جـ ـ محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل الملقب بالمعتمد على الله ٤٣١ ـ ٤٨٨ هـ ـ ١٠٤٠ ـ ١٠٩٥ م

مدة حكمه ٤٦١ ـ ٤٨٤ هـ ثلاثة وعشرون عاماً

ملوك بني جهور بقرطبة

١ ـ ظهور بني جهور بقرطبة
٢ ـ أبو الحزم بن جهور بقرطبة
٣ ـ أبو الوليد محمد بن جهور
٤ ـ عبد الملك بن محمد بن جهور

ظهور بني جهور بقرطبة
٤٢٢ ـ ٤٦١ هـ

كان يوجد في قرطبة منذ مطلع القرن الخامس الهجريّ طبقة من العائلات البرجوازيّة التي قد لازمت موقفاً متحفِّظاً حيادياً خلال الفتنة الكبرى ، التي شهدت انهيار الحكم الأمويّ في الأندلس ، وظهور ملوك الطوائف .

ولّما كان عدد من أفراد هذه الطبقة لازالوا يتمتّعون بإحترامهم ومكانتهم لدى بقيّة الشعب ، فقد رأى هؤلاء أن من واجبهم أن يتدخّلوا في الحالة المأساويّة التي وصلت إليها عاصمة الأندلس ، علّهم يستطيعون تخفيف وطأة الفوضى السائدة ، ونشْرَ شيء من الهدوء والإستقرار .

ورغم ما رأته هذه الطبقة البرجوازيّة ، وعلى رأسها أبو الحزم جهور بن محمّد بن جهور ، من فشل الخلفاء الأمويّين المتأخّرين ومن عجزهم عن القيام بأعباء الخلافة ، فقد كان لايزال لهم بصيص من الأمل في إمكان إصلاح الحال على يد خليفة أمويّ صالح مستنير . وبناء على هذا الأساس أخذوا يفتشون عن الأموي الذي يرضى عنه الجميع ، أهل العاصمة وأهل الثغور ، لكي يسلّموا إليه مقاليد الحكم .

في تلك الفترة بالذات ، كان قد قام في شرق الأندلس شخص من الأسرة الأمويّة يدعو لنفسه بالخلافة ، هو هشام بن محمّد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ، وقد تولّى الخلافة في ربيع الأول سنة ٤١٨ هـ/ ١٠٢٧ م ، وهو الأخ الأكبر للخليفة المرتضى الأمويّ الذي قام في شرق الأندلس أيضاً ٤٠٨ هـ/ ١٠١٨ م أيّام القاسم بن حمّود ، وهزم على يد زاوي بن زيري أمير غرناطة . فلمّا قتل المرتضى قام أخوه هشام بالدعوة مكانه في شرق الأندلس ، وأقام في حصن «البونت» عند الأمير عبدالله بن قاسم الفهري الذي كان من أتباعه .

وتشاور كبار أهل قرطبة في أمر مبايعته ، وقرروا أخيراً استجابة لرغبة عميدهم الوزير أبي الحزم بن جهور ، إسنادَ الخلافة لهشام المذكور لكونه أصلح الأمويينّ لذلك . ومما ساعد على إتّخاذ قرارهم هذا ، وجود عاطفة بغض مشتركه بين أهل قرطبه وهشام هذا نحو البرابرة الأعداء التقليديينّ ، وقاتلي المرتضى أخي هشام .

وهكذا أرسل أهل قرطبة إلى هشام يعلمونه بأنّهم قرّروا مبايعته ، ويدعونه للحضور إلى قرطبة ، لتسلُّم مهام الحكم . وقد ُبدىء فعلاً بالدعاء لهشام في الجوامع عام ٤١٨ هـ/ ١٠٢٧ م وكانت سنُّه آنذاك أربعاً وخمسين سنة . ولكنَّ هشاماً بقي يتنقَّل بين الثغور حوالي ثلاثة أعوام قبل أن يقرِّر القدوم إلى قرطبة . ودارت بسببه فتن عظيمة واضطرابٌ شديد بين أمراء الثغور ، إلى أن اتّفق أمرهم على أن يسير إلى قرطبة ، فسار إليها ووصلها في ٨ ذي الحجة سنة ٤٢٠ هـ/ ١٨ كانون أوّل سنة ١٠٢٩ م بعد أن مضى على بدء دعوته في حصن البونت سنتان وسبعة أشهر وثمانية أيّام[1] .

---

(١) أنظر المعجب في تلخيص المغرب ص٣٨ للمراكشي . وتاريخ إسبانيا المسلمة ٣٣٨/٢ لبروفنسال .

بعد أن تمَّ الأمر لهشام ، واتّخذ لقب المعتد بالله ، خيَّب آمال الوجهاء الذين بايعوه ، فبدلاً من أن يستوزرهم ، مال إلى إستيزار شخص وضيع من العامّة هو «حكَمُ بن سعيد» المكنّى بالقزاز والذي كان يعمكل حائكاً فيما سبق . وأطلق هشام يد الوزير هذا كسل شيء ، واستعان بأراذل الناس وسِفالِهم ، فاستاءَ الناسُ وعمَّ الظلمُ ، ولم تثمر أيّة جهود في إبعاد هذا الوزير عن السلطة .

وقد رأى ابن جهور أنَّ القضاء على القزاز وحده لا يكفي بل يجب التخلُّص من الخليفة أيضاً ، وأكثر من ذلك ، يجب التخلّص من الأسرة الأمويّة عامّة ، بعد أن ثبت عدم صلاحية أفرادها للحكم في عدّة تجارب . ولأجل ذلك اتّصلوا بأحد أقرباء الخليفة هشام وهو أميّة بن عبد الرحمن بن هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر ، وأقنعوه بضرورة الثورة على هشام والتخلُّص منه ، مقابل وضعه مكانه فيما إذا نجح مسعاه . فوافق على الفكرة وأخذ يدعو الناس إلى الإنضمام إليه ، يساعده في ذلك وجهاء قرطبة ووزراؤها .

وانتهز الثوّار ذات يوم فرصة مرور الوزير القزاز في شوارع قرطبة متّجهاً إلى المسجد ، فانقضوا عليه وقتلوه وطافوا برأسه في أنحاء المدينة ، وتوجّهوا إلى قصر الخليفة وحاصروه واستطاعت فئة منهم النفوذ إلى داخل القصر وذلك في ١٢ ذي القعدة ٤٢٢ هـ/ ٣٠ تشرين الثاني سنة ١٠٣١ م ، وأعملوا النهب فيه[1] .

تبوّأ أميّة مجلس الخلافة لا يشكُّ في مآلها إليه . أمّا أبو الحزم بن جهور زعيم قرطبة الأكبر حينذاك فقد دعا الوزراء والوجهاء إلى منزله لتقرير ما يجب عمله . وبعد أن اتّخذوا مقرّراتهم ساروا مع أتباعهم المسلمين إلى قصر الخلافة ، ثم طلبوا

---

(١) انظر البيان المغرب ١٥١/٣ ودوزي : تاريخ مسلمي إسبانيا ٣٤٤/٢ .

من الخليفة الذي كان محاصراً في أحد أبراج القصر ، النزول إليهم والتنازل عن الخلافة .

فانصاع إلى طلبهم ، واقتيد مع بعض نسائه وأولاده إلى دهليز يصل بين الجامع الكبير والقصر ، وبقي هشام بعض الوقت في هذا الدهليز ، ثم نقل إلى أحد السجون حتى يُطلبَ منه مغادرة المدينة[1] .

وفي اليوم التالي أعلن الوزراء للناس قرارهم بإلغاء الخلافة نهائياً ، وتوكيل جماعة من الكبار حكم المدينة . وكان أميّة لايزال حينذاك في القصر يلتفُّ حوله بعض أتباعه ، فخاطبهم ابن جهور بالإنفضاض عن أميّة وعن أفراد هذه الأسرة ، ثم أفهمهم بأن الجميع قد قرروا إلغاء الخلافة ، فانفضوا من حوله ، واقتيد أميّة إلى خارج المدينة .

أما الخليفة هشام فقد استطاع أن ينجو بنفسه في السجن ، ليلتجىء إلى لا ردة حيث كانت تابعة لبني هود ، وعاش فيها خمس سنوات مغموراً لا يسمع به أحد حتى مات عام ٤٢٨ هـ ١٠٣٦ م فكانت نهايته هي المأساة التي انتهى بها حكم الأسرة الأمويّة في الأندلس .

وبعد أن ألغي منصب الخلافة في قرطبة ، كان لابدّ من تعيين مسؤول يدير شؤون المدينة قبل أن تتفشّى الفوضى ويضطرب النظام، وبَدَهي أن تتّجه الأنظار إلى زعيم الجماعة أبي الحزم بن جهور ليتسلّم حكم قرطبة . ولكنّه رفض تسلم المسؤولية . فألحَّ الوزراء والأعيان عليه ليقينهم بأنّه لايوجد رجل أصلح منه في ذلك الحين ، فلما رأى أبو الحزم ذلك الإجماع على تسليمه الأمر ، قبل طلبهم ولكن بشروط :

---

(١) المرجعين السابقين .

١" ـ ألا يتسلم الحكم وحدة ، بل بل يشاركه في ذلك وزيران آخران ينتخبهما بنفسه ، وقد وقع إختياره على الوزيرين : محمّد بن عبّاس ، وعبد العزيز بن حسن ، وهما من أقربائه .

٢" ـ ألّا يتّخذ أيَّ لقب من الألقاب الخلافية والملكيّة ، بل يحكم بصفته وزيراً للجماعة وممثّلاً لها .

٣" ـ ألّا يتّخذ قصر الخليفة مقرّاً له ، بل يبقى في منزله الذي يسكنه .

٤" ـ أن يتسلَّم الأمر مؤقتاً ريثما يحلُّ محلَّه شخص يتَّفق الناس على إمارته[1] .

وقبل الجميع مطاليبه ، على أن يكون الوزيران مستشارين له لا سلطة لهما ، وهكذا تشكلّت حكومة قرطبة الجديدة التي نستطيع أن نقول عنها بأن نظامها أقرب ما يمكن إلى النظام الجمهوري .

---

(١) انظر هذه الشروط في المعجب للمراكشي صفحة ٥٩ ، وابن العماد في شذرات الذهب ٢٥٥/٣ وابن لأبار في الحلة السيراء ١٢٨ ، ونهاية الأرب للنويري ٨٦/٢ ، وابن الأثير في الكامل ٢٩٠/٧ .

أبو الحزم بن جهور بقرطبة
٣٦٤ - ٤٣٥ هـ/ ٩٧٤ - ١٠٤٤ م

هو جهور بن محمّد بن جهور بن عبيدالله بن محمّد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن حسان بن عبدالله بن جابر[١] ولد في محرم سنة ٣٦٤ هـ/ ٩٧٤ م ، وهو مؤسس دولة الجهاورة . وتوفي ليلة الجمعة ٦ محرم ٤٣٥ هـ/ ١٠٤٤ م . وثب إلى السلطة في قرطبة بعد أن خلالَهُ الجّو فيها إثر سقوط آخر خلفاء بني أميّة عام ٤٢٢ هـ ، بعد أن أكلت الفتنة أهلها ، ولم يتحوّل عن داره إلى قصر الخلافة ، بل ظلَّ في منزله ومنه كان يدير دفَّة الحكم ، وكان بحقٍّ من أصحاب الفضل ، والعقل الراجح ، لا يحتجب عن الناس[٢] .

وكان إلى جانب حنكته السياسيّة ، ومكانته الإجتماعيّة الرفيعة التي بوّأته سدّة الحكم في قرطبة ، أديباً يتذوّق الأدب ، وشاعراً يشدو بالشعر ، نستدلُّ على

---

(١) هكذا ورد نسبه في الحلة السيراء لابن الأباء ٢٢٨ وفي المعجب لعبد الواحد المراكشي ٥٧ وابن بشكوال الصلة ١٣٢ وكتاب العبر لابن خلدون ١٥٩/٤ وفي الذخيرة لابن بسام عن ابن حيان القسم الأول ١١٧/٢ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ١٥٩/٤ .

ذلك من النماذج الشعرية الرفيعة التي نقلتها لنا كتب الأدب ، كقوله في تفضيل الورد :

الوَرْدُ أحْسَنُ ما رَأَتْ عَيْنٌ وَأَذْ ... كَى ، مَا سَقَى مَاءُ السَّحابِ الجَائِدُ
خَضَعَتْ نَواويرُ الرِّياضِ لِحُسْنِهِ ... فَتَذَلَّلَتْ تَنْقَادُ وَهْيَ شَوارِدُ
وَإِذَا تَبَدَّى الوَرْدُ في أَغْصَانِهِ ... يَزْهُو ، فَذَا مَيْتٌ ، وَهَذا حَاسِدُ
وَإِذَا أَتَى وَفْدُ الرَّبِيعِ مُبَشِّراً ... بِطُلوعِ صَفْحَتِهِ فَنِعْمَ الوَافِد
وَإِذَا تَعَرَّى الوَرْدُ مِنْ أَوْرَاقِهِ ... بَقِيَتْ عَوارِفُهُ فَهُنَّ خَوَالِدُ(1)

يروي الفتح بن خاقان في مطمح الأنفس ، قوله : إن أبا الحزم بن جهور مرَّ يوماً أمام قصور الأمويين وقد تقصوضت أبنيتها ، وعوِّضت عن أنيسها بالوحوش أفنيتها ، فقال :

قُلْتُ يوماً لِدارِ قَوْمٍ تَفَانُوْا : ... أَيْنَ سُكَّانُكِ العِزَازُ عَلَيْنا ؟
فَأَجَابَتْ : هُنَا أَقَامُوا قَليلاً ... ثم سَارُوا ، وَلَسْتُ أَعْلَمُ أَيْنَا !(2)

وقد روى صاحب الحلّة السيراء ابن الأبّار قوله : إنّ أبا الحزم بن جهور كتب إلى المنصور بن أبي عامر ، قائلاً :

مَتَّعَ اللَّهُ سَيِّدي بِالسُّرورِ ... وَتَوَلَّاهُ في جَمِيعِ الأُمُورِ
وَهَنيئاً لَهُ بِعِزَّةِ دَهْرٍ ... تَتَوَلَّى فَضْلاً تِلْكَ القُصُورِ
دَعْوَةٌ أَقْبَلَ الضَّميرُ بِنَجْواهُ ... عِلْمُها لِصَفْوِ ما في الضَّميرِ(3)

---

(1) انظر قصة الأدب في الأندلس لمحمد عبد المنعم خفاجي ٦٨/١ .

(2) انظر مطمح الأنفس لابن خاقان ١٥ وانظر نسبة هذين البيتين لغيره في الحلة لسيراء لابن الأبار ٢٣١ .

(3) أنظر الحلة السيراء لابن الأبار ١٢٩ .

ولا يبعد أن يهنىء أبو الحزم بهذه الأشعار المنصور في آخر دولته ، لأنّه كان حينئذ يشارف الثلاثين من عمره . وقال أبو الحزم جهور بن عبد الله في عتاب صديق له :

يَـاعَـائِـبـاً لـي بِـالـصُّـدُو ... دِ إِذَا ذكَـرْتُ قَبيـحَ عُـذْرِكْ

أَخْـلَيْـتَ مِـنْ قَـلْبـي مَـكـا ... نـاً كَـانَ مَـعْـمُـوراً بِـذِكْـرِكْ

وَأَنَـا أُحِـبُّـكَ لَـوْ وَثِـقْـ ... ـتُ وَأَسْتَـديمُ بَقَاءَ عُمْـرِكْ[1]

ولم تزل قرطبة به مشرقة ، وغصون الأمل مورقة ، حتى مات سنة ٤٣٥ هـ ، ولم يوص أبو الحزم ابن جهور بعد وفاته بالحكم لأحد من أولاده أو أقربائه . لكنَّ الإزدهار الذي حلّ بقرطبة خلال حكمه ، جعل أهل هذه المدينة يتطلعون إلى تولية رجل يستطيع أن يتابع سياسة أبي الحزم ، ولم يكن هناك أصلح لذلك من ابنه أبي الوليد محمد بن جهور ، فقرّروا تقديمه ومبايعته .

---

(١) انظر يتيمة الدهر للثعالبي ٢/ ٣٤ .

أبو الوليد محمد بن جهور
٣٩١ ـ ٤٦٢ هـ/١٠٠١ ـ ١٠٧٠ م

تسلم أبو الوليد محمد بن جهور مهامّ الحكم في قرطبة في السنة نفسها التي توفّي فيها أبوه ٤٣٥ هـ/١٠٤٤ م ولقّب نفسه بالرشيد . وهو صاحب قرطبة ، واستمر في حكمها إلى سنة ٤٥٧ هـ عندما اعتزل الأعمال ، وولّى ابنيه ؛ عبد الرحمن ، وعبد الملك مكانه .

وفي سنة ٤٦٣ هـ حاصر (قرطبة عاصمته) المأمونُ بن ذي النون (صاحب طليطلة) فاستنجد عبد الملك بالمعتمد بن عباد ، فأعانه على صدِّ المأمون . فاتفق أهل قرطبة على تولية المعتمد ، فقبضوا على عبد الملك وأبيه (محمد بن حهور أبي الحزم) وجميع آل بيته وحملوهم إلى جزيرة شلطيش ، فتوفي بعد أربعين يوماً من اعتقاله[1] . وكان محمّد بن جهور الملقّب بأبي الوليد قد ولد بقرطبة في ذي القعدة عام ٣٩١ هـ/١٠٠١ م ، وكان منذ حداثة سنِّه ميّالاً إلى العلم والدراسة والاطلاع ، ويقول ابن بشكوال في كتابة الصلة[2] : إن أبا الوليد بن جهور كان

---

(١) الأعلام للزركلي ٦/٧٤ .
(٢) كتاب الصلة لابن بشكوال ٢/٤٨٩ .

حافظاً للقرآن العظيم مجوِّداً لحروفه كثير التلاوة له ، وكان معتنياً بسماع العلم من الشيوخ وروايته عنهم .

ويتحدّث عنه ابن بسّام[1] في ذخيرته : إن أخلاقه كانت سمحة سهلة ، وأنَّه كان إلى جانب ذلك صاحب مروءة وأريحيّة ، خاصّة مع العلماء .

اعتمد في تسيير أمور دولته على الشاعر الأديب ابن زيدون ، الذي لمع نجمه أيّام أبي الحزم الذي ما لبث أن سمع كلام الوشاة فحبسه ، ولكنّه ما لبث أن فرَّ من السجن واختبأ حتى حصل له أبو الوليد على العفو من أبيه وعاد إلى منصب الوزارة حين تولّى أبو الوليد . ثم اعتمد في آخر أيّامه على ابن السقّاء في إدارة دفّة الحكم حيث نجح فيه وأوقع هيبة السلطان في قلوب الناس إلى أن قتلة الابن الأصغر لأبي الوليد عام ٤٥٥ هـ/١٠٦٣ .

---

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الثاني ١١٨ .

عبد الملك بن محمد بن جهور
٤٢٠ ـ ٤٥٦ ـ ٤٦١ ـ ٤٧٢ هـ/
١٠٢٨ ـ ١٠٦٤ ـ ١٠٦٩ ـ ١٠٨٠ م

تسلّم عبد الملك الابن الأصغر لأبي الوليد محمد بن جهور الحكم عام ٤٥٦ هـ كما حدَّده ابن حيان ، علما أن سلطته بدأت قبل ذلك بعدة سنوات في حياة أبيه ، ثم تفرد في تسيير أمور الدولة بعد تنحّي أبيه عن الحكم ، ومنذ مبايعته بولاية العهد . وكان قد ولد بقرطبة سنة ٤٢٠ هـ .

وبعد فترة هاجم ابن ذي النون قرطبة ، فاستنجد عبد الملك بأمير اشبيلية محمّد بن عبّاد ، فأمدَّه بجيش ، ودخلوا قرطبة ، وخلعوه سنة ٤٦١ هـ وأخرجوه عن قرطبة ، إلى أن اعتقل بشلطليش وظلَّ في معتقله حتى هلك سنة ٤٧٢ هـ ، وولّى ابن عبّاد على قرطبة ابنه سراج الدولة[١] .

والذي يهمنا هنا أنَّ عبد الملك بن جهور هذا كان شاعراً كجدِّه أبي الحزم ، بل يتفوَّق عليه بشاعريَّته ، وقد حفظت لنا كتب الأدب نماذج من شعره رفيعة المستوى ، كقولا متغزِّلاً .

---

(١) انظر تاريخ ابن خلدون ١٥٩/٤ .

أُجِلُّكَ أَنْ تَحِـلَّ بِـكَ الأمـاني فَكَيْفَ بِـأَنْ أَراكَ وَأَنْ تَـراني ؟
وَأَكْـرَهُ أَنْ يُمَـثِّلُكَ الـتَّـمـنِّي حَـذاراً أَنْ يَبُـوحَ بِـهِ لِسـاني
وَلَوْ أَنِّي اسْتَّطَعْتُ لِفَرْطِ شَجْوِي عَلَيْـكَ ، لَما رَآكَ الحَـافِـظَانِ
وَمَـا أَشْكُـو إِلَيْـكَ بِغَـيْرِ دَمْعِي بَيَانُ الدَّمْعِ أَعْرَبُ مِنْ بَيَـاني[1]

وعبد الملك هذا شاعر رائق الشعر ، ناصع الديباجة ، رقيق المعاني ، لم يصلنا من شعره إلاّ القليل ، وشاعر هذا أنموذج من شعره لا بُدَّ أن يكون خلَّف إرثاً شعريّاً رائعاً ، ضاع للأسف فيما ضاع من شعر وتراث في عصر النزاعات التي انتهبت قرطبة خلال أكثر من مرة . منه قوله :

وَمَا سَرَّنِي أَنَّ الهَوَى غَيْرَ صَاحِبِي وَأَنَّ خَراجَ العَبْشَمِيِّينَ فِي مُلْكِي[2]
وَلاَ كُنْتُ أَرْضَى أَنْ أَرَى مُتَخَلِّياً عَنِ الحُبِّ لَوْ أُعْطَى بِهِ خَاتَمَ المُلْكِ
نَسيمُ الهَوَى أَذْكَى وَإِنْ جَارَ واعْتَدَى عَلَى أَنَفِ العُشَّاقِ مِنْ نَفْحَةِ المِسْكِ[3]

ويتحدّث في البيتين التاليين عن الصبر كما لم يتحدّث شاعر من قبل ، فهو لا يحمد الصبر عند المحبّين ، إذ أن المحبّ الذي لا يكتوي قلبه بحرِّ الألم وحرقة النوى ، ولا يشكو لظى نيرانها ، فهو بالصخور أشبه ، يقول :

وَمَنْ يَحْمَدِ الصَّبْرَ الجميلَ عَلَى الهَوَىَ فَإِنَّ خِلاَفَ الصَّبْرِ عِنْدي أَحْمَـدُ
إِذَا كَانَ قَلْبُ المَرْءِ لاَيَأْلَمُ النَّوى وَيَشْكُو لَظَى نيرانِها ، فهْوَ جَلْمَدُ[4]

ونراه في الأبيات الأربعة التالية يتحدّث عن نوع آخر من الغزل ، إنّه الغزل المذكَّر بالغلمان ، فهو يصف لنا حوَّة النواظر وسوادها ، ولعس الشفاه ولماها ، كما

---

(١) انظر تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة للدكتور إحسان عباس ٣٩٦ .
(٢) العبشميين : نسبة إلى عبد شمس ويعني بهم الأمويين .
(٣) انظر يتيمة الدهر للثعالبي ٢/٤ ـ ٥ .
(٤) انظر يتيمة الدهر للثعالبي ٥ .

يصف لنا خضرة شاربيه فوق نظم من الدر يملأ فمه ، وعذوبة ريقه ، ويقول : لو أنَّ طيفه زاره عند المنام أو داعبه عند الهجوع لأعاد له روحه السائحة في هواه ، أو لفرّج همّاً من هموم النفس التي تعلقه بسبب حبّه وهواه :

أَحْوَى النَّواظِرِ أَلْعَسُ الشَّـ ـفَتَيْنِ ، عَذْبُ الرِّيق أَلْمى
مُخْضَرُّ شَارِبِهِ عَلاَ دُرّاً ، يُريكَ الدُّرَّ نَظْمَا
لَوْ زَارَنِي طَيْفٌ لَهُ عِنْدَ الهُجُوعِ ، وَلَوْ أَلَمَّا
لأَعَادَ رُوحاً أَوْ لَفَرَّ جَ مِنْ هُمُومِ النَّفْسِ هَمَّا

وقد وصلت إلينا بعض المقطوعات الشعريّة من نظم عبد الملك بن جهور ثالث وآخر أمراء الجهاورة في قرطبة ، وتدلّ هذه الأشعار على طول باعة في الشعر . فقد أورد الثعالبيّ في الجزء الثاني من يتيمة الدهربعضاً من أشعاره فهاكها :

أَسقَمْتَ قلبي ، فكُن أَنتَ الدَّواءَ لَهُ وَلاَ تَدَعهُ بأَيدي الشَّوقِ مُخْتَرِمَا
عَيْنَاهُ أَورَثَتَاه سُقمَهُ نَظَراً رَضِيتُ دَمعَي مِن عَيْنَيَّ مُنتَقِمَا[4]

وله في الغزل أيضاً قوله :

أَلحاظُهُ مَنْهوكَةُ النَّظَرِ ضَعُفَتْ نَوَاظِرُهَا مِنَ الخَفَرِ
وَحَدِيثُهُ أَشْهى لِسَامِعِهِ مِنْ نَغْمَةِ الشَّادِي عَلَى الوَتَرِ
وَرِضَابُهُ أَشْهَى عَلَى كَبِدي مِنْ رِيٍّ عَذْبٍ بارِدٍ خَصِرِ

---

(١) انظر تاريخ الأدب في الأندلس عصر سيادة قرطبة للدكتور إحسان عباس ٣٩٦ .
(٢) انظر ابن خاقان مطمح الأنفس صفحة ١٥ وانظر نسبة هذين البيتين لغيره في الحلة السيراء ٢٣١ .
(٣) انظر الحلة السيراء لابن الأبار ١٢٩
(٤) انظر يتيمة الدهر للثعالبي ٣/٢ .

وَكَـانَ قَـلْبـي حـينَ يَـفـقِـدُهُ مَـا بَيْنَ ذِي نَـابٍ وَذي ظِفْـرِ[١]

دائماً العيون هي نوافذه على الحبّ ، فإمّا أنْ تصطاده ، وإمَّا أن تُزلزله ، وفي الحالين لا يملك إلاّ طلب الرحمة والشفقة من حبيبه ، يقول :

يَا أُحْسَنَ النَّاسِ في عَيْنَيَّ مُبْتَسِماً وَأَعْذَبَ الخَلْقِ عِنْدي مَنْطِقاً وَفَما
حَلَّتْ بِقَلْبيَ مِنْ عَيْنَيْكَ نَازِلَـةٌ مِنَ الهَوى ، صَيَّرَتْني في الوَرَى عَلَما
لَمْ تَبْقَ جَـارِحَـةٌ مِنيٍّ أُقَلِّبُـهَـا إلاَّ بَعَثْتَ عَلَيْهَا بِالهَـوَى سَقِـمَا
فَارْحَمْ مَقَامَ مُحِبٍّ مَاشَكَا وَبَكَى تَـبَرُّماً بِـالذَّي يَلْقَى وَلاَ نَـدِمَا[٢]

وله أيضاً في الشكوى من الإلْفِ ما يوجع القلب ويضني الفؤاد ، كقوله :

اليَـوْمَ مُنْقَبِضٌ وَالـدَّمْـعُ مُنْبَسِطُ وَحُبُّ مَنْ شَفَّني بالرُّوحِ مُخْتَلِطُ
حَمَّلْتُ قَلْبي أنْ يَسْلُو تَـذَكُّـرَهُ فَقَالَ : إنَّ الَّذي حَمَّلْتَني شَطَطُ
تَسُومني الصَّبْرَ عَنْ رُوحي وَتَمْنَعُني عَنْ ذِكْرِهِ ، إنَّ ذَا مِنْ رَأيِكَ الغَلَطُ[٣]

وعلى الوتر نفسه يشكو الشاعر عبد الملك بن جهور قسوة الحبِّ ومرارة ما يلاقيه منه ، وهو يتساءل : هل العشّاق يلاقون في الهوى ما يلاقي ، فيقول :

تَرَى العُشَّاقَ لاَقَـوْا مَا أُلاقي ؟ فَقَـدْ بَلَغَتْ بيَ النَّفْسُ الـتَّراقي
خُصِصْتُ مِنَ الهَوَى بِأَمْرٍ شَيْءٍ وَكُنْتُ أَرَى الهَوَى عَذْبَ المَذَاقِ
أَنَـا العَبْدُ الـذَّي لاَعِتْقَ يَرْجُـو وَلاَ يَجِـدُ السَّبيـلَ إلى الإبَـاقِ[٤]

ويخاطب من يهوى ويحبُّ ، واصفاً لها طولَ ليلة وبكاءه ، ويتمنّى لو أنها تبصرُ ما يصنعه حبُّها فيه ، ويتمنى لو أنّها تقبلُ استجارة فؤاده المشبوب الأشواق

---

(١) المرجع السابق .
(٢) المرجع السابق .
(٣) انظر يتيمة الدهر للثعالبي ٢/٣ .
(٤) المرجع السابق .

بثناياها العذبة ، فيقول :

أمْلَحَ مَا تَنْظُرُ عَيْنَاكَ شَاكٍ شَكَا الحُبَّ إلى شَاكي
يَقْصُرُ من ذِكْرِكَ لَيْلي عَلَى أنّيَ فِيهِ سَاهِرٌ بَاكي
ولي فؤاد يستجير من الشـ ـوق إلى برد ثناياك
سيدتي لو كنْتِ أبْصَرْتِ ما يصنع بي حُبُّكِ أبْكَاكِ[1]

وضاءة وجه المحبوب تذهلهُ فيخاله بدراً ينير الآفاق ، ودقّة خصره تروعه إذا ما مشى ، فيطلب من الناس أن يدركوه قبل أن ينقطع من دقته وثقل رِدْفٍ فيه ، فيقول :

أنَارَ لي وَجْهُهُ لَيْلاً فَخِلْتُ بِهِ بَدْراً تماماً ، عَلَى الآفَاقِ يَطَّلِعُ
وَمَرَّ يَمْشي دَقيقَ الخَصْرِ يَجْذِبُهُ رِدْفٌ ، فَقُلْتُ : أدْرِكُوهُ قَبْلَ يَنْقَطِعُ[2]

(١) المرجع السابق ٢/ ٤ .
(٢) المرجع السابق .

ملوك بني الأفطس ببطليوس

المتوكل أبو حفص عمر بن الأفطس

- حياته
- شعره

المتوكل أبو حفص عمر بن محمد من آل الأفطس ببطليوس
٤٢٠ ـ ٤٨٧ هـ/١٠٢٨ ـ ١٠٩٤ م

حياته :

ملَكَ بطليوس من غرب الأندلس عند الفتنة واهتياجها أبو محمّد عبدالله بن مسلمة النجيبيّ المعروف بابن الأفطس ، واستبدّ بها وذلك سنة ٤٦١ هـ . وملك بعد هلاكه ابنه المظفّر أبو بكر ، واستفحل ملكه ، وكان من أعاظم ملوك الطوائف . وكانت بينه وبين ابن ذي النون حروب مذكورة ، وكذا مع ابن عباد بسبب ابن يحيى صاحب «مليلة» فتعاونا عليه واستوليا على كثير من ثغوره ومعاقله ، فاعتصم المظفر ببطليوس بعد هزيمتين هلك فيهما خلق كثير وذلك سنة ٤٤٣ هـ ، ثم أصلح بينهما ابن جهور[١] .

هلك المظفر سنة ٤٦٠ هـ وتولّى ابنه المتوكِّل أبو حفص عمر بن محمّد المعروف بساجة ، ولم يزل سلطان بطليوس إلى أن قتله يوسف ابن تاشفين أمير المرابطين سنة ٤٨٩ هـ وقُتل معه ولديه الفضل والعبّاس على مقربة من عاصمتهم ذبحاً بعد أن أغراه به ابن عبّاد . ورثاه ابن عبدون بقصيدته المشهورة التي مطلعها :

---

(١) انظر تاريخ ابن خلدون ٤/١٥٩ ـ ١٦٠ .

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بَعْدَ العَيْنَ والأثرِ فَمَا البُكَاءُ عَلَى الأَشْبَاحِ وَالصُّوَرِ ؟[1]

ومن مشاهير ملوك الطوائف في الأندلس من بني الأفطس المظفَّر صاحب التأليف المسمى بالمظفَّري ويقع في خمسين مجلداً[2] . ثم خلفه ابنه المتوكّل الذي يعتبر من أشهر ملوك بطليوس ، وكان له قدم راسخة في صناعة النظم والنثر . وكانت أيّام بني المظفَّر أعياداً ومواسم ، تفد إلى مجلس المتوكّل جموع الشعراء والأدباء ، كابن اللبانة ، وابن عبدون ، وابن عبد البر الشنتريني وغيرهم ، يتطارحون معه الشعر ، ويمدحونه ، وكان الشاعر المشهور ابن عبدون أحد وزراء دولته وخواصّ حضرته ، وهو الذي قال فيه أعظم رثاء .

وكان المتوكّل إذا خلا إلى نفسه ونظم شيئاً من الشعر ، أو قال شيئاً وأراد أن يتطارحه مع نديم ، استدعى الشاعر ابن عبدون وزيره ، ورووا عنه أنّه صنع مرّةً شطر بيت هو «الشعر خطة خسف» وارتج عليه فاستدعى ابن عبدون ، واستجازه إياه ، فقال ابن عبدون :

الشِّعْرُ خِطَّةُ خَسْفِ لِكُلِّ طَالِبِ عُرْفِ
لِلشَّيْخِ عَيْبَةُ عَيْبٍ وَلِلْفَتَى ظَرْفُ ظَرْفِ[3]

فوُفِّق في الجناس وفي المعنى ، إذ أنّ كلمة عيبة وظرف بمعنى وعاء .

وروي في نفح الطيب عنه ، أنّه كان له فرس أدهم أغرُّ محجَّل على كتفه ست نقط بيض ، فندب المتوكّل الشعراء لوصفه ، فصنع أبو الوليد النحلي شعراً ، ثم ابن اللبانة ، وكذلك فعل ابن عبد البرّ ، وكان مما قاله ابن عبد البر في الحصان :

---

(١) المرجع السابق .
(٢) قصة الأدب في الأندلس لمحمد عبد المنعم الخفاجي ٦٩/١ .
(٣) انظر نفح الطيب ٦٠٩/٣ .

وَكَـأَنَّمَـا عُمَـرٌ عَـلَى صَهَـوَاتِـهِ   قَمَـرٌ تَسيرُ بِـهِ الرِّيَـاحُ الأَرْبَعُ[1]

وقد لاقى المتوكّل هذا من الحيف بعد العزّ ، مثل ما لاقاه المعتمد بن عبّاد ، وفي رائية ابن عبدون التي رثاه بها ، وقد ذكرنا مطلعها ، يقول في آخرها :

وَيْحَ السَّمَاحِ ، وَوَيْحَ البَأْسِ لَوْ سَلِمَا   وَالمَجْدِ وَالدِّينِ وَالدُّنْيَا عَلَى عُمَرِ
سَقَتْ ثَرَى الفَضْلِ وَالعَبَّاسِ هَامِيَةٌ   تُعْزَى إِلَيْهِمْ سَمَاحاً لَا إِلى المَطَرِ[2]

إنّه رغب عند قتله في تقديم ولديه بين يديه ليحتسبهما ، ثم قام يصلي بعد قتلهما ، فبادره الموكّلون به من قِبل ابن تاشفين ، فطعنوه برماحهم حتى فاضت نفسه .

شعره :

قلنا إنّ المتوكّل كان متمكّناً من فنِّ النثر ونظم الشعر ، وله أشعار كثيرة مبثوثة في كتب الأدب ، منها قصيدة لاميّة طويلة ، بعث بها إلى أخيه معاتباً ، وقد بلغه أنه قُدِح فيه بمجلسه ، يقول في مطلعها :

فَمَا بَالُهُمْ ؟ لَا أَنْعَمَ اللهُ بَالَهُمْ !   يَنُوطونَ بي ذَمّاً ، وَقَدْ عَلِمُوا فَضْلي
يُسيئونَ فيَّ القَوْلَ جَهْلاً وَضِلَّةً   وَإِنّي لأَرْجُـو أَنْ يَسُوءَهُمْ فِعْـلي
لَئِنْ كَانَ حَقّاً مَا أَذَاعُوا فَلَا خَطَتْ   إلى غَايَةِ العَلْيَاءِ مِنْ بَعْدِهَا رِجْلي
وَلَمْ أَلْقَ أَضْيَـافي بِوَجْـهِ طَـلَاقَـةٍ   وَلَمْ أَمْنَح العَافينَ في زَمَنِ البُخْلِ
وَلي خُلُقٌ في السُّخْطِ كَالشَّرْي طَعْمُهُ   وَعِنْدَ الرِّضَا أَحْلَى جَنىً مِنْ جَنَى النَّحْلِ[3]

إلى أن يقول في آخرها عتاباً رقيقاً يستحقّ أن يُحتذى :

---

(١) انظر نفح الطيب ٣/٣٣٣ ، ويعني بعمر المتوكل .
(٢) انظر الحلة السيراء ٢/١٠٢ .
(٣) الشري : العسل .

أَلَسْتُ الَّذي أَصْفَاكَ قِدْماً وِدَادَهُ ؟ وَأَلْقَى إِلَيْكَ الأَمْرَ في الكَنْزِ وَالقَلِّ ؟
وَقَدْ كُنْتَ تَشْكِينِي ، إِذَا جِئْتُ شَاكِياً فَقُلْ لي : لِمَنْ أَشْكُو صَنيعَك بِي ؟ قُلْ لي[1]
فَبَادِرْ إلى الأُولى وَإِلاَّ فَإِنَّني سَأَشْكُوكَ يَوْمَ الحَشْرِ لِلْمَلَكِ العَدْلِ

وله مع أخيه حادثة أخرى ، فرووا أنّه كان ينتظر وفود أخيه عليه من شنترين يوم الجمعة ، فأتاه يوم السبت . فلما لقيه عانقه وأنشده :

تَخَيَّرَتِ اليَهُودُ السَّبْتَ عِيداً وَقُلْنَا في العُروبَةِ يَوْمَ عِيدِ
فَلَمَّا أَنْ طَلَعْتَ السَّبْتَ فِينَا أَطَلْتَ لِسَانَ مُحْتَجِّ اليَهُودِ[2]

وله في يوم السبت أيضاً قوله :

وَحَبَّبَ يَوْمَ السَّبْتِ عِنْدِيَ أَنَّني يُنَادِمُني فِيهِ الَّذي أَنَا أَحْبَبْتُ
وَمِنْ أَعْجَبِ الأَشْيَاءِ أَنِّي مُسْلِمٌ حَنيفٌ ، وَلكنَّ خَيْرَ أَيَّامِيَ السَّبْتُ[3]

وذكر صاحب الحلّة السيراء أيضاً أنّه قرأ في كتاب الذخيرة أنّ الوزير أبا طالب بن غانم قال : خطَّ المتوكّلُ بهذين البيتين في ورقة ، بقلة الكرنب ، وقد كتب إليَّ بها من بعض البساتين ، وهما :

انْهَضْ أَبَا طَالِبٍ إِلَيْنَا وَاسْقُطْ سُقُوطَ النَّدَى عَلَيْنَا[4]
فَنَحْنُ عِقْدٌ بِغَيْرِ وُسْطَى مَا لَمْ تَكُنْ حَاضِراً لَدَيْنَا

وحكى غيره أنّه كتبها بطرف غصن .

---

(١) كان حقه أن يقول وقد كنت تشكو في ولكني وجدتها هكذا في الحلة السيراء ٢ / ١٠٤ - ١٠٥ .
(٢) انظر نفح الطيب ٣/٤٤٧ - ٤٤٨ .
(٣) انظر الحلة السيراء ٢/١٠٦ .
(٤) انظر الحلة السيراء ٢/١٠٧ واعلم أن عجز البيت الأول مستعار من شعر وضاح اليمن الشاعر الأموي وهو
«واسقط علينا كسقوط الندى ليلة لاناه ولا زاجر»

وكتب إليه وزيره وشاعره ابن عبدون وقد هطل المطر بعد قحط ، واتّفق أن وافى بطليوس حينئذ مغنٍ محسن يعرف بأبي يوسف :

أَلَمَّ أَبُو يُوسُفَ وَالمَطَرْ فَيَا لَيْتَ شِعْرِي مَا يُنْتَظَرْ
وَلَسْتَ بِآبٍ وَأَنْتَ الشَّهِيدْ حُضُورَ نَدِيِّكَ فِي مَنْ حَضَرْ

إلى آخر الأبيات .

فبعث إليه المتوكّل مركوباً ، وكتب معه :

بَعَثْتُ إِلَيْكَ جَنَاحاً فَطِرْ عَلَى خِفْيَةٍ مِنْ عُيونِ البَشَرْ
عَلَى ذُلَلٍ مِنْ نَتَاجِ البُروقِ وَفِي ظُلَلٍ مِنْ نَسِيجِ الشَّجَرْ
فَحَسْبِيَ عَمَّنْ نَأَى مَنْ دَنَا فَمَنْ غَابَ كَانَ فِدَى مَنْ حَضَرْ[1]

---

(١) انظر قلائد العقيان ٤٨ ـ ٤٩ والحلة السيراء ٢ /١٠٦ .

ملوك بني هود بسرقصطة

أحمد المقتدر

١ ـ حياته

٢ ـ شعره

أحمد المقتدر من بني هود
٤١٥ ـ ٤٣٥ ـ ٤٧٤ هـ/١٠٢٣ ـ ١٠٤٣ ـ ١٠٨١ م

١ ـ حياته :

ينتسب هودَ الجدُ الأكبر للدولة الهودية الذي دخل الأندلس ، ونسبهُ الأزدُ ، إلى سالم مولى حُذيفة بن اليمان ، فقال : هو هود بن عبدالله بن موسى بن سالم مولى حذيفة . وقيل غير ذلك ؛ فهود هذا من ولد روح بن زُنباع رئيس شرطة عبد الملك بن مروان[١] .

وكان أبو أيوب ، سليمان بن هود الجذامي ، قد استبدَّ بمدينة تطيلة ، التي ولاها منذ أول الفتنة[٢] .

وكان منذر بن مطرف بن يحيى بن عبد الرحمن بن محمد بن هاشم النجيبي صاحب الثغر الأعلى قد استغل الفتنة واستبد بسرقسطة والثغر وتلقب بالمنصور ، وهلك سنة ٤١٤ هـ وولي ابنه الذي تلقب بالمظفر . فتغلب سليمان بن هود على المظفر يحيى بن المنذر وقتله سنة ٤٣١ هـ وملك سرقسطة والثغر الأعلى ، وابنه يوسف المظفر على لاردة ، ثم نشأت الفتنة بينهما ، وانتصر المقتدر بالافرنج والبشكنس ، فجاءوا لميعاده فوقعت الفتنة بين المسلمين وبينهم ، وانصرفوا إلى

(١ و٢ و٣) عن تاريخ ابن خلدون ١٦٣/٤ .

يوسف صاحب لاردة ، فحاصرهم بسرقسطة وذلك سنة ٤٤٣ ، وتسلّم أحمد المقتدر حتّى هلك سنة ٤٧٤ هـ بعد حكم دام ٣٩ سنة فولّى ابنه يوسف المؤتمن ، الذي كان قائماً على العلوم الرياضية وله فيها تآليف ، ومات سنة ٤٧٨ هـ ، وهي السنة التي استولى فيها النصارى على طليطلة من يد القادر بن ذي النون . ثم ولي المستعين صاحب موقعة «وسقة» سنة ٤٨٩ هـ الشهيرة إلى أن هلك سنة ٥٠٣ هـ بظاهر سرقسطة في صدامه مع طاغية الإفرنج ، وولي بعده ابنه عبد الملك وتلقّب عماد الدولة ، إلى أن أخرجه الطاغية من سرقسطة سنة ٥١٢ هـ ، فنزل روطة وهي حصن من حصونها ، وأقام بها إلى أن هلك سنة ٥١٣ هـ وولى ابنه أحمد وتلقّب سيف الدولة والمستنصر ، وبالغ النكاية في طاغية الافرنج ، ثم سلم له روطة على أن يملّكه بلاد الأندلس . فانتقل معه إلى طليطلة بحشمة وآلته ، وهنالك هلك سنة ٥٣٦ هـ[3] .

٢ ـ شعره

كان المقتدر أحمد أشهر ملوك بني هود وأطولهم مدّة حكم . وكان عالما وشاعراً ، عظّم سلطة الدولة ، وعزّز جانبها ، وبنى القصور ، وشاد المباني ، ومما قاله في بعض هذه المباني التي شادها ، قوله :

قَصْرَ السُّرورِ ، وَمَجْلِسَ الذَّهَبِ ... بِكُما بَلَغْتُ نِهَايَةَ الأَرَبِ

لَوْ لَمْ يَحُزْ مُلْكِي خِلافَكُمَا ... كَانَتْ لَدَيَّ كِفَايَةَ الطَّلَبِ[4]

وقد روى المقّري في نفح الطيب عنه ، أنّه كان آية في علم النجوم والفلسفة والهندسة . وكان الشعراء يفدون إلى بلاطه ويمدحونه[5] .

---

(١) انظر نفح الطيب ٤٤٢/١ .

(٢) المرجع السابق الجزء الثالث .

وللمقتدر أشعار متناثرة في كتب الأدب كنفح الطيب وغيره ، منها ما قاله في غلام له اسمه يحيى ، تخلّق بالأدب والفضل ، وكان غاية في الحسن والجمال والظَرف . فعلق به قلبُ المقتدر ، فكتم المقتدر حبَّه زمناً حتى ضاق به ، فكتب إليه يقول :

يَـا ظَـبْـيُ بِـالله قُـلْ لي مَـتَى تُـرَى في حِـبَـالي
يَمُـرُّ عُـمْـري وَحَـالي في خَـيْـبَـتي مِـنْـكَ خَـالي

فكتب الغلام إليه في ظهر الرقعة :

إنْ كُنْتُ ظَبْياً فَأَنْتَ الـ ـهِـزَبْـرُ تَبْغي اغْتِيَـالي
وَلَـيْس يَخْـطُر يَـوْمـاً حُـلولُ غِـيـلٍ بِـبَـالي

وكتب بعدهما ما يفيد إخلاصه وحبّه الابتعاد عن العار ، وتركه مدَّة ، ثم كتب إلى الغلام يوماً ، يقول :

مَاذَا تَرَى في يَوْمِ أَمْنٍ طَرَّزَتْ حُلَلَ السَّحَابِ بِهِ البُروقُ المُذْهَبَهْ
وَأَنَـا وَكـأْسي لاَ جَليسٌ غَيْـرُهُ مَـلآنُ لاَ يَخْلو إلى أَنْ تَشْـرَبَـهْ
وَالأُنْسُ إنْ يَـسَّـرْتَـهُ مُـتَـيَسِّرٌ وَمَتى تُصَعِّبُهُ ، فَيَا مَا أَصْعَبَهْ

فأجابه الغلام :

يَـا مـالِكـاً بَـذَّ المُلوكَ بِعِلْمِـهِ وَخِـلاَلِـهِ وَعُـلُوِّهِ في المَـرْتَبَـهْ
وَافى نَداكَ ، فَجِئْتُ عِنْدَ جَوابِهِ إذْ مَـا تَضَمَّنَ رِيبَةً مُسْتَغْـرَبَـهْ
إنّـا إذَا نَخْلُو ، تَقَـوَّلَ حَـاسِـدٌ وَغَدا بِهَذا الأَمْـرِ يَنْصُرُ مَذْهَبَـهْ
هَبْني إلى يَوْم تَطيشُ بِهِ النُّهَى وَالبيضُ تُنْضى ، وَالقَنَـا مُتَأَشِّبَـهْ
وَهُنـاكَ فَـانْـظُرْني بِعَـيْنٍ بَصيـرَةٍ فَالشِّبْلُ يَعْرِفُ أَصْلَهُ ، مَنْ جَرَّبَهْ

وزعموا أنّه أعلاه إلى درجة الوزارة والقيادة ، لعفَّته وفصاحته وشجاعته ، إلى أن قتل في جيش كان قدمه عليه ، فقال فيه من قصيدة طويلة :

يَـا صَـارِمـاً أَغْـمَـدْتُـهُ عَـنْ نَـاظِـرَيَّ الصَّـوَارِمْ
وَزَهْـرَةً غَـيَّـبَـتْـهَـا مِـنَ الـطُّـيورِ كَـمَـائِـمْ
يَـا كَـوْكَـبـاً خَـرَّ مِـنْ أَنْجُمي ، وَأَنْفـي رَاغِـمْ
بَـكَـتْ عَـلَيَّ وَشَـقَّـتْ جُـيُـوبَهُـنَّ الـغَـمَـائِـمْ
قُـلْ لِـلْـحَـمَـائِـم إِنِّي أَصْبَحْتُ أَحْكي الحَمَـائِمْ
وَانْـثُرِ الـدَّمْـعَ مَـهْـمَا رَأَيْـتَ لِـلزَّهْـرِ بَـاسِـمْ
تَـاللهِ لاَلَـذَّ عَـيْشٌ لِمُـتْـرَفٍ لَـكَ عَـادِمْ[1]

---

(١) انظر نفح الطيب ٣/٥٦١ ـ ٥٦٣ .

ملوك بني حمود بقرطبة

١ ـ علي بن حمود (الناصر لدين الله)
٢ ـ القاسم بن حمود (المأمون)
٣ ـ يحيى بن علي بن حمود (المقتلي بالله)

علي بن حمود الملقب بالناصر لدين الله
٣٥٤ ـ ٤٠٨ هـ/ ٩٦٥ ـ ١٠١٨ م

ولد علي بن حمود ، بن ميمون بن أحمد الإدريسي الحسني العلوي بقرطبة سنة ٣٥٤ هـ ، ونشأ في جملة أجناد الخليفة الأموي سليمان بن الحكم الثاني بن عبد الرحمن الناصر (٣٥٤ ـ ٤٠٧ هـ) . ولّاه سليمان مدينتي سبتة وطنجة سنة ٤٠٣ هـ . فكاتب العصاة من أهل البادية ، فبايعوه بالخلافة ، ولقب نفسه «بالناصر لدين الله» ، وزحف بهم إلى قرطبة ، فدخلها عنوة ، بعد قتال شديد ، وقبض على الخليفة سليمان بن الحكم وأبيه الحكم بن عبد الرحمن الناصر ، فقتلهما بيوم واحد بتاريخ ٢١ محرم ٤٠٧ هـ ، وأصبح أول ملوك الدولة الحمودية[١] .

استتب له الأمر سنة وعشرة أشهر على عرش قرطبة حتى دخل عليه ثلاثة من صقالبته وهو في حمام قصره فقتلوه ، لأنه تقرب من البربر ومعاداته لأهل قرطبة الذين عادوا فأيدوا إعادة تنصيب أحد أبناء الأسرة الأموية في شرق الأندلس ، ألا وهو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر الأموي ، وبايعوه خليفة على قرطبة[٢] .

(١) ابن الأثير ٩٢/٩ والمغرب في حلى المغرب ١١٣/٣ ـ ١١٩ .
(٢) الذخيرة لابن بسام ٨٧/١ من القسم الأول والأعلام للزركلي ٢٨٣/٤ .

القاسم بن حمود الملقب بالمأمون
٣٥١ ـ ٤٣١ هـ/ ٩٦٢ ـ ١٠٤٠ م

ولد القاسم بن حمود بن ميمون بن أحمد الإدريسي الحسني بقرطبة سنة ٣٥١ هـ ، ونشأ في أجناد الخليفة الأموي سليمان بن الحكم ، مثل أخيه علي بن حمود أول ملوك الدولة الحمودية بقرطبة . ولّاه سليمان بن الحكم على الجزيرة الخضراء . وثار أخوه علي بن حمود على سليمانَ ، فملك الأندلس وبويع بالخلافة . فأقام القاسم إلى أن توفي أخوه علي سنة ٤٠٨ هـ ، فولي الخلافة بعده ، وأصبح ثاني ملوك الدولة الحمودية بقرطبة ، واستقر فيها ، وحسنت سيرته ، وأمنَ الناس في أيامه ، وتلقب بالمأمون[1] .

وفي هذه الأثناء بدأ الخليفة الأموي المرتضىٰ يجمع أعوانه ، وسار بهم نحو قرطبة وذلك سنة ٤٠٩ هـ ، ولكنهم مرّوا في طريقهم على غرناطة ليقضوا على أمرائها من بني صنهاجة ، إلّا أن زاوي بن زيري أمير غرناطة الصنهاجي استطاع القضاء على الخليفة المرتضىٰ وأعوانه ، بعد أن خانه حليفاه ؛ منذر التجيبي ، وخيران الصقلبي ، وفرَّا من المعركة ، فركن هو إلى الفرار أيضاً ، ولكن بعض جنود خيران قبضوا عليه قرب وادي آش ، فقتلوه وأتوا برأسه فكان في ذلك نهاية دعوته[2] .

---

(١) الأعلام للزركلي ١٧٥/٥ .

(٢) نفح الطيب ٣٥/٢ ، والبيان ١٢٧/٣ .

لكن الأقدار لم تهادن الخليفة القاسم ، فإذا فشلت حملة المرتضىٰ ، فإنها أبت أن تمتعه بذلك طويلاً ، فقد ثار عليه في سبته يحيى بن حمود ـ ابن أخيه ـ وجاز البحر إلى الأندلس ثم وصل إلى مالقة حيث كان أخوه إدريس ، ومنها خاطب بربرَ قرطبة فلاقى منهم ترحيباً ، فسار إليها ، وانفض البربر عن القاسم ، ففر إلى إشبيليا ، ثم دخل يحيى قرطبة في ٣٠ ربيع الثاني سنة ٤١٢ هـ/ ١٣ آب ١٠٢١ م بعد أن دامت خلافة القاسم ثلاث سنوات وخمسة أشهر وعشرون يوماً .

أقام القاسم بإشبيلية مدةً ، وجمع بها شتاته ، واستمال طوائف من البربر هاجم بهم قرطبة ، فدخلها سنة ٤١٣ هـ ، وخلال خلافة القاسم بن حمود الثانية هذه تسلط البربر على أهل قرطبة لما بينهم من العداء ، فثار أهل قرطبة ضد خليفتهم في أوائل العام التالي ، فأمر هذا بإغلاق أبواب المدينة لمنع وصول الإمدادت للثوار ، كما أمرَ البرابرة بقمع الثورة ، وهكذا نشبت بين الفريقين معركة حامية الوطيس دامت خمسين يوماً[1] ، وانتهت بإنتصار أهل قرطبة . وعلى أثر ذلك اضطر الخليفة القاسم بن حمود إلى الهرب في ٢١ جمادى الثاني سنة ٤١٣ هـ/ ٩ أيلول سنة ١٠٢٣ م متجهاً إلى إشبيلية حيث ولداه هناك . ولكن القاضي محمد بن إسماعيل بن عبّاد أغلق أبواب المدينة في وجهه بعد أن أرسل له ابنيه . فالتجأ إلى شريش ، لكن ابن اخيه يحيى لاحقه وحاصره واضطره إلى التسليم ، وحمله مع ابنيه مقيدين إلى مالقة ، حيث قتله هناك خنقاً في السجن بعد ثلاث عشرة سنة وذلك سنة ٤٣١ هـ/ ١٠٤٠ م فكانت مدة خلافة القاسم الثانية سبعة أشهر وأياماً[2] .

---

(١) سير النبلاء . ابن الأثير ٩٤/٩ . وجذوة المقتبس ٢٢ والذخيرة لابن بسام ١٢/٢ .
(٢) البيان المغرب ٣٤/٢ لابن عذاري المراكشي .

يحيى بن علي بن حمود بن أخي القاسم «المعتلي بالله»
٣٨٥ ـ ٤٢٧ هـ/ ٩٩٥ ـ ١٠٣٥ م

اعتلى يحيى بن أخي القاسم مكان عمه القاسم سُدَّةَ الخلافة بقرطبة في ٣٠/٤/٤١٢ هـ/ ١٣/٨/١٠٢١ م ، وتلقب بالمعتلي بالله ، وحظي على موافقة البربر وأهل الأندلس على خلافته ، واكتسب سمعة طيبة لدى أهل قرطبة .

ولكن عمه القاسم بن حمود الذي هرب إلى أشبيلية ، استمال أهلها حتى بايعوه بالخلافة في مدينتهم . وهكذا وُجِدَ في الأندلس في ذلك الحين خليفتان في وقت واحد ، مما يدل على مدى الإنحلال الذي وصلت إليه الحكومة في العاصمة وقرطبة حينذاك .[١]

ولكن أهل قرطبة الذين اعتادوا على الثورات وعلى تغيير الخلفاء ، سارعوا إلى خلع طاعة يحيى وعادوا إلى دعوة عمه القاسم . فاضطر يحيى إلى الفرار إلى مالقة في ١٢/١١/٤١٣ هـ الموافق ٦/٢/١٠٢١ م فكانت مدة خلافته سنة وستة أشهر وأربعة عشر يوماً[٢] .

---

(١) تاريخ العرب في إسبانيا ملوك الطوائف للدكتور خالد الصوفي ص ٢٠ .
(٢) المرجع السابق ص ١٩ .

وفي ١٦/رمضان/٤١٦ هـ الموافق ١٠٢٥/١١/٩ عاد يحيى بن حمود هذا فبايعه الناس وتسلم عرش الخلافة من جديد ، بعد أن شغر بقتل الخليفة الأموي الخامس عشر «محمد بن عبد الرحمن بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر» سنة ٤١٦ هـ . فبايعه الناس ، ولم تطل إقامة يحيى بن حمود في العاصمة قرطبة . لأنه كان يخشى القرطبيين وإنقلابهم عليه ، فغادرها عائداً إلى مالقة ، تاركاً في العاصمة وزيره وكاتبه أبا جعفر أحمد بن موسى . وكان ذلك آخر عهده بقرطبة . ولم تزد مدة خلافته الثانية عن ثلاثة أشهر واثنين وعشرين يوماً[1] .

وكان يحيى هذا وقد ولد في قرطبة سنة ٣٣٥ هـ ونشأ في دولة أبيه علي بن حمود بقرطبة . وعندما توفي أبوه علي بن حمود سنة ٤٠٨ هـ بايع الناس لعمه القاسم بن حمود ، فأقام يحيى بمالقة يتربص الفرص . فبلغه سنة ٤١٢ أن عمه القاسم سار إلى أشبيلية ، فخالفه يحيى في الطريق ودخل قرطبة ، ودعا الناس إليه ، فبايعوه ، وتلقب بالمعتلي بالله .

ثم عاد القاسم من أشبيلية ، فاحتل قرطبة سنة ٤١٣ هـ ، وخرج يحيى إلى مالقة ، ومنها إلى الجزيرة الخضراء ، فغلب عليها . وحدثت أمور انتهت بعودة المُلك إليه بمالقة سنة ٤١٥ هـ ، ثم ضم إليها العاصمة قرطبة سنة ٤١٦ هـ ، ثم انتزعت منه قرطبة ثانية ولم ترجع بعد ذلك لأحد من بني حمود ، وأصبحت تابعة لحكومة بني عبّاد . وانحصر ملك يحيى بمالقة وشريش والمرية وسبتة . وأقام في قرمونة طامعاً في أخذ إشبيلية ، فجهز القاضي محمد بن إسماعيل بن عبّاد جيشاً خرج من إشبيلية وفاجأ أسوار قرمونة ليلاً ، فنهض يحيى المعتلي بالله على غير أهبة ، وقيل : وهو سكران ، فاندفع إلى خاج السور في نحو ثلاثمئة من فرسانه ،

---

(١) تاريخ العرب في إسبانيا ملوك الطوائف للدكتور خالد الصوفي ص ٢٠ ـ ٢١ .

فنشبت المعركة . وكان المهاجمون قد أعدوا كميناً قرب السور ، فبرز الكمين ، ويحيى يقاتل في مقدمة رجاله ، وأحاطت به الجموع ، فصرع وحزّ رأسه وأرسل إلى ابن عباد في إشبيلية[1] . وذلك سنة ٤٢٧ هـ .

«وكان آل عباد يحفظون رؤوس العظماء من قتلى أعدائهم ، ولمّا ذهبت دولتهم أخرجت تلك الرؤوس ، فوجد فيها رأس يحيى بن حمود ، غير متغير ، فأخذه بعض أحفاده ودفنوه»[2] .

---

(١) الأعلام للزركلي ١٥٧/٨ .
(٢) البيان المغرب ١٣١/٣ ـ ١٤٤ ـ ١٨٨ وانظر الذخيرة لابن بسام ١/ ٢٧١ـ ٢٧٢ وابن الأثير ٩٤/٩ ـ ٩٥ .

ملوك بني عباد بإشبيلية

١ ـ بنو عباد بإشبيلية

٢ ـ محمد بن اسماعيل بن عباد

ـ حياته

ـ شعره

٣ ـ المعتضد بن محمد بن عباد

ـ حياته

ـ شعره

٤ ـ المعتمد بن عباد

ـ حياته

ـ شعره



١ ـ بنو عبّاد بإشبيلية
٤١٤ ـ ٤٨٤ هـ/ ١٠٢٣ ـ ١٠٩١ م

ظهرت دولة بني عبّاد إلى الوجود بفضل زعيم كريم منهم ، كان من أهل الثروة والجاه والفقه والأدب والعلم ، فقد اتصل جدّهم هذا واسمه إسماعيل بن عبّاد بالحاجب المنصور بن أبي عامر ٣٦٦ ـ ٣٩٣ هـ في عهد الخليفة الأمويّ هشام بن الحكم بن عبد الرحمن ٣٦٦ ـ ٣٩٩ هـ ، فعيَّنه على القضاء بقرطبة ، وظلّ في منصبه هذا إلى زمن انقراض الدولة الأمويّة بالأندلس ٤٢٢ هـ[١] .

وحين استعان الخليفة الأمويّ المستعين بالله ٤٠٠ ـ ٤٠٧ هـ ببني حمّود ، استطاع القاسم بن حمود الإستيلاء على إشبيلية سنة ٤٠٧ هـ ، وجعل ابن هذا القاضي محمّد بن اسماعيل مكان أبيه ، واستظهر به على مهمّات تلك المدينة لِمَحلِّهِ من الجلالة ووفور المال . فلما كان عصر الفتنة استخلص محمّد بن إسماعيل هذا لنفسه لقب السيادة على إشبيلية سنة ٤١٤ هـ[٢] .

وكان بنو عباد أعظم ملوك الطوائف ، وأفسحهم ملكاً ، وأبعدهم صيتاً ،

---

(١) انظر قصة الأدب في الأندلس لمحمد عبد المنعم خفاجي القسم الأول ٦٨ .
(٢) انظر الحلة السيراء ٢/٣٥ ـ ٣٦ ، ومقدمة ديوان المعتمد بن عباد ١ ـ ٢ .

وأكثرهم ذكراً في التاريخ والأدب ، وقد ملكوا إشبيلية وقرطبة .

قامت دولتهم في إشبيلية سنة ٤١٤ هـ ، ثم اتسعت فاستولت على ملك بني حمود في الجزيرة سنة ٤٥٠ هـ ، وعلى ملك بني جهور في قرطبة سنة ٤٦١ هـ ، وامتدت حتى شملت مرسية في الشرق .

ودامت دولة بني عباد سبعين سنةً ، تولّاها منهم ثلاثة :

- أبو القاسم محمد بن عباد واستمر حكمه تسع عشرة سنة ٤١٤ - ٤٣٣ هـ .

- وابنه أبو عمر عباد الملقب بالمعتضد وملك ثمانيا وعشرين سنة ٤٣٣ - ٤٦١ هـ .

- وابن هذا أبو القاسم محمد بن عباد الملقب بالمعتمد وملك ثلاثاً وعشرين سنة ٤٦١ - ٤٨٤ هـ[١] .

---

(١) انظر مقدمة ديوان المعتمد بن عباد للدكتور عبد الوهاب عزام .

٢ ـ محمد بن إسماعيل بن عباد
٣٦٠ ـ ٤٣٣ هـ/ ٩٧٠ ـ ١٠٤٢ م

حياته :

هو محمد بن إسماعيل بن عباد ، من بني عطاف بن نعيم اللخمي ، من نسل ملك الحيرة النعمان بن المنذر ، كنيته أبو القاسم ، ويقال له القاضي ابن عباد . وهو مؤسس الدولة العبادية في إشبيلية بالأندلس . أصله من العريش ببلاد الشام ، وأول من دخل الأندلس من أسلافه نعيم وعطاف . وكان أبو القاسم في بدء أمره قاضياً بإشبيلية ، أيام إستيلاء القاسم بن حمود ٤٠٨ ـ ٤١٢ هـ عليها بعد زوال دولة الأمويين . ثم استقل بها ، وتلقب بالظافر ، وتملك قرطبة وغيرها .

وعلم بخبر شخص في قلعة رباح ، كما قال ابن حزم ، واسمه خلف الحصري يزعم أنه هشام بن الحكم الأموي (٣٤٦ ـ ٣٩٩ هـ) الملقب بالمؤيد ، وأنه لم يقتل كما قال الناس ، وإنما اختفى فاراً حتى تلك السنة ٤٠٣ هـ . فاستدعاه إليه وشهد بعض من بقي من نساء القصر والخدم أنه هو هشام ، وكان شبيهاً به ، فبايعه بالخلافة ، وحفّه بمظاهرها سنة ٤٢٦ هـ ، وسمى نفسه حاجباً له ، فقوي به أمره ، وانتعشت دولته ، وانقطعت أطماع ملوك الطوائف عنها ، ودعاهم إلي بيعة «المؤيد» فأجاب أكثرهم .

واستمر أبو القاسم في الحكم إلى أن توفي سنة ٤٣٣ هـ/ ١٠٤١ م . وكان عاقلاً مهيباً كريم اليد ، وجاء في بغية الملتمس : «كان له إطلاع على الأدب ، يشارك الشعراء والبلغاء في صنعة الشعر وحوك الرسائل ، ويلقب بالقاضي ذي الوزارتين . وهو وبنوه وذووه رياض أداب وعلوم»[1] .

ثم أعلن محمّد بن إسماعيل بن عبّاد نفسه ملكاً على إشبيلية ، وانتحل لقب أمير المؤمنين ، إذْ لم يكن هناك من ينازعُه على الإمامة في ذلك العهد . ويعود نسب بني عبّاد إلى النعمان بن المنذر بن ماء السماء أحد ملوك الحيرة اللخميّين[2] . وكان جدُّهم الأكبر قد وفد إلى الأندلس مع جيش الشام من أهل حمص ، وقيل من أهل العريش انظر الأعلام للزركلي ٣٥/٦ ، وذلك بعد الفتح لتلك البلاد بزمن يسير . وقد أشار المعتمد حفيده في شعره إلى نسبهم اللخميّ مفتخراً حين قال في دفاعه عن حوزة ملكه :

ما سرت قط إلى القتال ، وكان من أملي الرجوع
شيم الأولى أنا منهم والأصل تتبعه الفروع[3]

وقال شاعرهم ابن اللبانة مشيداً بشرف نسبهم :

نفر إلى ماء السماء نماهم نسب على أوج النجوم مخيم[4]

وقال فيهم أيضاً في قصيدة أخرى :

تردهم نسبةٌ نحو السماء فهم من مائها وعلاهم من دراريها[5]

---

(١) انظر الأعلام لخير الدين الزركلي ٣٥/٦ .
(٢) مطمح الأنفس ١٠ والحلة السيراء ٣٥/٢ .
(٣) انظر نفح الطيب ١٤/٦ وديوان المعتمد ٨٩ .
(٤) المرجع السابق .
(٥) انظر رسالة هلدا شعبان ٢٣ وديوان المعتمد بن عباد .

وقال شاعر آخر فيهم :

من بني المنذرين وهو إنتساب زاد في فخره بنو عباد
فئة لم تلد سواها المعالي والمعالي قليلة الأولاد[1]

وكان محمّد بن إسماعيل شاعراً جزلاً ، ذكر له صاحب الحلّة السيراء بعضاً من شعره . وروي أنّه سار مسيرة أصحاب الممالك المجاورين له في الأندلس ، وأقبل يضمُّ إليه الأحرار من كلِّ صنف ، ويشتري العبيد ، إلى أن ساوى ملوك الطوائف وزاد على أكثرهم بكثافة سلطانه ، وكثرة غلمانه .

شعره . .

قلنا : إنّ محمّد بن إسماعيل كان شاعراً ، له إسهامات في أكثر من فنّ شعريّ ، ففي الفخر قال مفتخراً بنفسه وعلوّ همته :

وَلَابُدَّ يَوْماً أَنْ أَسُودَ عَلَى الوَرَى وَلَوْ رُدَّ عَمْرُوٌ لِلزَّمَانِ وَعَامِرُ
فَمَا المَجْدُ إلَّا في ضُلوعيَ كَامِنٌ وَلَا الجُودُ إلَّا مِنْ يميِنيَ ثَائِرُ
فَجَيشُ العُلَا مَا بَيْنَ جَنْبَيَّ جَائِلٌ وَبَحْرُ النَّدَى مَا بَينَ كَفَّيَّ زَاخِرُ[2]

وجاء في مطمح الأنفس ومسرح التأنس للفتح بن خاقان قوله فيه : إنّه كان له أدب غضّ ، ومذهب مبيضّ ، ونظم يرتجله كلَّ حين ، ويبعثه أعطرَ من الرياحين . من ذلك قوله يصف النيلوفر :

يَا نَاظِرِينَ لِذا النَّيْلَوْفَرِ البَهِجِ وَطيبِ مَخْبَرِهِ في الفَوْحِ وَالأَرَجِ
كَأَنَّهُ جَامُ دُرٍّ في تَأَلُّقِهِ قَدْ أَحْكَمُوا أَوْسَطَهُ فَصَاً مِنَ السَّبَجِ[3]

---

(١) انظر نفح الطيب ١٠٦/٦ والحلة السيراء ٣٥/٢ .

(٢) انظر الحلة السيراء ٣٨/٢ .

(٣) المرجع السابق ٣٩/٢ ومطمح الأنفس ومسرح التأنس للفتح بن خاقان صفحة ١١ .

وله في الغزل مقطوعات كثيرة ، وقد ذكر له ابن لأبّار في الحلّة السيراء وصفه للياسمين قوله :

وَيَاسَمِينٌ حَسَنُ المَنْظَرِ   يَفُوقُ في المَرْأى وَفي المَخْبَرِ
كَأَنَّهُ مِنْ فَوْقِ أغْصَانِهِ   دَراهِمٌ في مِطْرَفٍ أَخْضَرِ[1]

(١) الحلة السيراء ٢/٣٨ .

٣ ـ المعتضد بن محمّد بن عبّاد
٤٣٣ ـ ٤٦١ هـ/١٠٤٢ ـ ١٠٦٩ م

حياته :

هو عبّاد بن محمد بن إسماعيل ، بن عباد اللخمي ، أبو عمرو ، الملقب بالمعتضد بالله . ولد في إشبيلية عام ٤٠٤ وتربى في كنف أبيه القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد . ثم أصبح يقود جيش أبيه لقتال بني الأفطس وغيرهم . ولي الأمر بعد وفاة أبيه سنة ٤٣٣ هـ فتلقب كأبيه بالحاجب ، وأبقى الخطبة في إشبيلية وأكثر الكورة باسم المؤيد بالله وحجبه عن الناس حتى أعلن أنه قد مات سنة ٤٥١ هـ ، فأخذ البيعة لنفسه . . . وطالت مدة حكمه قرابة الثمانية والعشرين عاماً ، إلى أن توفي في إشبيلية بالذبحة الصدرية سنة ٤٦١ هـ[1] .

تسلَّم المعتضد الخلافة بعد أبيه ، ولم يكن أقلَّ حزماً أو حنكة من أبيه ، إذ استطاع بدوره أن يوسِّع مملكته إشبيلية ، ويستولي على كثير من الولايات التي تجاوره ، ولاسيّما تلك التي كان يحكمها البربر .

وعظم شأن المعتضد بحيث أصبح أعظم ملوك الطوائف في الأندلس في

(١) انظر البيان المغرب ٣/٢٠٤ ـ ٢٨٥ . وسير النبلاء المجلد ١٥ . ووفيات الأعيان ٢/٢٨ ، وفي المعجب ٥٨ ـ ٦٢ وفيه وفاته سنة ٤٦٤ هـ وكذلك في شذرات الذهب ١/٣١٦ ، وفوات الوفيات ١/١٩٩ .

عصره . فقد ابتنى القصور ، وشاد الأبنية الفخمة ، واقتنى الأعلاق النفيسة ، وارتبط الجياد الكريمة ، واستخدم الخدم والخول ، وكان فوق ذلك كلفاً بالنساء ، فاستوسع في إتخاذهنّ ، وخلط في أجناسهنّ ، وانتهى في ذلك إلى مدى لم يبلغه أحد من نظرائه . حتى قيل إنّه خلف من السرّيات خاصّة نحواً من سبعين جارية ، بل بالغوا فذكروا أنّه كان في حريمه نحو ثمانمئة جارية[1] .

وكان المعتضد ذا سطوة ، بطّاشاً شديداً في حكمه ، قاسياً مستهيناً بالدماء ، حتّى زعموا أنّه كان بباب داره حديقة فيها شجر ، زَيَّنَ أغصانها برؤوس ضحاياه . ورووا أنّه استدعى طائفة من زعماء البربر ، وأضافهم وفتك بهم في داره ، وزيّن حديقته برؤوسهم فأضحت كأنّها تثمر الرؤوس ، وكان يقول : في مثل هذا البستان فليتنزه[2] .

وذكروا أنّه دخل عليه مرَّةً غلام دون إستئذان ، فقطع رأسه . وسمع جارية في القصر تقول : واللهِ القبرُ أحسنُ من سُكنَى هذا القصر . فقال : والله لأبلغنَّكِ ما طلبته ، وأمر بها فدفنت حيّة[3] .

وذكروا أنه خذلَه أحدُ أبنائه في بعض المهمّات الحربية ، وثار عليه فأخضعه وصفح عنه ، ثم ثار عليه ثانية ، فلم يعف عنه بل استصفى أمواله ، وقتله صبراً بين يديه . فلم يبق أحد من خاصّته إلّا وهابه[4] وذلك سنة ٤٤٩ هـ وقتل الوزير الذي تواطأ معه .

---

(١) انظر الملوك الشعراء للدكتور جبرائيل جبور ، وملوك الطوائف لدوزي ترجمة كامل كيلاني ١٤٧ ـ ١٥٧ حيث ينقل المترجم عن كتاب الذخيرة لابن بسام .

(٢) انظر للعجب ٩٦ ـ ٩٧ .

(٣) انظر الملوك الشعراء للدكتور جبرائيل جبور ٤٦٣ وفوات الوفيات ٢٥٤/٢ .

(٤) انظر المعجب صفحة ٩٧ .

إلى جانب هذه الصفات ، هناك جوانب أخرى تستحقُّ منّا الإهتمام في حياة هذا الرجل العظيم ، هي رعايته للشعر ، ومناصرته للأدب . وقد كان هو نفسه شاعراً وأديباً ، جمع حوله أشهر الشعراء في ذلك العصر ، وأصبح بلاطه منتدى للأدب في إشبيلية ، كما كان بلاط الحمدانيّين في حلب قبل قرن من الزمن . وجعل للشعراء في قصره داراً مخصوصة بهم ، ويوماً مخصوصاً لهم يفدون فيه عليه ، ولا يدخل غيرهم فيه ، فيطارحهم الشعر ، ويستمع إليهم ، ويسبِّق بينهم الجوائز .

وله هو نفسه كما سنرى مقطوعات من الشعر ذكرها ابن الأبّار ، فيها طلاوة وجمال وذكر ابن الأبّار أيضاً أنّ إسماعيل بن أخي المعتضد عني بشعر عمّه فجمعه في ديوان[1] . والظاهر أنّ هذا الديوان ضاع فيما ضاع من نفائس الكتب .

وقال ابن خلِّكان يصفه : إنّه أوتي من جمال الصورة ، وتمام الخلقة ، وفخامة الهيئة ، وسياطة البنان ، وثقوب الذهن ، وحضور الخاطر ، وصدق الحدس ، ما فاق على نظرائه . ونظر مع ذلك في الأدب بأذكى طبع حصل ، لثقوب ذهنه على قطعة وافرة عَلِقَها من غير تعمُّد لها ولا إمعانٍ في غمارها . . . وقرض قطعاً من الشعر وهي في معانٍ أمدَّته فيها الطبيعة وبلغ فيها الإرادة واكتتبها الأدباء للبراعة ، جمع هذه الخلال الظاهرة ، إلى جود كفٍ بارَىٰ السحاب بها[2] .

وقال ابن حيّان عنه : إنّه كان في زمنه رجل غرب الأندلس قاطبة ، فقد استطاع أن يقضي على إمارة الحموديّن ، ويستقلّ بأمر إشبيلية ، وأخذ يضمُّ إليه الأحرار من كلّ صنف ويشتري العبيد .

---

(١) انظر الحلة السيراء ٤٣/٢ وتاريخ العرب ٦١٩ .

(٢) انظر شذرات الذهب ٣١٦/٣ والحلة السيراء ٤٢/٢ .

ولم يزل في عزٍّ سلطانه حتى أصابته علّة الذبحة ، فلم تطل مدّتها ، ولّما أحسّ بتداني حِمامه استدعى مغنيًّا يغنيّه ، فكان أوّل ما غنى فيها زعموا :

نطوي الليالي عِلماً أنْ ستطوينا فشعشعيها بماء المزن واسقينا(٥)

شعره . .

كان المعتضد شاعراً نابهاً رغم المشاغل الجسام التي كان يشغلها ، ويروى أنّ والده محمّد بن إسماعيل بعث إليه رقعةً يعاتبه فيها ، فوقّع المعتضد ردّاً على عتاب والده :

فَـرَرْتُ بِنَفْسِي أَبْتَغِي فُرْجَـةً لَهَا عَلَى أَنَّ حُلْوَ العَيْشِ بَعْدَكَ صَابُ
وَمَـا هَزَّنِي إلَّا رَسُـولُـكَ دَاعِياً فَقُلْتُ : أَمِـيرُ المُؤْمِـنِينَ مُجَـابُ(١)

وقد طرق المعتضد أبواب الشعر كلِّها ؛ من فخر ، ونسيب ووصف ، وغزل ، وشراب وإخوانيّات وغيرها . ومن شعره في الفخر بالشجاعة والجود ، قوله :

حَمَيْتُ ذِمَارَ المَجْدِ بِالبِيضِ وَالسُّمْرِ وَقَصَّرْتُ أَعْمَارَ العُدَاةِ عَلَى قَسْرِ(٢)
وَوَسَّعْتُ سُبُلَ الجُودِ ، طَبْعَاً وَصَنْعَةً لِأَشْيَاءَ فِي العَلْيَاءِ ، ضَاقَ بِهَا صَدْرِي
فَلَا مَجْدَ لِلإِنْسَانِ مَا كَانَ ضِدُّه يُشارِكُهُ فِي الدَّهْرِ ، بِالنَّهْيِ وَالأَمْرِ(٣)

وتظلُّ القيم الفخريّة المعروفة ، الشجاعه ، والكرم ، والصبر على الخطوب ، والنفس الأبيّة التي تروم المجد والسؤدد ، ديدنه في الفخر ، يقول :

رَعَى الله حَالَيْنَا ، حَدِيثاً وَمَاضِيَا وَإِنْ كُنْتُ قَدْ جَرَّدْتُ عَزْمِيَ مَاضِيَا

---

(١) انظر الحلة السيراء لابن الأبار ٢/٤٦ .
(٢) البيض : السيوف ، والسمر : الرماح .
(٣) المرجع السابق ٢/٤٣ .

فَمَا لِلَّيَالِي لاَتَزَالُ تَرُومُنِي وَيَرْمِينَ مِنِّي صَائِبَ السَّهْمِ قَاضِيَا
وَقَدْ عَلِمَتْ أَنَّ الخُطُوبَ تَطُوعُنِي وَمَازِلْتُ مِنْ لُبْسِ الدَّنِيَّاتِ عَارِيَا
أُجَدِّدُ فِي الدُّنْيَا ثِيَاباً جَدِيدَةً يُجَدِّدُ مِنْهَا الجُودُ مَا كَانَ بَالِيَا
فَمَا مَرَّ بِي بُخْلٌ بِخَاطِرِ مُهْجَتِي وَلاَ مَرَّ بُخْلُ النَّاسِ قَطُّ بِبَالِيَا
أَلاَ حَبَّذا فِي المَجْدِ إِتْلافُ طَارِفِي وَبَذْلِيَ عِنْدَ الحَمْدِ نَفْسِي وَمَالِيَا[1]

وله في الشراب قوله :

شَرِبْنَا وَجَفْنُ اللَّيْلِ يَغْسِلُ كُحْلَهُ بِمَاءِ الصَّبَاحِ وَالنَّسِيمُ رَقِيقُ
مُعَتَّقَةً كَالتِّبْرِ ، أَمَّا بُخَارُهَا فَضَخْمٌ ، وَأَمَّا جِسْمُها فَدَقِيقُ[2]

وقال في الشراب مقطوعة ، يقسم بها حياته بين اللَّذات واللهو وبين ساحات المجد والرئاسة التي يطمح إليها ، فيقول :

لَعَمْرُكَ إِنِّي بِالمُدَامَةِ قَوَّالُ وَإِنِّي لِمَا يَهْوَى النَّدامي لَفَعَّالُ
قَسَمْتُ زَمَانِي ، بَيْنَ كَدٍّ وَرَاحَةٍ فَلِلرَّأْيِ أَسْحَارٌ ، وَلِلطِّيبِ آصَالُ
فَأُمْسِي عَلَى اللَّذاتِ وَاللَّهْوِ عَاكِفاً وَأُضْحِي بِسَاحَاتِ الرِّئَاسَةِ أَخْتَالُ
وَلَسْتُ - عَلَى الإِدْمَانِ - أُغْفِلُ بُغْيَتِي مِنَ المَجْدِ ، إِنِّي فِي المَعَالِي لَمُحْتَالُ[3]

وله في الحثِّ على الشراب ، قوله :

اشْرَبْ عَلَى وَجْهِ الصَّبَاحِ وَانْظُرْ إلى نُورِ الأَقَاحِ
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ جَاهِلٌ مَا لَمْ تَقُلْ بِالاصْطِبَاحِ
فَالدَّهْرُ شَيْءٌ بَارِدٌ مَا لَمْ تُسَخِّنْهُ بِرَاحِ[4]

---

(١) انظر الحلة السيراء ٤٣/٢ - ٤٤ .
(٢) الحلة السيراء ٤٩/٢ .
(٣) المرجع السابق ٤٩/٢ ونفح الطيب ٢٤٢/٤ - ٢٤٣ .
(٤) انظر نفح الطيب ٢٤٣/٤ .

ومن شعره في الوصف الرائق ، والتشبيهات البديعه ، التي تذكر بالشاعر ابن المعتزّ العبّاسيّ ، قوله في الياسمين :

يَا حَبَّذَا اليَاسَمِينُ إذْ يُزْهِرُ ... فَوْقَ غُصونٍ رَطيبَةٍ نَضِرْ
قَدْ أمْتَطَى لِلْجِبَالِ ذَرْوَتَهَا ... فَوْقَ بِسَاطٍ مِنْ سُنْدُسٍ أَخْضَرْ
كَأنَّهُ وَالعُيُونُ تَرْمُقُهُ ... زُمُرُّدٌ في خِلالِهِ جَوْهَرْ[1]

وله حين استولى على «رندة» وأصبحت في ملكه ، قوله :

لَقَدْ حَصَلْتِ يَا رَنْدَهْ ... فَصِرْتِ لِمُلْكِنَا عِدَّهْ
أَفَادَتْنَاكِ أَرْمَاحٌ ... وَأَسْيَافٌ لَهَا جِدَّهْ
سَأُفْنِي مُدَّةَ الأَعْدَا ... ءِ ، إنْ طَالَتْ بِيَ المُدَّهْ
وَتَبْلَى بِي ضَلالَتُهُمْ ... لِيَزْدادَ الهُدَى جِدَّهْ
فَكَمْ مِنْ عِدَّةٍ قَتَّلْـ ... ـتُ مِنْهُمْ بَعْدَهَا عِدَّهْ
نَظَمْتُ رُؤوسَهُمْ عِقْداً ... فَحَلَّتْ لَبَّةَ السَّدَّهْ[2]

أما في النسيب فله باع طويل ، وفي الأبيات التالية يتحدَّث عن دلّ الحبيب وجوره ، والغيرة التي يبتلى بها العشّاق والمحبُّون ، ولا يخفُّ إلاّ للقاء الحبيب أما في بقيّة الأمور فهو وقور ، يقول :

يَجُورُ عَلَى قَلْبِي هَوىً ، وَيُجِيرُ ... وَيَأْمُرُنِي أَنَّ الحبيبَ أَمِيرُ
أَغَارُ عَلَيْهِ مِنْ لِحَاظِي صِيَانَةً ... وَأُكْرِمُهُ ، إنَّ المُحِبَّ غَيُورُ
أَخِفُّ عَلَى لُقْيَا الحَبيبِ وَإِنَّنِي ... لَعَمْرُكَ في جُلِّ الأُمورِ غَيُورُ[3]

وله في تذكّر الحبيب وشوقه إليه ما يصلي فؤاده بسعير الهوى ، ثم يصف هذا

---

(١) انظر نفح الطيب ٢٤٢/٤ .
(٢) انظر المرجع السابق ٢٤٣/٤ والحلة السيراء ٤٩/٢ ـ ٥٠ .
(٣) انظر الحلة السيراء لابن الأبار ٤٧/٢ .

المحبوب ، ومدامعه التي يشكو بها وجدّه إليه ، فإذا بها تلين وتجود عليه بقبلة من خدها ، فيطمع أكثر ، ويطلب أن يرشف الشهد عن ثناياها ، ويتمادى به الطمع فيطلب منها أن تميل بجسمها على جسمه ، فتجاوبه ويتعانقان ضمّاً ولثماً يوريان الشوق في صدريهما كما يتطاير الشرر من الزند ، ويا لها من ساعة من السعادة والنعيم ما كان أقصرها . فولت ولكنَّ ذكراها ستظلُّ غير مذمومة العهد ، يقول :

رَعَى اللهُ مَنْ يَصْلي فُؤَادي بِحُبِّهِ ... سَعيراً ، وَعَيْني مِنْهُ في جَنَّةِ الخُلْدِ
غَزَالِيَّةُ العَيْنَيْنِ ، شَمْسِيَّةُ السَّنَا ... كَثيبِيَّةُ الرِّدْفَيْنِ ، غُصْنِيَّةُ القَدِّ
شَكَوْتُ إِلَيْهَا حُبَّهَا بِمَدامِعي ... وَأَعْلَمْتُها مَا قَدْ لَقيتُ مِنَ الوَجْدِ
فَصَادَفَ قَلْبي قَلْبَهَا وَهُوَ عَالِمٌ ... فَأَعْدَى ، وَذُو الشَّوْقِ المُبَرِّح قَدْ يُعْدي
فَجادَتْ ـ وَمَا كَادَتْ ـ عَلَيَّ بِخَدِّهَا ... وَقَدْ يَنْبُعُ المَاءُ النَّميرُ مِنَ الصَّلْدِ
فَقُلْتُ لَهَا : هَاتي ثَنَايَاكِ إِنَّني ... أُفَضِّلُ نَوَّارَ الأَقَاحي عَلَى الوَرْدِ
وَميلي عَلَى جِسْمي بِجِسْمِكِ فَانْثَنَتْ ... تُعيدُ الَّذي أَمَّلْتُ مِنْهَا كَمَا تُبْدِي
عِنَاقاً وَلَثْماً أَرَّثَا الشَّوْقَ بَيْنَنَا ... فُرادَى وَمَثْنَى كَالشَّرارِ مِنَ الزَّنْدِ
فَيَا سَاعَةً مَا كَانَ أَقْصرَ وَقْتَهَا ... لَدَيَّ ، تَقَضَّتْ غَيْرَ مَذْمُومَةِ العَهْدِ[1]

وله في النسيب أيضاً قوله :

تَنَامُ وَمُدْنَفُهَا يَسْهَرُ ... وَتَصْبِرُ عَنْهُ ، وَلَا يَصْبِرُ
لَئِنْ دَامَ هَذَا وَهَذَا بِهِ ... سَيَهْلِكُ وَجْداً وَلَا يَشْعُرُ[2]

وفكرة الهجر والبعاد تُلوِّع الشاعر ، لذا نراه يحمد المحبّ الذي لا ينتهجهما ، فيقول :

قَدْ وَجَدْنَا الحبيبَ يُصْفي وِدَادَهُ ... وَحَمِدْنَا ضَميرَهُ وَاعْتِقادَهُ

(١) المرجع السابق ٢/٤٧ ـ ٤٨ .
(٢) الحلة السيراء ٢/٤٨ .

قَـرَّبَ الحُـبُّ مِنْ فُـؤَادِ مُحِـبٍّ لاَيَـرى هَـجْـرَهُ وَلاَ إِبْعَـادَهُ[1]

وقال يصف صوتَ شادية ، وأثرَ صوتها فيه :

أَتَـتْـكَ أُمُّ الحَـسَـنِ تَـشْـدُو بِـصَـوْتٍ حَـسَـنِ
تَمُـدُّ في أَلْحَـانِها مِـنَ الـغِـنَـاءِ المَـدَني
تَـقُـودُ مِـنِّي سـاكِـنـاً كَـأَنَّـني في رَسَـنِ
أَوْراقُـهـا أَسْـتَـارُهـا إِذَا شَـدَتْ في فَـنَـنِ[2]

وله قصيدة يخاطب بها أباه ، وقد عتب عليه ، فراح يرجوه ويضرع إليه ، وقد مرّ معنا قبل قليل شيء من هذا العتاب . ومطلع القصيدة :

أَطَعْتُكَ في سِرِّي وَجَهْري جَاهِداً فَلَمْ يَـكُ لي إلاَّ المَلاَمَ ثَـوَابُ

يقول في تضاعيف القصيدة :

وَلكِنَّـك الـدُّنْيـا عَـلَيَّ حَبيبَـةٌ فَمَا عَنْكَ لي ـ إلاَّ إِلَيْكَ ـ ذَهَابُ
أَصِبْ بِالرِّضَا عَنِّي مَسَرَّةَ مُهْجَتِي وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فيها أَتَيْتُ صَوَابُ
وَفَضْلُكَ في تَرْكِ المَلامِ ، فَـإِنَّهُ وَحَقِّكَ في قَلبي ظُبىً وَحِرابُ[3]

ويحلو في هذا المقام أن نتحدث عن أمتع النوادر الأدبية التي جرت في مجلسه ، ومفادها : أن ابن جاخ الشاعر ورد على حضرته ، فدخل الدار المخصوصة بالشعراء . فسألوه فقال : إني شاعر . فقالوا : أنشد من شعرك . فقال :

إنِّي قَصَـدْتُ إِلَيْـكَ يَـاعَبَّـادي قَصْـدَ القُلَيِّقِ بِـالجَـرِي لِلْوادي

فضحكوا منه وازدروه ، وتنادروا عليه . فلما كان اليوم المخصوص الذي

---

(١) نفح الطيب ٤/٢٤٣ .
(٢) المرجع السابق ٤/٤٤٢ .
(٣) انظر الحلة السيراء ٢/٤٦ .

يقابلهم فيه المعتضد ، تآمروا عليه ، واتفقوا أن يكون هو أوّل متكلم عند جلوس السلطان ، فيقول مثل ذلك الشعر المضحك ، فيطرده عنهم .

فلما قعد السلطان في مجلسه ، رغبوا منه أن يكون ابن جاخ أوّلَ متكلِّم في ذلك اليوم . فأمر بذلك ، فأنشد شعراً أعجبه ، قال فيه[1] :

وَلَرُبَّ خَرْقٍ قَدْ قَطَعْتُ نِيَاطَهُ ... وَاللَّيْلُ يَرْفُلُ في ثِيَابِ حِدادِ
بِشِمِلَّةٍ حَرْفٍ كَأَنَّ ذَمِيلَها ... سَرْحُ الرِّياحِ وَكُلُّ بَرْقٍ غَادِي
وَالنَّجْمُ يَحْدوهَا وَقَدْ نَادَيْتُهَا ... يَا نَاقَتِي : عُوجِي عَلَى عَبَّادِ
مَلِكٌ إِذَا ما أُضْرِمَتْ نَارُ الوَغَى ... وَتَلاقَتِ الأَجْنَادُ بِالأَجْنَادِ
فَتَرَى الجُسُومُ بِلا رُؤوسٍ تَنْثَني ... وَتَرَى الرُّؤُوس لُقىً بِلاَ أَجْسَادِ
يَا أَيُّها المَلِكُ المُؤَمَّلُ وَالَّذي ... قِدْماً سَمَا شَرَفاً عَلَى الأَنْدادِ
إِنَّ القَرِيضَ لَكَاسِدٌ في أَرْضِنَا ... وَلَهُ هُنَا سُوقٌ بِغَيْرِ كَسَادِ
فَجَلَبْتُ مِنْ شِعْرِي إِلَيْكَ قَوافِياً ... يَفْنَى الزَّمَانُ وَذِكْرُهَا مُتَمادِي
مِنْ شَاعِرٍ لَمْ يَضْطَلِعْ أَدَباً وَلاَ ... خَطَّتْ يَدَاهُ صَحِيفَةً بِمِدادِ

فقال له الملك : أنت ابن جاخ ؟

قال : نعم .

فقال : اجلس ، فقد ولّيتك ، رئاسة الشعراء ، وأحسن إليه ، ولم يأذن في الكلام في ذلك اليوم لأحد بعده .

وكان المعتضد بن عبّاد شاعراً في أكثر من فنّ شعري كالفخر والنسيب والشراب وكلُّها من جيد الشعر وجزله ، كما كان موئلاً للشعراء والأدباء ، وكان أبوه شاعراً قبله ، وكان ابنه شاعراً من بعده ، وكذلك كان كثير من أبناء أخيه ، وصهره مجاهد العامري شعراء .

---

(١) انظر نفح الطيب ٢٤٣/٤ - ٢٤٤ والملوك الشعراء للدكتور جبرائيل جبور .

وظلَّ هكذا حتّى قضى نحبه عام ٤٦١ هـ/١٠٦٩ م وخلفه ابنه المعتمد بن عبّاد في ملك اشبيلية . وكان الشاعر ابن زيدون من شعراء المعتضد ، وقد رثاه حين مات بقصيدة طويلة يخاطب بها المعتمد ، مطلعها :

هُوَ الدَّهْرُ ، فَاصْبِرْ لِلَّذي أَحْدَثَ الدَّهْرُ   فَمِنْ شِيَمِ الأَحْرارِ في مِثْلِهَا الصَّبْرُ(١)

ومهما يكن من أمر حبُّ المعتضد للشعر ، وعقْده مجالسَ للشعرا ، وتخصيصُ يوم خاص للاستماع إليهم ، فإن شعره لم يبلغِ المنزلة التي بلغها شعرُ ابنه المعتمد خليفته في الملك(٢) .

---

(١) انظر نفح الطيب ٤/٢٦٤ .
(٢) انظر الملوك الشعرا للدكتور جبرائيل جبور ٢٧٠ .

٤ ـ المعتمدُ بن عبَّاد

١ ـ حياته ونشأته
٢ ـ الشعراء الذين صحبوه
٣ ـ ضعف عرب بالأندلس وزوال دولة بني عبّاد
٤ ـ ما حدث بعد معركة الزلّاقة
٥ ـ أسْرُ المعتمد في أغمات
٦ ـ شاعريَّة المعتمد
ـ شعرُ الدور الأول
ـ شعرُ الدور الثاني
ـ شعرُ الدور الثالث
٧ ـ قيمة شعر المعتدم
٨ ـ أولا المعتمد وأمهم

المعتمدُ بن عبَّاد
٤٣١ ـ ٤٨٨ هـ/١٠٤٠ ـ ١٠٩٥ م

١ ـ حياته :

المعتمد على الله محمد بن عباد بن محمد بن اسماعيل اللخمي أبو القاسم ، صاحب إشبيلية وقرطبة وما حولها ، وأحد أفراد الدهر شجاعة وحزماً . ولد في باجة بالأندلس سنة ٤٣١ هـ ، وولي إشبيلية بعد وفاة أبيه بالذبحة الصدرية سنة ٤٦١ هـ ، واتسع سلطانه بعد أن ملك قرطبة وغيرها . ولم يزل في صفاء ودعة إلى سنة ٤٧٨ هـ حين استولى ملك الفرنجة الأذفونش على طليطلة ، وردَّ ضريبة المعتمد السنوية ، وأرسل إليه يهدده ، ويدعوه إلى النزول له عما في يده من حصون . فكتب المعتمد إلى يوسف بن تاشفين صاحب مراكش يستنجده ، وإلى ملوك الأندلس يستثير عزائمهم ، ونشبت سنة ٤٧٩ هـ المعركة المعروفة بوقعة «الزلّاقة» فانهزم الأذفونش بعد أن أبيد أكثر عساكره .

ثم يروي لنا ابن خلكان فيقول : وثَبَتَ المعتمدُ في ذلك اليوم ثباتاً عظيماً ، وأصابه عدة جراحات في وجهه وبدنه وشُهد له بالشجاعة . وعاد ابن تاشفين بعد ذلك إلى مراكش ، وقد أعجب بما رأى في بلاد الأندلس من حضارة وعمران . وزارها بعد عام فأحسن المعتمد استقباله ثم عاد .

وثارت فتنة في قرطبة سنة ٤٨٣ هـ قتل فيها ابن المعتمد ، وفتنة ثانية في إشبيلية أطفأ المعتمد نارها فخمدت ، ثم اتقدت من جديد ، وظهر من ورائها جيش يقوده «سير بن أبي بكر الأندلسي» من قوّاد ابن تاشفين ، وحوصر المعتمد في إشبيلية ، وظهر من مصابرة المعتمد وشدة بأسه وترامية على الموت بنفسه مالم يسمع بمثله»[1] واستولى الفزع على أهل إشبيلية وتفرقت جموع المعتمد ، وقتل ولداه «المأمون والراضي» وفُتَّ في عضده ، فأدركته الخيل ، فدخل القصر ، مستسلماً للأسر سنة ٤٨٤ هـ ، وحمل مُقيداً مع أهله على سفينة ، وأُدخل على ابن تاشفين في مراكش ، فأمر بإرساله ومن معه إلى أغمات ، وهي بلدة صغيرة وراء مراكش ، وظل في معتقله هذا حتى مات سنة ٤٨٨ هـ رحمه الله .

ولعلّ أبا القاسم محمد بن عبّاد الملقَّب بالمعتمد أشهر الملوك الشعراء على الإطلاق وأجزلهم شعراً . فقد كان للمعتمد في الجهاد بلاءٌ عظيم ، وفي الجود صيتٌ ذائع ، وفي الأدب منزلةٌ عالية ، ومن غِيَرِ الأيّام ومصائب الحدثان نصيبٌ موفور ، وقصّته كما تأتي كأنّها في المآسي خيالُ شاعرٍ لا حقيقة واقع ، وافتنان كاتب لا حادثات تاريخ[2] .

وقد أسهب المؤرِّخون والشعراء في الحديث عنه ، وعن شعره ، ولاسيّما المقَّري فقد خصَّص له من كتابه نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب قدراً لم يُخصّصه لملك أو شاعر آخر . فقد نقل المقّري قول علي بن القطاع في كتابه «لُمَحِ المُلَحِ» عن المعتمد بن عبّاد : «أندى ملوك الأندلس راحةً ، وأرحبُهم ساحةً ، وأعظمهُم سِماداً، وأرفعُهم عماداً، ولذلك كانت حضرته مُلتقى الرِّحال، وموسمَ

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/٢٧ ـ ٣٥ ، وانظر نفح الطيب ٢/١١٩ ، والبيان المغرب ٣/٢٤٤ ـ ٢٥٧ وابن الأثير ١٠/٨٦ وفريدة القصر وشعراء المغرب ٢/٢٥ .

(٢) انظر المعتمد بن عباد الملك المجواد والشجاع للدكتور عبد الوهاب عزام ٨ .

الشعراء ، وقِبلةَ الآمال ، ومألفَ الفضلاء ، حتَّى إنَّه لم يجتمع بباب أحدٍ من ملوك عصره من أعيان الشعراء وأفاضل الأدباء ، ماكان يجتمع ببابه ، وتشتمل عليه حاشيتا جنابه» .

وجاء في نفح الطيب : «وقال الفقيه القاضي أبو بكر بن خميس رحمه الله تعالى حين ذُكر تاريخ بني عبّاد : وقد ذكر الناسُ للمعتمد من أوصافه ما لايبلغ مع كثرته إلى إنصافه ، وأنا الآن أذكر نُبذاً من أخباره ، وأردفها بما وقفتُ عليه من منظومات أشعاره ، فإنّه رحمه الله تعالى جمُّ الأدب رائعه ، عالي النظم فائقه»[1] .

ونقل لنا عن المؤلّفين الذين سبقوه ، الإطنابَ في الثناء عليه والتَّغني بمجده وعظمته ، فيقول ابنُ اللبانة : «ملكٌ مجيدٌ ، وأديب على الحقيقة مُجيد ، وهمام تُحلَّى به للمُلْكِ لَبَّةٌ وللنظم جيد ، أفنى الطّغاة بسيفه وآد ، وأنسى بسيبه ذكر الحارث بن عبّاد ، فأطلع أيّامه في الزمان حجولا وغررا ، ونظم معاليه في أجيادها جوهراً ودررا . وشيَّد في كلٍّ مَعلُوَّةٍ فناءه ، وعمَّرَ بكل نادرة مستغربة وبادرة مستظرفة أوقاته وآناءه . فنفقت به للمحامدِ سوقٌ ، وبسقت ثمرات إحسانه أيَّ بسوق . منح وقرى ، وراش وبري ، ووصل وفرى .

وكان له من أبنائه عدَّةُ أقمار نظمَهُمْ نظم السلك ، وزيَّنَ بهم سماءَ ذلك الملك . فكانوا معاقل بلاده وحماةَ طارفه وتلاده . . . »[2] .

وقال الفتح بن خاقان في قلائد العقيان عنه : «ملكٌ قمع العِدا ، وجمع الباس والنَّدى ، وطلع على الدنيا بدرَ هُدى . لم تتعطل يوماً كفُّه ولا بنانُه ، آونةً يراعه وآونةً سِنانه . وكانت أيَّامُهُ مواسم ، وثغور بَرِّه بَواسِمُ ، ولياليه كلُّها درراً

---

(١) نفح الطيب ٥/٣٧٧ .
(٢) المرجع السابق ٥/٣٧٦ .

وللزمان أحجالاً وغررا . لم يغفسلها من سمات عوارف ، ولم يضحجها من ظلٍّ إيناسٍ وارف . ولا عطّلها من مأثرة بقي أثرُها بادياً ، ولَقَى مُعْتفيه منها إلى الفضل هادياً ، وكانت حضرته مطمحاً للهِمَم ، ومسرحاً لآمال الأُمم . . »[1] .

ويقول المراكشي في كتابه المعجب : «وكان المعتمد هذا يشبَّهُ بهارونَ والواثق بالله من ملوك بني العبّاس ، ذكاءَ نفس ، وغزارة أدب ، وكان شعره كأنّه الحللُ المنشَّرة . واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب مالم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس ، وكان مقتصراً من العلوم على علم الأدب وما يتعلّق به وينضمُّ إليه .

وكان فيه مع هذا من الفضائل الذاتيّة ما لايُحصى ، كالشَّجاعة والسَّخاء والحياء والنزاهة ، إلى ما يناسبُ هذه الأخلاق الشريفة ، وفي الجملة فلا أعلم خصلةً تحمد في رجل إلّا وقد وهبَهُ الله منها أوفرَ قسمٍ ، وضربَ له فيها بأوْفَى سهمٍ . وإذا عُدَّتْ حسنات الأندلس من لدُنْ فَتْحِها إلى هذا الوقت فالمعتمدُ هذا أحدها بل أكبرها»[2] .

وقال ابنُ بسَّام في الذخيرة : «كان للمعتمد بن عبّاد شعرٌ كما انشقَّ الكِمامُ عن الزَّهْر ، لو صار مثلُه مِمَّنْ جعل الشعر صناعةً ، واتَّخذه بضاعةً ، لكان رائعاً معجباً ونادراً مستغرباً . . والعجب من المعتمد أنّه مرى سحابَه في كلتا حالتيه فصابَ ، ودعا خاطره فأجابَ . ولا تراجعَ له طبعٌ ، في الملك ولابعد الخلع ، بل يومه في هذا الشأن دهر ، وحسنته في هذا الديوان عشر»[3] .

هذه آراء مؤلّفين عاشوا بعيداً عن الأندلس ، ومنهم من عاش في القرن

---

(١) انظر قلائد العقبان للفتح بن خاقان : ترجمة المعتمد بن عباد .
(٢) المعتمد بن عباد الملك الجواد الشجاع والشاعر المرزّأ للدكتور عبد الوهاب عزام .
(٣) المرجع السابق .

السابع بعد المعتمد بقرنين ، لا يمدحون رغبةً ولا رهبة . ولعلَّ أبرز ميزة في حياة المعتمد رعايته للشعر ، وكان هو نفسه شاعراً وأديباً لا يبارى ، فجمع حوله أشهر الشعراء في ذلك العصر ، وأصبح بلاطه منتدى الأدب في اشبيلية ، كما كان بلاط الحمدانيّين في حلب ، وكان من هؤلاء الشعراء أبو الوليد بن زيدون ، وابن وهبون ، وابن عمّار ، وابن اللبانة ، وابن حمديس الصقليّ ، يضاف إلى ذلك اعتماد زوج المعتمد جارية رُميك التاجر الاشبيلي قبله ، فقد كانت اعتماد الرميكية شاعرة مفلقة قصَّرَ كثير من الشعراء عن مجاراتها . وكان بنوه شعراء ، ومنهم من تُرجم له بين أدباء الأندلس ، وكانت بنته بثينةُ شاعرة ذكرت في الشواعر الأندلسيّات[1] .

نشأته :

نشأ المعتمد بن عباد في أكناف جدّه وأبيه حيث أكبر البلاطات الأندلسيّة ، في ذلك الجوّ الملوكيّ الرفيع ، وفي ذلك الجوّ السياسيّ العنيف الصاخب . وكان ذلك الجوّ في الوقت نفسه من أرقى الأجواء الأدبيّة التي عرفتها الأمّة العربيّة في مختلف أقطارها . فقد بلغت الأندلس فيه من الحضارة شأواً بعيداً . وكان المعتمد قد ولد في إشبيلية مطلع عام ٤٣١ هـ .

صحيح أن سقوط الخلافة الأمويّة في الأندلس قد أضرَّ بوحدة البلاد السياسية ضرراً كبيراً ، لكنّنا لا نستطيع أن نطلق مثل هذا الحكم حين نتكلم عن الحركة الأدبيّة في الأندلس . ووضع الأندلس حين سقوط الدولة الأمويّة فيها ، يشبه إلى حد بعيد وضع الخلافة العباسيّة في أواخر أيّامها .

---

(١) المرجع السابق .

فنحن نعلم بأن الدولة العباسيّة في أواخر أيّامها ضعفت وهزلت ، وأخذت كثير من أراضي الخلافة تنفصل عنها وتشكّل دولاً مستقلّة لا تعترف بخلافة العباسيّين في بغداد . ولا شكَّ أنّ انفصال تلك الأقسام عن جسم الدولة العبّاسيّة قد أضرَّ بقوّتها السياسيّة والعسكريَّة ضرراً بالغاً ، إنّما من ناحية الحركة الأدبيّة ، نرى أنّ كلّ دولة من الدويلات الصغيرة الناشئة تسعى لجمع أشهر الأدباء والشعراء والعلماء في بلاطها ، فارتفعت منزلة الأدب في تلك الدويلات ولمعت أسماء الكثيرين من الأعلام ، وأصبحت بلاطات الدول الحمدانيّة ، والفاطميّة ، والإخشيديّة وغيرها مركزاً للإنتاج الشعري والأدبي ، تنافس في ذلك بل تفوق بلاط العباسيّين في بغداد .

وهذا تماماً هو ما حصل في الأندلس على أثر سقوط الخلافة الأمويّة في قرطبة ، فقد انقسمت اسبانيا إلى ممالك صغيرة يحكمها أمراء من العرب أو من الصقالبة أو من البرابرة ، وأخذ كلّ من هؤلاء الملوك يسعى لجعل بلاطه أكثر شهرة من باقي بلاطات ملوك الطوائف . فأخذ الشعراء والأدباء يتوافدون على تلك البلاطات ليظهروا ، وليكسبوا وِدَّ أولئك الملوك . فأكرمهم هؤلاء ورفعوا منزلتهم وعهدوا إليهم بالمناصب الوزاريّة ، فذاع صيت البلاط العبَّادي بما حوى من فحول الأدباء والشعراء ، وحاول منافستهم في ذلك بنو هود في سرقسطة ، وبنو الأفطس في بطليوس ، وبنوذي النون في طليطلة .

ومضى الشعراء يقطعون الأندلس طولاً وعرضاً ، ينتجعون قصور الأمراء ، حيث يظفرون بالمأوى والصلات ، ويحضرون مجالس أصحاب الأمر ، وتُدرج أسماؤهم في سجلات الدواوين ، وتُقرّر لهم الأرزاق وتُخلع عليهم وظائف التدريس ، ولقد كان الواحد منهم يرتجل المقطوعة القصيرة فيبلغ بها الوزارة . وكان كبار القوم من ملوك ووزراء وأصحاب وظائف كبرى وسفراء لا يتراسلون

إلّا شعراً ، فكانوا يتهادون رقاعاً صغيرة تحمل عبارات الدعوات والاعتذارات والأهاجي ، أو يرفقونها بهداياهم ، أو يسجلون فيها لمحات عن حياتهم ، كلّها منظومة شعراً ، يشبّهون أنفسهم فيها بالنجوم والزهور ، حتى أصبحت حياتهم كلُّها شعراً صرفاً .[1]

وكان المعتضد أبوه قد حاول أن يُمرِّسه في الأدب والحكم والحرب ، فجعله يحضر مجلسه ، ويتردَّد إليه من صغره ، وعيَّنه عاملاً على وَلْبَةَ ثم والياً سنة ٤٤٤ هـ على مدينة شلب في جنوبي البرتغال وهو في الثالثة عشرة من عمره .[2] ، ثم وجَّهه لفتح مالقة كي يختبر الحرب ويتمرّس بفنونها ، وقد يسَّرت له الحياة في شلب ، بعيداً عن عيني والده ، سبل اللهو والعبث . وكان رفيقه في شلب الشاعر ابن عمّار ، فنهزا معاً بدلْوِ الغواية ، وأساما معاً سَرْحَ اللهو والمجون[3] . وكانت الجواري السبيئات يملأْنَ مدن الأندلس ، وكان الغناء فاشياً في أنديتها ودورها ، فاستمتعا معاً بحياة ماجنة في الخمر والفسق . وبلغ المعتضدَ خبرُهما ومجونهما ، فنفى ابن عمّار من شلب وأبعده عن المعتمد[4].

وحاول المعتمد فتح مالقة فخُذِل واضطرّ إلى أن ينهزم عنها خاسراً ، وسمع والده بخذلانه ، فبعث إليه يؤنِّبه ، فخاف المعتمدُ سطوةَ أبيه ، وخشي أن يفتكَ به كما فتك بأخيه ، فلاذ ببلدة رندة لاجئاً ، وكتب يستعطف والده ويعتذر إليه بقصيدة هي من بواكير شعره ، يقول في مطلعها :

---

(١) انظر قلائد العقيان للفتح بن خاقان ص ٣١ والمعجب صفحة ٦٤ .

(٢) انظر كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون ، والملوك الشعراء للدكتور جبرائيل جبور ٢٧٢/ .

(٣) انظر تاريخ العرب في اسبانيا للدكتور خالد الصوفي صفحة ١٢٥ نقلاً عن عربسية غومس صفحة ٢٩ .

(٤) انظر المعجب صفحة ٧٢ .

سَكِّنْ فُؤَادَكَ لاَ تَذهَبْ بِكَ الفِكَرُ   مَاذا يُعيدُ عَليكَ البَثُّ والحَذَرُ

ويظهر أن والده قَبِلَ استعطافه ، فعفا عنه وأرجعه إليه .[1]

ومّما نظمه في عهد أبيه المعتضد في ذلك الحين ، أبيات أرسلها إليه حين أرسله قائد جيش إلى مالقه ، فانهزم ، فغضب أبوه غضباً شديداً وعنَّفه واتهمه أنّه ضيَّع الحزم باللهو واللعب ، فقال المعتمد فيما قاله :

لَمْ أُوتَ مِنْ زَمَني شَيْئاً أَلَذُّ بِهِ   فَلَسْتُ أَعْرِفُ مَا كَأْسٌ وَلاَ وَتَرُ

وَلاَ تَمَلَّكَني دَلٌّ ، وَلاَ خَفَرٌ   وَلاَ سَبَا خَلَدي غُنْجٌ وَلاَ حَوَرُ

رِضَاكَ رَاحَةُ نَفْسي لا فُجِعْتُ بِهِ   فَهُوَ العَتَادُ الَّذي لِلدَّهْرِ أَدَّخِرُ

وَهُوَ المُدَامُ الَّتي أَسْلُو بهَا فَإذَا   عَدِمْتُهَا وَقَدَتْ في قَلْبِي الفِكْرُ

أَجَلْ لي رَاحَةٌ أُخْرى كَلِفْتَ بِهَا   نَظْمُ الكُلَى في القَنَا وَالهَام تَنْتَثِرُ[2]

ولّما تولّى المعتمد الأمر بعد أبيه سنة ٤٦١ هـ/١٠٦٩م أعاد الشاعر ابن عمّار إليه ، وعاد إلى لهوه ومجالس أنسه ، وابتنى القصور وتفنّن في زخرفتها وفرشها ، فكان في واحد منها فيل من الفضّة على شاطىء بركة يقذف ماءً[3]. وأكثر من الجواري ، وقد حفظ لنا شعره أسماء بعضهنّ ، منهنّ وداد وجوهرة وسحر . وهو إلى ذلك لم يهمل شؤون الدولة ، بل أخذ بتوسيع مملكته . فاحتلّ قرطبة التي كانت قد استعصت على والده ، وكان سرور المعتمد ابن عبّاد باحتلال قرطبة سنة ٤٦٢ هـ/١٠٦٩ م كبيراً[4] وبذلك انتهى حكم الجهاورة في قرطبة بعد أن دام

---

(١) انظر ملوك الطوائف ١٥٩ ـ ١٦٠ .

(٢) المعتمد بن عباد للدكتور عبدالوهاب عزام .

(٣) نفح الطيب ٣٩٥/٥ .

(٤) انظر تاريخ العرب في اسبانيا «ملوك الطوائف» جمهورية بني جهور للدكتور خالد الصوفي ١١٦ .

أربعين سنة تقريباً ، وبدأ حكم آل عبّاد ، وقرطبة كانت كما نعلم عاصمة الخلافة الأمويَّة زمناً طويلاً ، ولها بين دول الطوائف شأن عظيم ، والمستولي عليها كان يعتبر نفسه أرفع قدراً من باقي ملوك الطوائف ، بل يعتبر نفسه الحاكم الشرعيّ لبلاد الأندلس كلِّها . ولذلك نرى المعتمد ينظم الشعر بمناسبة استيلائه على قرطبة فيشبِّهها بالعروس الجميلة ، ويشبّه استيلاءه عليها كزواجه من إحدى الحسناوات ، فيقول :

مَنْ لِلْمُلوكِ بِشَأْوِ الأَصْيَدِ البَطَلِ ... هَيْهاتِ جَاءَتْكُمْ مَهْدِيَّةُ الدُّوَلِ

خَطَبْتُ قُرْطَبَةَ الحَسْنَاءَ إِذْ مَنَعَتْ ... مَن جَاءَ يَخْطُبُهَا بِالبِيضِ والأَسَلِ

وَكَمْ غَدَتْ عَاطِلاً حَتَّى عَرَضْتُ لَهَا ... فَأَصْبَحَتْ فِي سِرِّي الحَلْيِ وَالحُلَلِ

عُرْسُ المُلُوكِ لَنَا فِي قَصْرِهَا عُرسٌ ... كُلُّ المُلوكِ بِهِ فِي مَأْتَمِ الوَجَلِ

فَراقِبُوا عَنْ قَرِيبٍ لَا أَبَا لَكُمُ ... هُجُومَ لَيْثٍ بِدَرْعِ البَأْسِ مُشْتَمِلِ

هكذا كان يعتبر المعتمد بن عبّاد احتلاله لقرطبة قهراً لأعدائه ، وانتصاراً على ملوك الطوائف الآخرين .[1]

ثم استولى بعد ذلك على مرسية ، وعيَّن ابن عمّار والياً على شلب[2]، ثم استدعاه إلى اشبيلية وجعله وزيراً عنده ، واصطفاه لمنادمته في مجالس شربه ، ومرافقته في مغاني لهوه ، واتَّخذه خديناً يساجله الشعر ، ويشاطره اللّذات[3]. وأصبح ابن عمّار من كبار رجال الدولة بأساً ، وكان داهية ، لا يناط به أمر إلاَّ اضطلع به ، وشهر بمقدرته السياسيّة والأدبيّة ، حتّى زعموا أنَّ ملك الروم كان إذا ذكر عنده ابن عمّار قال : هو رجل الجزيرة .[4]

(١) تاريخ العرب في اسبانيا للدكتور خالد الصوفي ١١٧ .
(٢) المعجب ٧٣ .
(٣) المطرب ١٦٩ .
(٤) المعجب ٧٣ .

وداخل ابن عمّار زهوٌ عجيب ، وحدّثته نفسه بالفتنة والثورة على سيّده ، فشقَّ عصا الطاعة ، وهجا المعتمد ، وهجا اعتماداً الرميكية ، فاضطرّ المعتمد إلى أن يفتك به حين ألقى القبض عليه سنة ٤٧٧ هـ وطيَّب نفس اعتماد .(١)

وقد كانت اعتماد الرميكية أحظى امرأة عنده ، وكان يأنس بها ويستظرف نوادرها ، فقد كانت حلوة الحديث مليحة الوجه(٢)، ولعلّه لم تحظَ امرأة عند مليك بمثل ما حظيت به في هذا الدور من حياة المعتمد . وزعموا أنّها رأت الثلج يتساقط على هضبات قرطبة ، فراقها منظره ، فتمنّت على المعتمد لو يدوم مثل هذا المشهد ، فأمر بأن تنصب أشجار اللوز في هضبات المدينة قرطبة لتزهر في آخر الشتاء وتظهر بيضاء كالثلج .(٣)

وذكروا أنّها رأت ذات يوم في اشبيلية بعض البدويات من بائعات اللبن حاملات القرب يمشين حافيات في الطين كاشفات عن سوقهن . فاشتهت هي وجواريها مثل أولئك النساء يمشين في الطين . فأمر المعتضد فسحقت الطيوب وذرت في ساحة القصر حتّى عمَّته ، ثم نُصبت الغرابيل وصبَّ فيها ماء الورد على أخلاط الطيوب من مسك وكافور وعنبر ، وعجنت بالأيدي حتى عادت كالطين . وهيّئت القرب مربوطة بحبال من الإبرسيم ، فحملتها هي وجواريها وخرجن يخضن في الطين(٤) . ولم يكن ماء الورد قليلاً في قرطبة ، فقد ذكر المقري أنّه كان في ضواحي قرطبة جبال من الورد الذي صار أصحابه يرون الفضل لمن قطف بيده

---

(١) انظر المعجب ٧٣ - ٨٠ . والمطرب ١٦٩ .

(٢) نفح الطيب ٨/٦ .

(٣) تاريخ العرب ٦٤٢/٢ وانظر نفح الطيب ٦٥/٢ حيث تجد أن الناصر كان قد فعل شيئاً مثل هذا لجاريته الزهراء .

(٤) نفح الطيب ٤١٥/١ .

ما يمنحونه منه[1]. لقد ضَنَّ المعتمد على أقدام اعتماده الناعمة أن تلوث بغير الطيب والغالية حين تمنّت الخوض في الطين مثل البدويّات .

وقد ذكر عنها أنها غاضبته في بعض الأيّام ، وأقسمت أنّها لم تر منه خيراً ، فقال : ولا يوم الطين ؟. فاستحيت واعتذرت .[2]

ولّما ألقى القبض على الشاعر ابن عمّار ، ضربه المعتمد بالطبرزين على رأسه ففلقه ، وترك الطبرزين في رأسه ، فقالت اعتماد : قد بقي ابن عمّار هدهداً[3] وطابت نفسها .

وقد شاد المعتمد في دور خلافته قصوراً كثيرة ، منها قصر الثريّا ، وقصر المبارك ، والقصر الوحيد ، والقصر الزاهي ، وكان هذا يطلّ على ضفة النهر . هذا عدا ما ورثه في إشبيلية وقرطبة من القصور عن الملوك السالفين .

واستدعى في هذا الدور من حياته الطبيب الشاعر أبا العلاء ابن زهر وألحقه ببلاطه ، وأعاد إليه ما كان صودر من أملاك جدّه ، وظلّ أبو العلاء في بلاط المعتمد في اشبيلية حتى غزاها المرابطون .

وكان قد توجّه إليه الوزير أبو الأصبغ بن أرقم رسولا من المعتصم بن صمادح ملك المرية ومعه الوزير أبو عبيد البكري والقاضي أبو بكر بن صاحب الأحباس ، فلما قارب إشبيلية أرسل الى المعتمد أبياتاً منها :

يَا مَالِكاً عَظَّمَتْهُ العُرْبُ والعَجَمُ ... وَوَاحِداً وَهُوَ في أَثْـوَابِـهِ أُمَمُ
إنَّـا وَرَدْنَـاكَ وَالأقْـطَارُ مُـظْلِمَـةٌ ... وَالبَدْرُ يُرْجَى إذا مَا الْتَخَتِ الظُّلَمِ

---

(١) العقد الفريد ١١/١ .
(٢) نفح الطيب ٤٥١/١ .
(٣) مطمح الأنفس ٩٨ ـ ٩٩ والمعجب ٨٠ ونفح الطيب ٢٤٣/٥ .

فكتب المعتمد إليه يقول :

حُثُّوا المطيَّ وَلَوْ لَيْلاً بِمَجْهَلَةٍ فَلَنْ تَضِلُّوا وَمِنْ بِشْرِي لَكُمْ عَلَمُ
لأنْتُمُ القَوْمُ إنْ خَطُّوا يُجِدْ قَلَمٌ وَإنْ يَقُولُوا يُصِبْ فَصْلَ الخِطَابِ فَمُ
لَاعِيٌّ إنْ رَقَّمُوا كُتُباً وَلَا حَصَرٌ إذْ يَنْتَدُونَ ، وَلَا جَوْرٌ إذا حَكَمُوا
أَقْدِمْ أَبَا الأَصْبَغِ المَوْدُودِ تَلْقَ فَتىً هَشَّ المَوَدَّةِ لَا يُزْرِي بِهِ سَأَمُ
هَذَا فُؤادِيَ قَدْ طَارَ السُّرُورُ بِهِ إنْ كُنْتَ تَنْقُلُكَ الوَخَّادَةُ الرُّسُمُ
سَأَكْتُمُ اللَّيْلَ مَا أَلْقَاهُ مِنْ بُعُدٍ وَأَسْأَلُ الصُّبحَ عَنْكُمْ حِينَ يَبْتَسِمُ (1)

وقال المعتمد وقد لمع البرق فارتاعت جارية كانت تسقيه :

يُرَوِّعُهَا البَرْقُ وَفِي كَفِّهَا بَرْقٌ مِنَ القَهْوَةِ لَمَّاعُ
يَا لَيْتَ شِعْرِي وَهِيَ شَمْسُ الضُّحَىٰ كَيْفَ مِنَ الأَنْوارِ تَرْتَاعُ ؟ (2)

وقال في معاهد نعيمه وأنسه في اشبيلية :

وَلَقَدْ شَرِبْتُ الرَّاحَ يَسْطَعُ نُورُهَا وَاللَّيْلُ قَدْ مَدَّ الظَّلَامَ رِدَاءَ
حَتَّى تَبَدَّى البَدْرُ في جَوْزَائِهِ مَلِكَاً تَنَاهَى بَهْجَةً وَبَهَاءَ
لَمَّا أَرَادَ تَنَزُّهاً في غُربَةٍ جَعَلَ المِظَلَّةَ فَوْقَهُ الجَوْزاءَ
وَتَنَاهَضَتْ زُهْرُ النُجُومِ يَحُفُّهُ لألَاؤُهَا فَاسْتَكْمَلَ اللألَاءَ
وَتَرى الكَواكِبَ كَالمَواكِبِ حَوْلَهُ رَفَعَتْ ثُرَيَّاهَا عَلَيْهِ لِواءَ
وَحَكَيْتُهُ في الأَرْضِ بَيْنَ مَوَاكِبٍ وَكَوَاعِبٍ جَمَعَتْ سَنَاً وَسَنَاءَ
إنْ نَشَّرَتْ تِلْكَ الدُّرُوعُ حَنَادِساً مَلأَتْ لَنَا هَذِي الكُؤُوسَ ضِياءَ (3)

---

(1) انظر في مقدمة الدراسة المعتمد بن عباد للدكتور عبدالوهاب عزام صفحة ١٩ .
(2) المرجع السابق صفحة ٢٠ .
(3) يعني بالمواكب الجيش ولذا ذكر الدروع في البيت التالي انظر المعتمد بن عباد للدكتور عبدالوهاب عزام .

وإذا تغَنَّت هـذه في مـزهَـر لَمْ تأَلُ تلكَ على التريك غناء[1]

وله مساجلات شعريّة مع شعرائه ، تدلّ على أنّه لا يتخلّف عنهم في النظم رويَّةً وارتجالاً ، ولا يقع دون كبار الشعراء في لفظه ومعناه . وهذا ابن حمديس يشير إلى ذلك في ختام قصيدة مدح بها المعتمد :

إنَّا لَنَخْجَلُ في الإنْشادِ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ القَـوَافي الَّتي حُلِّين بالفِقَـرِ
مَنْ ملَّكَ الله حُسْنَ القَوْلِ مِقْوَلَهُ فَلَوْ رآهُ ابنُ حَجْرٍ عَادَ كَالحَجَرِ[2]

٢ ـ الشعراء الذين صحبوا المعتمد بن عبَّاد :

مرَّ معنا قول ابن القطاع في المعتمد : «كانت حضرته ملقى الرحال ، وموسم الشعراء ، وقبلة الآمال ، ومألف الفضلاء .. ، حتّى إنّه لم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره من أعيان الشعراء وأفاضل الأدباء ما كان يجتمع ببابه» .

وكيف لا يقصدُ الشعراء والأدباء ، في عصرَ زها فيه الشعر والأدب ، ملكاً أديباً شاعراً يأنس بهم ، ويُغدق عليهم العطاء ، ويُصادقهم ويُجلّهم ، ويتَّخذ منهم وزراء وندماء . ومن هؤلاء الشعراء ثلاثة ذهبوا مثلاً سائراً في الوفاء ، سنأتي على ذكرهم في محنة المعتمد ، وهم :

١ ـ أبو بكر الداني المعروف بابن اللبانة .

٢ ـ وابن حمديس الصقلي .

٣ ـ وأبو بحر بن عبد الصمد .

وغيرهم كُثُر ، كأبي الوليد بن زيدون ، وابن عمار ، وعبد الجليل بن وهبون ، وابن القزاز محمد بن عبادة ، وابن مرزقان مولاه ، وأبو الوليد

---

(١) الغناء على التريك : يعني وقع السلاح على البيض في الحرب .
(٢) المعتمد بن عباد للدكتور عبدالوهاب عزام صفحة ٢٠ .

المصيصي ، وابن المرعز النصراني الإشبيلي ، وغيرهم[1] .

١ ـ نذكر هنا أبا بكر الداني المعروف بابن اللبّانة لنقول : إنه اتصل ببني عبّاد منذ أيّام المعتضد ، فأحسن مدحهم ، وأحسنوا جزاءه ، وسنذكر وفاءه للمعتمد في حينه ، وهو الذي ألّف كتاباً سمّاه «الإعتماد في أخبار بني عباد» كما ألّف كتاباً في أخبارهم بعد نكبتهم سمّاه «نظم السلوك في مواعظ الملوك» . وقال في مدحهم القصائد الطوال والموشّحات الزاهية التي لا تبلى جدّتها على الأيّام ، يقول في إحداها :

أَبْــدى لــنــا حُــمْــرةً في يَــقَــقِ   خَــدُّ الصَباحِ فيه حمرةُ الشفَقِ

مَنْ لي بِمَدْحِ بني عبَّادِ
وَمَنْ مَحْمَدُهمْ إِحْمَادِي
تِلْكَ الهِباتُ بِلاَ مِيعادِ
عَذَرْتُ مِنْ أَجْلِهَا حُسّادِي[2]

واستمع الى ما يقول الفتح بن خاقان عن الشاعر وأميره حين زاره في محبسه : «وفي هذه الحالة زاره الأديب أبو بكر بن اللبانة . وكان المعتمد رحمه الله يميزه بالشفوف والإحسان ، ويجوِّزه على فرسان هذا الشان . فلما رآه وحلقات الكبل قد عضت ساقيه عض الأسود ، والتوت عليه التواء الأساود السود ، وهو لا يطيق إعمال قدم ، ولا يُرِق دمعاً إلاّ ممزوجا بدم ، بعدما عهده فوق منبر وسرير ، ووسط جنة وحرير ، تخفق عليه الألوية ، وتشرق منه الأندية ، وَتَكِفُ الأمطار من راحته، وتَشْرُفُ الأقدار بحلول ساحته، ويرتاع الدهر من أوامره ونواهيه ، ويقصّر النَّسر أن يقاربه أو يضاهيه ، ندبه بكل مقال يلهب الأكباد ،

---

(١) المغرب في حلي المغرب ١/٢٦٤ .

(٢) انظر المعتمد بن عباد الملك الجواد الشجاع الشاعر المرزّأ للدكتور عبد الوهاب عزام .

ويثير فيها لوعة الحارث بن عباد ، أبدعَ من أناشيد مَعْبَد ، وأصدع للكبد مراثي أربد[1] أو بكاء ذي الرمة بالمربد ، سلك فيها طريقا لا حباً ، وغدا لذيول الوفاء ساحباً ، فمن ذلك قوله :

انْفُضْ يَدَيْكَ مِنَ الدُّنْيَا وَسَاكِنِهَا ... فَالأَرْضُ قَدْ أَقْفَرَتْ وَالنَّاسُ قَدْ مَاتُوا

وَقُلْ لِعَالَمِهَا السُّفْلِيِّ قَدْ كَتَمَتْ ... سَرِيرَةَ العَالَمِ العُلْوِيِّ أَغْمَاتُ

طَوَتْ مِظَلَّتَهَا ، لَا بَلْ مَذَلَّتَهَا ... مَنْ لَمْ تَزَلْ فَوْقَهُ لِلْعِزِّ رَايَاتُ

مَنْ كَانَ بَيْنَ النَّدَى وَالبَأْسِ أَنْمُلُهُ ... هِنْدِيَّةٌ ، وَعَطَايَاهُ هُنَيْدَاتُ[2]

رَمَاهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ تَسْتُرْهُ سَابِغَةٌ ... دَهْرٌ مُصِيبَاتُهُ نَبْلٌ مُصِيبَاتُ[3]

أَنْكَرْتُ إِلَّا الْتِوَاءَ القُيودِ بِهِ ... وَكَيْفَ تُنْكَرُ فِي الرَّوْضَاتِ حَيَّاتُ

غَلِطْتُ بَيْنَ هُمَايِينْ عُقِدْنَ لَهُ ... وَبَيْنَهَا ، فَإِذَا الأَنْوَاعُ أَشْتَاتُ[4]

وَقُلْتُ هُنَّ ذُؤَابَاتٌ فَلِمْ عُكِسَتْ ... مِنْ رَأْسِهِ نَحْوَ رِجْلَيْهِ الذُّؤَابَاتُ

حَسِبْتُهَا مِنْ قَنَا أَوْ مِنْ أَعِنَّتِهِ ... إِذَا بِهَا لِثِقَافِ المَجْدِ آلَاتُ

دَرَوْهُ لِيناً ، فَخَافُوا مِنْهُ عَادِيَةً ... عَذَرْتُهُمْ ، فَلِعَدْوِ واللَّيْثِ عَادَاتُ

لَوْ كَانَ يُفْرَجُ عَنْه بَعْض آوِنَةٍ ... قَامَتْ بِدَعْوَتِهِ حَتّى الجَمَادَاتُ

بَحْرٌ مُحِيطٌ عَهِدْنَاهُ تَجِيءُ لَهُ ... كَنُقْطَةِ الدَّارَةِ ، السَّبْعُ المُحِيطاتُ

لَهْفِي عَلَى آلِ عَبَّادٍ فَإِنَّهُمُ ... أَهِلَّةٌ مَالَهَا فِي الأُفْقِ هَالَاتُ

رَاحَ الحَيَا وَغَدا مِنْهُمْ بِمَنْزِلَةٍ ... كَانَتْ لَنَا بُكَرٌ فِيهَا وَرَوْحَاتُ

أَرْضٌ كَأَنَّ عَلَى أَقْطَارِهَا سُرُجاً ... قَدْ أَوْقَدَتْهُنَّ بِالأَدْهَانِ أَنْبَاتُ

---

(١) معبد : المغني الحجازي المعروف . وأربد : أخو لبيد الشاعر إذ رثاه أخوه رثاءً موجعاً .

(٢) هنيدات : القطعة من الإبل .

(٣) السابغة : الدرع .

(٤) همايين : جمع هميان وهو حزام عريض أجوف يوضع فيه المال ويشد على الوسط .

وَفَوقَ شَاطِيءِ وَادِيهَا رِيَاضُ رُباً قَدْ ظَلَّلَتْهَا مِنَ الأَنْشَامِ دَوْحَاتُ[1]

وتطول القصيدة كثيراً الى أن يقول الشاعر معدداً مواطن السرور واللهو في ديار بني عباد :

مَعَاهِدٌ لَيْتَ أَنِّي قَبْلَ فُرْقَتِهَا قَدْمِتُّ ، وَالتَّارِكُوهَا لَيْتَهُمْ مَاتُوا
فُجِعْتُ مِنْهَا بِإِخْوانٍ ذَوِي ثِقَةٍ وَالأَرْضُ فيهَا من الإِخْوانِ آفاتُ[2]

٢ـ ومن الشعرا الذين أظلّتهم دولة بني عبّاد ، فنعموا في ظلالها وغرّدوا في أفيائها ابن حمديس الصقلي ، فاروق عبد الجبّار بن أبي بكر بن محمّد بن حمديس الصقلي بلده سرقوسة من جزيرة صيقلية حينما استولى النورمانديّون على الجزيرةسنة ٤٧٠ هـ ، وانتهى به المسير الى إشبيلية . فقرّبَهُ المعتمدُ بن عبّاد ، وأشاد هو بالأمير وسيَّرَ في مدحه قصائده ، وصحبه في سلمه وحربه ، ثم واساه في أسْرِهِ .

وروى صاحب نفح الطيب عن ابن حمديس أنّه قال :

أقمت بإشبيلية لمّا قدمتها على المعتمد بن عبّاد ، مدّةً لا يلتفت إليَّ ولا يعبأ بي ، حتّى فطنت لخيبتي مع فرط تعبي ، وهممت بالنكوص على عقبي . فإنّي لكذلك ليلة من الليالي في منزلي ، إذا بغلام معه شمعة ومركوب ، فقال لي : أجب السلطان . فركبت من فوري ودخلت عليه ، فأجلسني على مرتبة فنّك ، وقال لي : افتح الطاق التي تليك . ففتحتها فإذا بكور زجاج على بعد ، والنار تلوح من بابيه . وواقدة تفتحها تارة وتسدّها أخرى . ثمّ دام سدّ أحدهما وفتح آخر ، فحين تأمّلتهما ، قال لي : أجز :

(١) الأنشام : جمع نشم وهو شجر .
(٢) انظر المعتمد بن عبدا للدكتور عبد الوهاب عزام ص ٧٧ للمزيد عُدْ إلى المرجع السابق ٧٢ ـ ٨٠ .

أنظُرْهُما في الظَّلامِ قَدْ فَتَحَتا

فقلت :

كَمَا رَنَا في الدُّجَنَّةِ الأَسَدُ

فقال :

يَفْتَحُ عَيْنَيْهِ ثُمَّ يُطْبِقُهَا

فقلت :

فِعْلَ امْرِىءٍ في جُفُونِهِ رَمَدُ

فقال :

فَابْتَزَّهُ الدَّهْرُ نُورَ وَاحِدَةٍ

فقلت :

وَهَل نَجَا مِنْ صُروفِهِ أَحَدُ ؟

فاستحسن ذلك وأمر لي بجائزة سنيّة وألزمني خدمته .

ولابن حمديس في مدح المعتمد الأمير الجواد الشاعر ووصف حروبه قصائد غرّاء تضمَّنها ديوانه . ولم يقصر ابن حمديس في الوفاء لأميره الشاعر حين حلَّت به الفاجعة ، وذهب إليه في أغمات ، كما ذهب ابن اللبانة[1] .

٣ ـ ومن شعراء المعتمد الذي ظلَّلهم دوحه ، الشاعر أبو بحر بن عبد الصمد ، الذي مدح الأمير بقصائد تغنَّت بها الركبان ، وحفظها المقيمون والأظعان . ومن مديحه قوله :

خَضَعَتْ لِعِزَّتِكَ المُلوكُ الصِّيدُ وَعَنَتْ لَكَ الأَبْطَالُ وَهْيَ أُسُودُ
فَاطْعَنْ وَلَوْ أَنَّ الثُّرَيَّا ثُغْرَةٌ وَاضْرِبْ وَلَوْ أَنَّ السِّمَاكَ وَرِيدُ

---

(١) المعتمد بن عباد للدكتور عبد الوهاب عزام صفحة ٢٤ .

وَافْتَحْ وَلَوْ أَنَّ السَّماءَ مَعَاقِلٌ وَاهْزِمْ وَلَوْ أَنَّ النُّجومَ جُنُودُ(١)

والشاعر من الذين يُضرب المثل بوفائهم وصدقهم ، فقد رثى الشاعرُ الأمير المدح ، ووقف على قبره وأنشد قصيدةً باكية ، ومرغ وجهه في التراب ، فأبكى الحاضرين ، سنذكرها في حينها .

٤ ـ اتّصل ابن زيدون بالمعتضد العبّادي والد المعتمد سنة ٤٤١ هـ فاحتفى به واستوزره ثم سمّاه ذا الوزارتين ، فلبث في كنفه زهاء عشرين عاماً ومدحه وفاء مالقي في جنابه من عزّة ونعماء في إشبيلية .

ولّما مات المعتضد رثاه ابن زيدون . واتصل بالمعتمد فكان قرة عينه وزين دولته . ولما فتح المعتمد قرطبة بلد ابن زيدون ، رجع إلى بلده في كنف المعتمد وعلت مكانته . ثم أرسله المعتمد إلى إشبيلية لفتنة وقعت بها ، ومعه أحد أبناء المعتمد ، فمات ابن زيدون هناك لمرض ألمّ به سنة ٤٦٣ هـ .

وله في مدح المعتضد قصائد يسير بها الذكر ويزهو بها الشعر . منها قصيدة أوّل ما مدح بها المعتضد ، مطلعها :

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي الأَحِبَّةَ إِذْ أَبَتْ ذِكْراهُمُ أَنْ يَطْمَئِنَّ مِهَادا

وفيها يقول :

أَوْ أَنَا عَنْ صِيدِ المُلوكِ بِجَانِبي فَهُمُ العَبِيدُ مَليكُهُمْ عَبَّادا
إِنِّي رَأَيْتُ المُنْذِرَيْنِ كِلَيْهِمَا في كَوْنِ مُلْكِ لَمْ يُحِلْهُ فَسَادا
وَبَصُرْتُ بِالبُرْدَيْنِ إرْثِ مُحَرِّقٍ لَمْ يَخْلَقَا إِذْ تَخْلَقُ الأَبْرادا
وَعَرَفْتُ مِنْ ذِي الطَّوْقِ عَمْرٍو وَثَأْرِهِ لِجُذَيْمَةَ الوَضَّاحِ حِينَ يكادا
وَأَتَى بيَ النُّعْمَانَ يَوْمَ نَعيمِهِ نَجْمٌ تَلَقَّى سَعْدَهُ المِيلادا

(١) المرجع السابق .

قَـدْ أَلَّفَتْ أَشْتَاتُهُمْ فِي وَاحِـدٍ إِلَّا يَكُـنْهُـمْ أُمَّـةً فَـيَـكَـادُ[1]

وقد ذكر المنذرين ومحرقا وعمرا وجذيمة والنعمان وهم ملوك المناذرة ، إذ كان بنو عباد ينتسبون إليهم .

وفي قصيدة أخرى يقول :

أَلَيْسَ بَنُـو عَبَّـادَ القِبْلَةَ الَّـتِي عَلَيْهَـا الآمَـالِ البَـرِيَّـةِ مَعْكَفُ
مُلوكٌ يُرَى أَحْيَاؤُهُم فَخْرَ دَهْرِهِمْ وَيَخْلِفُ مَـوْتَـاهُمْ ثَنَـاءَ مُخْلِّفِ[2]

وأما المعتمد فلابن زيدون فيه مدائح كثيرة في إمارة أبيه وإمارته ، تُعْرِب عن إحماد صحبته ، وشكر نعمته . وقد أولع المعتمد بالإلغاز عن أبيات من الشعر يطلب إلى ابن زيدون بيانها . وفي ديوان ابن زيدون الكثير منها .

وحسب الشاعر أن يكتب إليه المعتمد قصيدة يعاتبه بها على تأخّر جوابه عن شعر بعث به ، يقول فيها :

عَلَى ذَاكَ أَفْدِيكَ مِنْ مَاجِدٍ تَشَبَّثَ بِـالظَّرْفِ فيـه الهُـدَى
فَـحِـينـاً أَزُورُ بِـهِ رَوْضَـةً وَحِينـاً أُحَيِّ بِـهِ مَسْجِـدا
لَـكَ العِلْمُ مَـهْـمَا أَرِدْ بَحْـرَهُ لأَرْوَى بِـهِ أَحْمَـدَ المَـوْرِدا
وَفِـيـكَ تَجَمَّـعَتِ المَـأْثُـراتُ طِـرًّا ، فَصِـرْتَ بِهَـا مُفْـرَدا
شَمَـائِلُ تَنْـثُرُ شَمْـلَ الهُمُـومِ نَثْـرَكَ بِـالـرَّأْيِ شَمْـلَ العِـدا
فَمَـتَّعَـنِي الله بِـالحَظِّ مِـنْـكَ وَلَا زِلْتَ لِي مُؤْنِسـاً سَرْمَـدا
وَدُمْـتَ وَدُمْنـا عَـلَى حَـالِنَـا كَمَا يَصْحَبُ الفَـرْقَـدُ الفَرْقَـدا
فـلولاك كـانت ربـوع السرور مني تجـاوب فيهـا الصـدى[3]

---

(١) انظر المعتمد بن عباد الملك الجواد الشجاع الشاعر المرزّأ صفحة ٢٥ .
(٢) المرجع السابق ٢٦ .
(٣) المرجع السابق .

فأجاب ابن زيدون بقصيدة منها ، قوله :

وَطَـاعَـةُ أَمْـرِكَ فَـرْضٌ أَراهُ ... مِـنْ كُـلِّ مُـفْـتَـرَضٍ أَوْكَـدا

هِيَ الشَّرْعُ أَصْبَحَ دينَ الضَّميرِ ... فَلَوْ قَـدْ عَصَـاكَ لَقَـدْ أَلْحَـدا

وَحَاشَايَ مِنْ أَنْ أَضَلَّ الصِّراطَ ... فَيَعْـدُو بِيَ الكُفْـرُ عَـمَّا بَـدا

وَأُخْلِفُ بِـالـوَعْـدِ مَنْ لاَ أَرَى ... لِـدَهْـرِيَ إلاَّ بِـهِ مَـوْعِـدا

أَتَـاني عِـتَـابُ مَـتَى أُوكِـدُهُ ... في نَشَـواتِ الكَـرَى أَسْهَـدَا[1]

وفي أبيات المعتمد وابن زيدون ما يُري القارىء أن المعتمد لا يقصر في النظم عن الشاعر العظيم الكبير . ويَطَّرِدُ هذا فيما نراه في ديوان ابن زيدون من شعر له ، وللمعتمد في مراسلاتهما ومساجلاتهما . ما عدا القصائد المطولة التي لا نجد للمعتمد أمثالها .

ومما ينبغي ذكره هنا ، أن أحد حسّاد ابن زيدون ، أرسل إلى المعتمد شعراً يُعرِّض فيه بابن زيدون ، ويغري المعتمد بقتله ، وقتل كلِّ من يرتاب فيه ، ويتبع سنّة أبيه في قتل أعدائه ، وأول الشعر :

يـا أَيُّهـا المُلِكُ العَـلِيُّ الأَعْـظَمُ ... اقْـطَعْ وَرِيدَيْ كُـلِّ بَاغٍ يَنْسِمُ

وَاحْسِمْ بِسَيْفِكَ دَاءَ كُلِّ مُنَـافِقٍ ... يُبْدِي الجميلَ وَضِدَّ ذَلِكَ يَكْتُمُ

لاَ تَحْقِـرَنَّ مِنَ الـكَـلاَمِ قَليـلَهُ ... إِنَّ الكَـلامَ لَهُ سُيـوفٌ تَكْلِمُ[2]

وهي سبعة وعشرون بيتاً على هذا المنوال .

فكتب المعتمد على ظهر الرقعة التي فيها الشعر :

كَذَبَتْ مُنَاكُمْ ، صَرِّحُوا أَوْ جَمْجِمُـوا ... الـدِّينُ أَمْتَنُ وَالسَّجِيَّـةُ أَكْـرَمُ

---

(١) المعتمد بن عباد الملك الجواد الشجاع للدكتور عبد الوهاب عزام ٢٦ .

(٢) المرجع السابق .

خنتُمْ ، وَرُمْتُمْ أَنْ أَخُونَ وَإِنَّمَا حَاوَلْتُمْ أَنْ يُسْتَخَفَّ يَلَمْلَمُ
وَأَرَدْتُمُ تَضْييقَ صَدْرٍ لَمْ يَضِقْ وَالسُّمْرُ في ثُغْرِ الصُّدورِ تُحَطَّمُ
وَزَحَفْتُمُ بِمُحَالِكُمْ لِمُجَرِّبٍ مَا زَالَ يَثْبُتُ لِلْمُحَالِ فَيُهْزَمُ
أَنّى رَجَوْتُمْ غَدْرَ مَنْ جَرَّبْتُمُ مِنْهُ الوَفَاءَ وَظُلْمَ مَنْ لاَ يَظْلِمُ
أَنَا ذَاكُمُ لَا البَغْيُ يُثْمِرُ غَرْسُهُ عِنْدي ، وَلاَ مَبْنَى الصَّنيعةِ يُثْلَمُ
كُفُّوا وَإِلاَّ فَارْقُبُوا لي بَطْشَةً يُلْقَى السَّفيهُ بِمِثْلِهَا فَيُحَلَّمُ[1]

وبلغت القصّة ابن زيدون ، فأنشأ خمسين بيتاً يمدح المعتمد ويشكره على تخييب مسعاة الساعين ، منها قوله :

أَنَّى أُؤَدِّي فَرْضَ أَنْعُمِكَ الَّتي وَبَلَتْ كَمَا وَبْلُ السَّحَابِ المُثْجَم
أَمْطَيْتَني مَتْنَ السِّمَاكِ بِرُتْبَةٍ عَلْيَاءَ مَنْكِبُ عِزِّهَا لاَ يُزْحَمُ
وَتَرَكْتَ حُسّادِي عَلَيْكَ وَكُلُّهُمْ شَاكي حَشَا يَذْوي ، وَأَنْفٌ يُرْغَمُ
نَصَحَ العِدَا في زَعْمِهِمْ فَوَقَمْتَهُمْ وَالغِشُّ في بَعْضِ النَّصَائِحِ مُدْغَمُ
وَثَنَاهُمُ ثَبْتٌ ، قَنَاةُ أَنَاتِهِ خَلْقَاءُ يَصْلُبُ عُودُهَا إِذْ يُعْجَمُ
وَزَهَاهُمُ نَظْمُ الهُرَاءِ فَكَفَّهُمْ نَظْمٌ ، عَقُودُ السِّحْرِ مِنْهُ تُنْظَمُ[2]

٥ ـ اتصل الشاعر ابن عمار بالمعتضد بن عباد ، وبالمعتمد في أيّام أبيه المعتضد وله فيهما مدائح ، وكان المعتمد قاد جيشاً إلى شلب ففتحها سنة ٤٤٤ هـ ، ولقي هناك أبا بكر بن عمّار . وتمكّنت بينهما المودّة ، ومدح الشاعر أميره وصديقه بقصائد بليغة سارت بين الأدباء وذاعت .

وصحب ابن عمّار المعتمد إلى اشبيلية ، فأقام معه ، إلى أن أنكر المعتضد شغل ابنه بهذا الشاعر ، فناه إلى سرقسطة .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق .

ولما تولّى المعتمد بعد وفاة أبيه ٤٦١ هـ دعا صديقة الشاعر وخيَّره في ولاية يولّاها ، فاختار شلب . ثم لم يصبر المعتمد عنه ، فدعاه إلى حضرته واستوزه ، وشارك ابن عمّار في حروب المعتمد التي دفع بها الإسبان عن أشبيلية ، كما شارك من قبل أبو الطيّب المتنبيّ في حروب سيف الدولة .

وفتح ابن عمّار مرسية للمعتمد ، فملكه العُجب ، وتزيًّا بزي الأمراء حتى ارتاب فيه المعتمد . ونظم ابن عمّار قصيدة يفخر فيها ، ويحرض أهل بلنسية على الثورة على أميرها ، وكان صديق المعتمد ، وأوّل القصيدة :

بَشِّرْ بَلَنْسِيَـةً ، وَكَـانَتْ جَـنَّـةً   أَنْ قَـدْ تَدَلَّتْ في سَـواءِ النَّـارِ

ويقول فيها :

كَيْفَ التَّقَلُّبُ بِالخَديعَةِ مِنْ يَدَي   رَجُلِ الحَقيقَةِ مِنْ بَني عَمَّـارِ[1]

فغضب المعتمد على ابن عمّار ، وعارض قصيدته بشعر فيه سخرية ببني عمّار .

فثار الشاعر وأنشأ شعراً هجابه المعتمدَ ، وأمَّ أولاده الرميكية ، هجاءً مقذعاً .

ووقعت نسخة من الشعر بخطّ ابن عمّار في يد المعتمد ، وانتهت الحادثات بأسر ابن عمّار في بعض مغامراته ، فأسلمه آسره إلى المعتمد ، فحبسه وقتله .

وممّا كتبه المعتمد للوزير ابن عمّار أيّام صداقتهما :

لَمَّا نَأَيْتَ نَأَى الكَرىَ عَنْ نَاظِري   وَرَدَدْتَـهُ لَـمَّـا رَجَـعْتَ عَـلَيْـهِ[2]

طَلَبَ البَشـيرُ بِشَارَةً يُجْـزَى بِهَـا   فَـوَهَبْتُ قَلْبيَ ، وَاعْتَـذَرْتُ إِلَيْـهِ

(١) المعتمد بن عباد للدكتور عبد الوهاب عزام .

(٢) في نفح الطيب (لمّا انصرفت إليه) .

وجاء في نفح الطيب : ركب المعتمد في بعض الأيّام قاصداً الجامع ، والوزيرُ أبو بكر بن عمّار يسايره . فسمع المؤذّن ، فقال المعتمد :

هذا المؤذن قد بدا بأذانه

فقال ابن عمار :

يرجو بذاك العفو من رحمانه

فقال المعتمد :

طوبى له من شاهد بحقيقة

فقال ابن عمار :

إن كان عقد ضميره بلسانه[1] .

وأدخلت على المعتمد يوماً باكورة نرجس ، فكتب إلى ابن عمّار يستدعيه :

قَدْ زَارَنَا النَّرْجِسُ الذَكيُّ وَآنَ مِنْ يَوْمِنَا العِشِيُّ
وَعِنْدَنَا مَجْلِسٌ أنيقٌ وَقَدْ ظَمِئْنَا وَفيهِ رِيُّ
وَلِي خَليلٌ غَدَا سَمِيّ يَا لَيْتَهُ سَاعَدَ السَّمِيُّ[2]

فأجابه ابن عمار :

لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ مِنْ مُنَادٍ لَه النَّدى الرَّحْبُ وَالنَّدِيُّ
هَا أنَا بِالبَابِ عَبْدُ قِنّ قِبْلَتُه وَجْهُكَ السَّنِيُّ
شَرَّفَهُ وَالِدُهُ بِاسْمٍ شَرَّفْتَهُ أنْتَ وَالنَبِيُّ

وكان المعتمد غضب على ابن عمار في بعض الحادثات . وعتب ابن عمّار على المعتمد ، فكتب إليه يعتب ويطلب الصفح في قصيدة ، مطلعها :

أأسْلُكُ قَصْدي أمْ أعُوجُ عَنِ الرَّكْبِ فَقَد صِرْتُ مِنْ أمْري عَلَى مَرْكَبٍ صَعْبِ

---

(١) نفح الطيب ٥/١٤٩ .

(٢) المعتمد وابن عمار كلاهما اسمه محمد .

وَأَصْبَحْتُ لَا أَدْري ، أَفي البُعْدِ رَاحتي فَأَجْعَلُه حَظِّي ، أَمْ الحَظُّ في القُرْبِ ؟

ويقول فيها :

أَهَابُكَ لِلْحَقِّ الَّذي لَكَ في دَمي وَأَرْجُوكَ لِلْحُبِّ الَّذي لَكَ في قَلْبي
أَيُظْلِمُ في وَجْهي كَذَا قَمَرُ الدُّجَى وَتَنْبُو بِكَفِّي صَفْحَةُ الصَّارِمِ العَضْبِ ؟

إلى أن يقول :

أَمَا إِنَّهُ لَوْلَا عَوَارِفُكَ الَّتي جَرَتْ جَرَيَانَ المَاءِ في الغُصْنِ الرَّطْبِ
لَمَا سُمْتُ نَفْسي مَا أَسُومُ مِنَ الأَذَى وَلَا قُلْتُ : إِنَّ الذَّنْبَ فيما جَرَى ذَنْبي[1]

فأجاب المعتمد بن عباد :

تَقَدَّمْ إلى ما اعْتَدْتَ عِنْدي مِنَ الرَّحْبِ وَرِدْ تَلْقَكَ العُتْبَى حِجاباً مِنَ العَتْبِ
مَتَى تَلْقَني تَلْقَ الَّذي قَدْ بَلَوْتَهُ صَفُوحاً عَنِ الجَاني رَؤوفاً عَلَى الصَّحْبِ
سَأُوليكَ مِنِّي مَا عَهِدْتُ مِنَ الرِّضَا وَأَصْفَحُ عَمَّا كَانَ إِنْ كَانَ مِنْ ذَنْبِ
تَكَلَّفْتُهُ أَبْغي بِهِ لَكَ سَلْوَةً وَكَيْفَ يُعاني الشِّعْرَ مُشْتَرَكُ اللُّبِّ
فَمَا أَشْعَرَ الرَّحْمَنُ قَلْبِي قَسْوَةً وَلَا صَارَ نِسْيَانُ الأَذِمَّةِ مِنْ شَعْبي

ولكنّ الشاعر أشفق من العودة إلى المعتمد ، فاستمرّ على نفاره حتى أسلمته الحوادث إلى يد المعتمد . وقصيدة ابن عمّار التي هجا فيها المعتمد مطلعها :

أَلَا حَيِّ بِالغَرْبِ حَيّاً حَلَالَا أَنَاخُوا جِمَالاً وَحَازُوا جَمَالَا
وَعَرِّجْ بِيُومِينَ أُمَّ القُرى وَنَمْ فَعَسى أَنْ تَرَاهَا خَيَالَا[2]

ويقول فيها عن الرميكية أمّ أولاد المعتمد :

تَخَيَّرْتَهَا مِنْ بَنَاتِ الهِجَانِ رُمَيْكِيَّةً مَا تُسَاوِي عِقَالَا

---

(١) المعتمد بن عباد الملك الجواد الشجاع للدكتور عبد الوهاب عزام ٢٩ .
(٢) يومين : قرية باشبيلية كان منها أولية بني عباد .

فَجَـاءَتْ بِكُـلِّ قَصيرِ الغِـذارِ لَئِيمِ النِّجـارَيْنِ عَمّـاً وَخَـالاَ
قِـصَـارِ القُـدودِ وَلَـكِـنَّـهُـمْ أَقَـامُـوا عَلَيْهَـا قُـروناً طِوَالاَ

إلى أن يقول :

سَـأَهْتِكُ عِـرْضَـكَ شَيْئـاً فَشَيْئـاً وَأَكْشِـفُ سِـرَّكَ حَـالاً فَحَـالاَ

ومنها :

فَيَـا عَـامِـرَ الخَيْـلِ يَـا زَيْـدَهَـا مَنَعْتَ القِـرَى وَأَبَحْتَ العِيَـالاَ

وهذا من ابن عمّار كفران نعمة وحمق . أنشأ هذا الهجاء وظنّ أنّه يخفى على المعتمد ، فبلغه بخطّ ابن عمّار كما قيل ، فكان فيه حتفه .

ومما أستعطف به المعتمد وهو في سجنه ، قصيدة أوّلها :

سَجَايَاكَ إِنْ عَافَيْتَ أَنْدَى وَأَسْمَحُ وَعُذْرُكَ إِنْ عَاقَبْتَ أَجْلَى وَأَوْضَحُ
وَإِنْ كَـانَ بَيْنَ الخِطَّتَيْنِ مَـزِيَّـةٌ فَأَنْتَ إِلَى الأَدْنَى مِنَ اللهِ أَجْنَحُ

ويقول فيها :

أَقِلْني بِمَا بَيْني وَبَيْنَكَ مِنْ رِضاً لَـهُ نَحْوَ رَوْحِ اللهِ بَـابٌ مُفَتَّحُ
وَعُفَّ عَـلَى آثَـارِ جُـرْمٍ جَنَيْتُـهُ بِهَبَّةِ رُحْمى مِنْكَ تَمْحُو وَ تَصْفَحُ
وَلَا تَلْتَفِتْ رَأْيَ الوُشَاةِ وَقَـوْلَهُمْ فَكُـلُّ إِنَاءٍ بِـالَّذِي فِيـهِ يَرْشَـحُ

ويختمها بقوله :

سَلاَمٌ عَلَيْهِ كَيْفَ دَارَ بِهِ الهَوَى إِلَيَّ فَيَـدْنُـو ، أَوْ عَـلَيَّ فَيَنْـزَحُ
وَيَهْنيـهِ إِنْ مِتُّ السُـلُوَّ فَـإِنَّنِي أَمُـوتُ وَلِي شَوْقٌ إِلَيْـهِ مُبَرِّحُ[1]

٦ ـ عبد الجليل بن وهبون ، يقول صاحب قلائد العقيان في ترجمة هذا

---

(١) المعتمد بن عباد للدكتور عبد الوهاب عزام ٣٠ .

الشاعر إنّه كان متّصلاًبالوزير الشاعر ابن عمّار «فأعلقه بدولته وألحقه بجملته ونفقه بعد الكساد ، وطوقه من استخلاصه ما أغاظ به الحسّاد . كان يعتقد تقدُّمه ، ويعقد بنواصي الشعراء قدمه ، إلاّ أنّه مع تمييزه له بالإحظاء ، وتجويزه إيّاه عند الاقتضاء ، لم يوصله عند المعتمد إلى حظٍّ ، ولم ينله منه إلاّ كرَّة لَحْظ» .

ويقول أيضاً في ترجمته :« ودخل المرية وقد أحرج المعتمدَ على الله وأضجره ، حتى أبعده وهجره . فلما كان يوم العيد وحضر المعتصمَ شعراؤه ، واجتمع كتابه ووزراؤه ، بعث في عبد الجليل ، فتأخّر وزَرَى بالحال وسَخر ، وقال : أَبَعْدَ المعتمدِ أحضرُ منتدًى ؟ أو أستمطرُ جواداً و ندى ؟ وهل تروق الأعياد إلاّ في فنائه ، أو تحسن الأمداح إلاّ في سنائه :

دَنَا العيدُ لَــو تَدْنُو لَنا كَعْبَةُ المُنَى   وَرُكْنُ المَعالي مِنْ ذَوائِبِهِ يعـرَبُ
فَـوَا أَسَفاً لِلشِّعْـرِ تُـرْمى جِمَـارُهُ   وَيَا بُعْدَ مَـا بَيْني وَبَيْنَ المُحَصَّبِ

وفي نفح الطيب أنَّ المعتمد جلس يوما والبزاة تعرض عليه ، فاستحثَّ الشعراء في وصفها ، فصنع ابن وهبون بديهاً[1] :

لِلصّيــدِ قَبْلَكَ سُنَّــةٌ مَــأْثُـورَةٌ   لـكِنَّهــا بِـكَ أَبْـدَعَ الأَشْيَــاءِ
تَمْضي الـبُـزَاةُ وَكُلَّمَا أَمْـضَيْـتَهَــا   عَاطَيْتَهَا بِخَـواطِـرِ الشَّــعَـراءِ

وروي أنّه كان في قصر المعتمد فيل من الفضة ، يتدفّق الماء من فمه إلى بركة ، أعجب به ابن وهبون فقال فيه قصيدة يصفه . وهكذا يُعدُّ ابن وهبون من الشعراء الذي اتصلوا بالمعتمد وعاشوا في كنفه . وسيأتي في أخبار معركة الزلاّقة أنّه كان ممن حضرَ مجلس المعتمد حين هنّأه الناس ، وأنّه أعدَّ قصيدة في هذا .

٧ ـ ومن الشعراء الذين مدحوا المعتمد «ابن القزاز» محمّد بن عبادة . وله

---

(١) نفح الطيب ٢٩٣/٦ .

قصيدة يذكر فيها جرح يد المعتمد في وقعة الزلّاقة ، يقول فيها :

جَلَبْتَ إلى الأَعَادِي أُسْدَ غَابٍ ... بَـراثِنُـهَـا الأَسِـنَّـةُ وَالـصِّـفَـاحُ
وقفتَ ومـوقفُ الهيجاءِ ضنـكٌ ... وفيـه لباعِكَ الـرحبِ انفسـاحُ
وألـسِـنـةُ الأسـنّـةِ قـائـلاتٌ ... إذا ظـهـرَ المؤيـدُ لابـراحُ[1]

ومنها قوله :

وقالوا : كفُّه جُرحتْ ، فقلنا : ... أعـاديـهِ تُـوافـقـهـا الجـراحُ
ومـا أثـرُ الجِـراحـةِ مـا رأيتُم ... فتوهنُها المنـاصـلُ والـرمـاحُ
ولكنْ فـاضَ سيلُ الجـودِ فيها ... فـأمسىٰ في جَـوانِبهـا انسياحُ
وقد صحَّـتْ وسحَّـتْ بالأمـاني ... وفـاضَ الجـودُ منهـا والسـماحُ

٨ ـ ومن شعراء المعتمد ابن مرزقان مولاه ، وأبو الوليد المصيصي ، وابن المرعز النصراني الأشبيلي[2] وغيرهم .

وقلَّ أن تجد شاعراً في الأندلس أو ما يقاربها من البلاد إلّا اتصل بالمعتمد ومدحه ونال جوائزه . هذا بالإضافة إلى شعراء اتصلوا بالمعتضد ومدحوه ، ولم يدركوا إمارة المعتمد ، مثل علي بن حصن ، فقد استوزره المعتضد ثم فتك به[3] .

ومن غريب ما يُروى أنَّ الحصري الشاعر ، كان ألَّف للمعتمد كتاب «المستحسن من الأشعار» فلم يقدر له لقاء المعتمد إلّا حين اجتاز إلى طنجة أسيراً .

يقول صاحب النفح : «فلما أخذ المعتمد الكتاب قال للحصري : ارفع

---

(١) المغرب ٢/١٣٤ .
(٢) المغرب ١/٢٦٤ .
(٣) المغرب ١/٢٤٥ .

ذلك البساط فخذ ما تحته ، فوالله ما أملك غيره . فوجد تحته جملة مال فأخذه»[1] .

٣ ـ ضعف عرب الأندلس وزوال دولة بني عبّاد . .

ضعفت سطوة المسلمين في الأندلس ، بعد عبد الرحمن الناصر ٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ وبعد المنصور بن أبي عامر ٣٦٦ ـ ٣٩٣ هـ إذ ضعفت الدولة الأمويّة التي سيطرت على البلاد قويّة مهيبة ما بين سنة ١٣٨ ـ ٤٠٠ هـ ، ثم زلزلت حتى زالت سنة ٤٢٢ هـ .

وتَقَسَّمَ ملوكُ الطوائف البلاد بينهم متنافسين متنازعين ، وكانت دولة بني عباد قد قامت في إشبيلية سنة ٤١٤ هـ على يد عميدها محمّد بن إسماعيل بن عبّاد . وأصبح ألفونسو السادس يعين بعض ملوك الطوائف على بعض ، ويتدخَّل في شؤون الممالك ، وفرض على المعتمد جزية يؤدّيها سنوياً واشتطَّ فيها ، فغضب المعتمد وقتل الرسل وعزم على الحرب ، وهو يعلم أنّه لا قبل له بالعدوِّ وإن اعتضد بملوك الطوائف جميعاً ، ففاوض هؤلاء الملوك في الإستنجاد بيوسف بن تاشفين سلطان المرابطين الذين قامت دولتهم في المغرب ٤٤٨ ـ ٥٤٠ هـ فتية قوية فيها قوة البادية وشظفها وخشونتها ، وفيها الحماسة الإسلاميّة لم يطفئها الترف ، ولم يوهنها السكون إلى الدعة وإثار العاقبة .

ويروي لنا عبدالله الحميري الأندلسي صاحب «الروض المعطار» قصَّة موقَّعة الزلاّقة وما بعدها ، نوجزها قدر الإمكان . وقد فسد الصلح ما بين الطاغية ألفونسو وبين المعتمد ، فلم يؤدِّ هذا الضريبة بسبب إنشغاله بغزو ابن صمادح صاحب المرية ، فاستشاط ذاك غضباً واشتط بطلباته وسفر بينهما يهودي كان وزيراً

---

(١) المغرب ٥/٣٧٩

لابن فرذلند ، وشافَهَ ابنَ عبّاد بما لم يحتمله ، فأخذ محبرة كانت بين يديه فأنزلها على رأس اليهوديّ فألقى دماغه في حلقه ، وأمر به فصلب منكوساً بقرطبة .

وبلغ ألفونسو ما صنع ابن عباد ، فأقسم ليغزونّه بإشبيلية ويحصره في قصره . فجّرد جيشين جعل على أحدهما كلباً من مساعير كلابه ، وأمره أن يسير على كورة باجة غرب الأندلس ويغير على التخوم والجهات ، ثم يمّر على لَبلة إلى إشبيلية ، وجعل موعده إيّاه طريانة للإجتماع معه . ثم زحف ابن فرذلند بنفسه في جيش آخر عرمرم ، وسلك طريقاً غير طريق صاحبه وعاث كلاهما في بلاد السلمين وخرَّبا ودمرّا، حتى اجتمعا لموعدهما بضفة النهر الأعظم قبالة قصر ابن عبّاد . وكتب إلى ابن عبّاد زارياً عليه ، فوقع له ابن عبّاد بخطّ يده في ظهر الرقعة يسخر منه ويستهزىء به . ولّما ترجم له ذلك أطرق إطراق من لم يخطر له ذلك ببال . وفشا في بلاد الأندلس خبر توقيع ابن عبّاد وما أظهره من العزيمة على إجازة الصحراويين والإستظهار بهم على ابن فرذلند .

فاستبشر الناس وفتحت لهم أبواب الآمال . وانفرد ابن عبّاد بتدبير ما عزم عليه من مداخلة يوسف بن تاشفين . ورأت ملوك الطوائف بالأندلس ما عزم عليه ، فمنهم من كتب إليه ، ومنهم من شافهه ، وكلّهم يحذّره سوء عاقبة ذلك ، وقالوا له : الملك عقيم ، والسيفان لا يجتمعان في غمد واحد .

فأجابهم ابن عبّاد بكلمته السائرة مثلاً : «رعي الجمال خير من رعي الخنازير» أي أنَّ كَوْنَهُ مأكولاً لابن تاشفين أسيراً يرعى جماله في الصحراء، خير من كونه ممزقاً لابن فرذلند أسيراً يرعى خنازيره في قشتالة .

وكان المعتمد مشهوراً برزانة الإعتقاد ، وقال لعّذاله ولوّامه : يا قوم ، أنا من أمرى على حالتين : حالة يقين ، وحالة شك ، ولابدّ لي من أحدهما :

أمّا حالة الشك ؛ فإني إن استندت إلى ابن تاشفين ، أو إلى ابن فرذلند ، ففي الممكن أن يفيا لي ويبقيا عليّ ، ويمكن ألّا يفعلا ، فهذه حالة الشك .

وأمّا حالة اليقين فهي أني إن استندت إلى ابن تاشفين فأنا أرضي الله . وان استندت إلى ابن فرذلند أسخطت الله .

فإذا كانت حالة الشك فيها عارضه ، فلأي شيء أدَعُ ما يرضي الله وآتي ما يُسخطه . وحينئذ أقصرَ أصحابه عن لومه .

فلمّا عزم المعتمد خاطب جارَيْهِ : المتوكّل عمر بن محمّد صاحب بطليوس ، وعبدالله بن حبوس بن ماكسن الصنهاجي صاحب غرناطة، يأمرهما أن يبعث إليه كلّ واحد منهما قاضي حضرته ، ففعلا . ثم استحضر قاضي الجماعة بقرطبة أبا بكر عبيدالله بن أدهم وكان أعقل أهل زمانه . فلمّا اجتمع القضاة عنده بإشبيلية ، أضاف إليهم وزيره أبا بكر بن زيدون[1] وعرفهم أنّهم رسله إلي يوسف بن تاشفين . وأسند إلى القضاة ما يليق بهم من وعظ يوسف وترغيبه في الجهاد ، وأسند إلى ابن زيدون ما لابدّ منه في تلك السفارة في إبرام العقود السلطانية .

وتعذر على صاحب سبتة أن تجوز سفن ابن تاشفين إلى الأندلس . فأرسل ابن عبّاد من إشبيلية أسطولاً نحو صاحب سبتة فانتظمت في سلك يوسف ، ثم عبر البحر بيسر حتى أتى الجزيرة فخرج إليه أهلها بما عندهم من الأقوات والضيافات ، وحين اتّجهت الجيوش إلى إشبيلية بعث المعتمد ابنه إلى لقاء يوسف ، ممّا سرَّ يوسف ونشطه ، ثم خرج بنفسه والتقيا منفردين وتصافحا وتعانقا ، وشكرا نعم الله ، وتواصيا بالصبر والرحمة ، وبشّرا نفسهما بما استقبلاه

---

(١) هو ابن الشاعر أبو الوليد ابن زيدون .

من غزو أهل الكفر . ولم يبق من ملوك الطوائف بالأندلس إلّا من بادر وأعان وخرج وأخرج .

ولمّا تحقّق ابن فرذلند جواز يوسف ، استنفر جميع أهل بلاده وما يليها وما وراءها . ورفع القسّيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم ، ونشروا أناجيلهم . وكان المختارون من أنجاد جموعه أربعين ألفَ دارعٍ ، قال : بهؤلاء أقاتل الجنَّ والإنس وملائكة السماء . ثم خرج ابن فرذلند ووقف على الدروب ، ومال بجيوشه إلى الجهة الغربيّة من بلاد الأندلس ، فتقدّم يوسف قصده . وتأخّر ابن عبّاد لبعض الأمر ، ثم اندفع يقفو أثره بجيش فيه حماة الثغور ورؤساء الأندلس ، وجعل ابنه عبدالله على مقدمته ، وسار وهو يتفاءل لنفسه ، مكملاً البيت المشهور :

لأبُـدَّ مِـنْ فَـرَجٍ قَـريـبْ يَـأْتيـكَ بِـالعَـجَبِ العَجيبْ
غَـزْوٌ عَـلَيْـكَ مُـبْـارَكٌ سَيَعُـودُ بِـالفَتْـحِ القَـريـبْ
لله سَـعْـدُكَ إنَّـهُ نَـكْسٌ عَـلَى دينِ الصَّليـبْ
لَابُـدَّ مِـنْ يَـوْمٍ يَـكُـونُ أخـاً لـه يَـومُ القَـليـبِ[1]

ووافت الجيوش كلّها بطليوس فأناخوا بظاهرها ، وخرج إليهم صاحبها المتوكّل عمر بن محمد فلقيهم بما يجبُ من الأقوات. ثم جاءهم الخبر بشخوص ابن فرذلنذ إليهم . فأذكى المعتمد عيونه في محلّات الصحراويّين خوفاً عليهم من مكايد ابن فرذلند ، وكان يطوف بنفسه بعد ترتيب الكراديس فلا يكاد الخارج منهم حتى يرى ابن عبّاد . ثم كتب ابن عبّاد إلى ابن فرذلند يدعوه إلى الإسلام أو الجزية أو يأذنه بحربه. فامتلأ غيظاً وعتا وطغا، فأوقد نار الحرب وقامت

(١) يوم القليب : هو يوم معركة بدر .

الأساقفة والرهبان فرفعوا صلبانهم ونشروا أناجيلهم وخرجوا يتبايعون على الموت . ووعظ يوسف وابن عبّاد أصحابهما . وجاءهم الطلائع بخبر أن العدو مشرف عليهم صبيحة يومهم الأربعاء . فأصبح المسلمون وقد أخذوا مصافهم . فكعَّ ابن فرذلند ورجع إلى إعمال الحيلة . وأرسل إلي المعتمد يقول : غداً يوم الجمعه وهو عيدكم ، وبعده الأحد وهو عيدنا ، فليكن لقاؤونا بينهما وهو يوم السبت .

فعرّف المعتمد بذلك يوسف فقال : نعم .

فقال له المعتمد هذه خديعة من ابن فرذلند ، إنما يريد غدر المسلمين . فلا تطمئن إليه وليكن الناس على إستعداد له طول يوم الجمعة ، وبات الناس على أهبة واحتراس في كل مكان خائفين من كيد العدو . ثم جاء في الليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفا على محلة ابن فرذلند وسمعا ضوضاء الجيوش واضطراب الأسلحة ، ثم تلاحق بقيّة الطلائع محققين بتحرُّك العدو ، ويؤكِّد أحد الجواسيس قال : سمعنا ابن فرذلند يقول لأصحابه : ابن عبّاد مسعِّر هذه الحروب ، وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا أهل حفاظ وذوي بصائر في الجهاد فهم غير عارفين بهذه البلاد، وإنما قادهم ابن عبّاد، فاقصدوه واهجموا عليه واصبروا . فإن انكشف لهم هان عليهكم الصحراويون بعده ، ولا أرى ابن عباد يصبر لكم إن صدقتموه الحملة .

وعند ذلك بعث ابن عبّاد كاتبه أبا بكر بن القصيرة يطوي المحلات حتى جاء يوسف فعرَّفه بجلية الأمر . فقال له : قل له إني سأقرب منك إن شاء الله تعالى . وأمر يوسف بعض قوّداه أن يمضي بكتيبة رسمها له حتى يدخل محلة النصارى فيضرمها ناراً مادام ابن فرذلند مشتغلاً مع ابن عباد .

وانصرف ابن قصير إلى المعتمد فلم يصله إلاّ وقد غشيه جنود ابن فرذلند ، فصدمها ابن عباد صدمة قطعت أمله ولم ينكشف له ، فحمّيت الحرب بينهما ، ومال ابن فرذلند على المعتمد بجموعه وأحاطوا به من كل جهة ، فاستحر القتل فيهم ، وصبر ابن عباد صبراً لم يعهد مثله لأحد ، واستبطأ يوسفَ وهو يلاحظ طريقه ، وعضته الحرب واشتد البلاء وأبطأ الصحرايون ، وساءت ظنون أصحابه ، وانكشف بعضهم وفيهم ابنه عبدالله ، وأثخن ابن عبّاد جراحات ، وضُرب على رأسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت إلى صدغيه ، وجرحت يمنى يديه ، وطعن في أحد جانبيه ، وعقرت تحته ثلاثة أفراس ، كلّما هلك واحد قُدِّم له آخر ، وهو يقاسي حياض الموت ، ويضرب يميناً وشمالاً ، وتذكّر في تلك الحالة ابناً له صغيراً كان مغرماً به تركه بإشبيلية عليلاً اسمه العلاء وكنيته أبو هاشم ، فقال :

أَبَــا هَــاشِم هَشَمَتْنِي الشِّفَــارُ ... ولله صَــبْرِي لِــذَاكَ الأَوَارِ

ذَكَرْتُ شُخَيْصَكَ تَحْتَ العَجَاجِ ... فَــلَمْ يَـثْـنِـنِي ذِكْــرُهُ لِــلْفِــرَارِ

ثم كان أوّل من وافى ابن عباد من قواد ابن تاشفين ، داود بن عائشة ، وكان بطلاً شهماً فنفَّسَ بمجيئه عن ابن عبّاد ، ثم أقبل يوسف بعد ذلك وطبوله تصدع الجو . فلما أبصره ابن فرذلند وجه أشكولته إليه وقصده بمعظم جنوده وقد كان على حساب ذلك من أوّل النهار ، وأعدّ له هذه الأشكولة وهي معظم جنوده ، فبادر إليه يوسف وصدمهم بجمعه فردّهم إلى مركزهم ، وانتظم به شمل ابن عبّاد ووجَدَ ريح الظفر وتباشيره بالنصر ، ثم صدقوا جميعاً الحملة فتزلزت الأرض بحوافر خيلهم ، وأظلم النهار بالعجاج والغبار ، وخاضت الخيل بالدماء ، وصبر الفريقان صبراً عظمياً . ثم تراجع ابن عباد إلى يوسف وحمل معه حملة نزل بها النصر ، وتراجع المنهزمون من أصحاب بن عباد حين علموا بالتحام الفئتين ،

فصدقوا الحملة ، فانكشف الطاغية ابن فرذلند وفرّ هارباً منهزماً ، وقد طعن في إحدى ركبتيه طعنة بقي أثرها بقية عمره ، فكان يخمع منها ، فلجأ إلى تلّ كان يلي محلّته في نحو الخمسمئة فارس كلّهم مكلوم . وأباد القتلُ والأسرُ مَن عَداهم من أصحابه ، وعمل المسلمون بعد ذلك من رؤوسهم صوامع يؤذنون عليها . وابن فرذلند ينظر إلى موضع الوقيعة ومكان الهزيمة فلا يرى إلاّ نكالا محيطاً به وبأصحابه .

وكتب ابن عباد إلى ابنه بإشبيلية : «كتابي هذا من المحلة يوم الجمعة عشرين من رجب ٤٧٩ هـ وقد أعز الله الدين ، ونصر المسلمين وفتح لهم الفتح المبين ، وأذاق المشركين العذاب الأليم ، والخطب الجسيم . فالحمد لله على ما يسَّره وسنّاه من هذه الهزيمة العظيمه والمسرّة الكبيره هزيمة إذفونش أصلاه الله نكال الجحيم ولا أعدمه الوبال العظيم ، بعد اتيان النهب على محلاته ، واستئصال القتل في جميع أبطاله وأجناده ، وحماته وقواده . حتى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها . فلله الحمد على جميل صنعه . ولم يصبني بحمد الله تعالى إلاّ جراحات يسيرة آلمت لكنّها قرحت بعد لذلك وغنمتُ وظفرت» .

ولّما فرغ يوسف من وقيعة يوم الجمعه التي سميت «بوقعة الزلاّقة» تواردت عليه أنباء من قبل السفن ، فلم يجد معها بدّاً من سرعة الكرة . فانصرف إلى إشبيلية فأراح بظاهرها ثلاثة أيّام ، ونهض نحو بلاده ، ومشى ابن عباد معه يوماً وليلة . فعزم عليه يوسف في الرجوع . وكانت جراحاته تَثْعبُ ، وتورم كُلْم رأسه . فرجع وأمر ابنه بالمسير بين يديه إلى فُرضةَ المجاز حتى يعبر البحر إلى بلده[1] .

---

(١) الروض المعطار لعبدالله الحميري . المعتمد بن عباد د . عبد الوهاب عزام .

ولما دخل ابن عباد إشبيلية جلس للناس وهُنِّئ بالفتح ، وقرأتِ القُرّاء وقامت على رأسه الشعراء فأنشدوه ، وقال عبد الجليل بن وهبون : حضرت ذلك اليوم وأعَدَدْتُ قصيدة أُنشده إيّاها ، فقرأ القارىء : «إلّا تنصروه فقد نصره الله» إلى آخر الآية ، فقلت : بُعداً لي ولشعري ! والله ما أبقت لي هذه الآية معنى أحضره إليه وأقوم به .

ومن أجود ما قالته الشعراء في وقعة الزلّاقة ، وبلاء المعتمد فيها ، قول ابن حمديس في قصيدة مطلعها :

لِيَهْنَأْ بَني الإِسْلامِ أَنْ أُبْتَ سَالِماً ... وَغَادَرْتَ أَنْفَ الكُفْرِ بِالذُلِّ رَاغِمَا[1]
كَشَفْتَ كُروباً عَنْ قُلوبٍ كَـأَنَّما ... وَضَعْتَ عَلَيْهَا مِنْ هَواكَ خَواتِمَا
صَبَرْتَ لِحُرِّ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ ذَائِداً ... عَنِ الدِّينِ وَاسْتَصْغَرْتَ فِيهِ العظَائِمَا

ويقول في يوسف بن تاشفين وجنده المرابطين :

نَقَمْتَ عَلَى مَنْ آسَفُوكَ بِيُوسُفٍ ... وَمَازِلْتَ مِمَّنْ خَالَفَ الحَقَّ نَـاقِمَا
وَآذَنْتَ عُمَّـارَ القِفَـارِ بِحَـرْبِهِمْ ... فَيَا قُرْبَ مَا شَقُّوا إِلَيْكَ الخَضَارِمَا

ويختم قصيدته بهذه الأبيات :

حَلُمْتُمْ مَراجِيحاً ، وَجُدْتُم أَكَارِماً ... وَسُدْتُمْ بِهَا ليلاً ، وَصُلْتُمْ ضَرَاغِمَا
سَكَنْتُمْ قُلوبَ العَـارِفِينَ مَحَبَّـةً ... كَما سَكَنَ الزَّهْرُ الزَكِيُّ الكَمَائِمَا
نَذَرْتُ نُذوراً فَـاقْتَضاني قَضَـاءُهَا ... إِيابُكَ مِنْ يَوْمِ العَرُوبَةِ سَالِمَا[2]

وللشاعر في يوم الزلّاقة قصيدة أخرى ، مطلعها :

خَلَعْتَ عَـلَى بُنَيَّـاتِ الكُـرومُ ... مَحَاسِنَ مَا خُلِعْنَ عَلَى الرُّسُـومِ

---

(١) وردت في كتاب المعتمد بن عباد للدكتور عبد الوهاب عزام صفحة ٤٣ ليهنىء .
(٢) العروبة : يوم الجمعة وفيه كانت الوقعة .

ويمدح فيها المعتمد فيقول :

فَيَابْنَ الصِّيدِ مِنْ لَخْمٍ ، وَلَخْمٌ بُـدورِ مَطَالِعِ الحَسَبِ الصَّميمِ
إِذَا جَـادُوا فَـأَنْـواء العـطَايَـا وَإِنْ حَلُمـوا فَـأَطْـوَادُ الحُلُومِ

إلى أن يقول :

وَلَمَّـا أنْ أَتَـاكَ بِقَـوْمِ عَـادٍ أَتَيْتَ بِصَـرصَرِ الـرِّيحِ العَقيمِ
وَقَـدْ ضَرَّمْتَ نَـارَ الحَرْبِ حَتَّى حَكَتْ زَفَـراتُهَا قِطَعَ الجَحَيم[1]

وفيها أصاب المعتمد في موقعه الزلّاقة يقول الشاعر محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز :

جَلَبْتَ إلى الأَعَادي أُسْدَ غَابٍ بَـراثِـنُهَـا الأَسِـنَّـةُ وَالـصِّـفَـاحُ
وَقَفْتَ ، وَمَوْقِفُ الهَيْجاءِ ضَنْكٌ وَفيـهِ لِبـاعِـكَ الـرَّحْبِ انْفِسَـاحُ
وَأَلْـسِـنَـةُ الأَسِـنَّـةِ قَـائِـلاَتٌ إِذَا ظَـهَـرَ المُـؤَيَّـدُ لاَبَـراحُ

وعن الجرح الذي أصاب كفَّ المعتمد يقول :

وَقـالُـوا كَفُّهُ جُـرِحَتْ ، فَقُلْنَـا أَعَـاديـه تُـوافِـقُـهـا الجِـراحُ
وَمَـا أَثَـرُ الجِراحَـةِ ما رَأَيْتُمْ ؟ فَتُـوهِنُـهـا المَنَـاصِـلُ وَالـرِّمـاحُ
وَلَكِنْ فَـاضَ سَيْلُ الجُـودِ فيها فَـأَمْسى في جَـوانِبِهَـا انْسِيـاحُ
وَقَـدْ صَحَّتْ وَسَحَّتْ بِـالأَمَـاني وَفَـاضَ الجُـودِ مِنْهَـا وَالسَّمَـاحُ

ويقول الفتح في قلائد العقيان وهو يذكر يوم الزلّاقة : «وكان للمعتمد رحمه الله فيه ظهور ، وغناء مشهور . جلا متكاثفَ عجاجه ، وجلا الرومُ من غيطانه وفِجاجه ، بعد ما لقيَ حره ، وسُقيَ مُره ، وكلم العدو يدَه ، وثلَم عَدده ، وتخاذل فيه رؤساء الأندلس فلم يعمل لهم فيه سِنان ، ولم يكحل جفونهم من قتامه

(١) المعتمد بن عباد للدكتور عبد الوهاب عزام ٤٤ .

عُثان ، والمعتمد يلقى أسنتهم بلبانه ، وتنثني الذوابل ولا يثني من عنانه»[1] .

٤ ـ ما حدث بعد الزلّاقة . . .

جاء في نفح الطيب قوله : «ولّما عزم يوسف بن تاشفين» العودة إلى بلاده ، وترك الأمير سير بن أبي بكر ، أحد قواده المشاهير ، وترك معه جيشاً يرسم غزو الفرنج . فاستراح الأمير المذكور أياماً قلائل ، ودخل بلاد الأذفونش ، وأطلق الغارة ، ونهب وسبى وفتح الحصون المنيعة والمعاقل الصعبة العويصة ، وتوغّل في البلاد ، وحصَّل أموالاً وذخائر عظيمه . ورتَّب رجالاً وفرسانا في جميع ما أخذه . وأرسل للسلطان يوسف جميع ما حصّله . وكتب له يُعرِّفه أنَّ الجيوش بالثغور مقيمة على مكايدة العدو ، وملازمة الحرب والقتال ، في أضيق العيش وأنكده ، وملوك الأندلس في بلادهم وأهليهم في أرغد عيش وأطيبه ، وسأله مرسومه . . . »[2] .

ولهذا عزم يوسف بن تاشفين على خلع ملوك الطوائف ، وإدارة أمر الأندلس ، ولكنّه أراد قبل ذلك أن يستوثق من حكم الشرع فيما هم فيه . فاستفتى العلماء فأفتوه بجواز خلع هؤلاء الملوك المترفين جمعاً لكلمة المسلمين ، وتقوية لهم على الجهاد .

فأمر يوسف قائده سير بن أبي بكر أن ينزل الملوك من معاقلهم ويخرجهم عن ديارهم طوعاً أو كرهاً ، على أن يترك ابن عبّاد آخر واحد منهم ، فيعرض عليه النقله إلى بر العدوة في أهله وعشيرته ، فإنْ أبي فليقاتله ويأخذه قسراً كما فعل بنظرائه .

---

(١) انظر قلائد العقيان صفحة ١٢ .

(٢) نفح الطيب ١٠٤/٦ .

فأوّل ما تبدأبه من ملوك الأندلس بني هود ، ثمّ نازل بني طاهر بشرق الأندلس ، ثم نازل بني صمادح بالمريّة ، ثم قصد بَطَلْيوس ، وكان بها بنو الأ فطس ، ولم يبق إلاّ المعتمد بن عباد ، فقابله وعرض عليه ما رسمه السلطان ، وسأله الجواب ، فلم يجب بنفي ولا إثبات . يقول المراكشي في المعجب : «إن الفتنة بدأت في شوال سنة ٤٨٣ هـ حين أخذ المرابطون جزيرة طريف دون مقدمة ظاهرة ، ثم زحفوا إلى قرطبة ، فدافع عنها المأمون بن المعتمد إلى أن قتل في صفر سنة ٤٨٤ هـ ، ثم توجّه جيش إلى رندة حيث الابن الثاني للمعتمد وهو الراضي فهزم وقتل في الوقت الذي كانت اشبيلية قد سقطت في رجب سنة ٤٨٤ هـ .

وأصدق الروايات في كل ما قرأت على كثرته رواية شاهد عيان رأى بأمّ عينه وسمع بأذنه وحضر الوقعة ساعة النكبة هو ابن اللبانة . فما أحسب أن المعتمد كان من اللهو والترف ، فقد روى صاحب نفح الطيب أنّه ما جهر بشرب الخمر منذ ولي الملك :

يقول ابن اللبانة في كتابه «نظم السلوك في مواعظ الملوك» : إن طائفة من أصحاب المعتمد خامرت عليه . فأُعلم باعتقادها ، وكُشف له عن مرادها ، وحُضَّ على هتك حُرَمِها ، وأغري بسفك دمها . فأبى مجده الأثيل ، ومذهبه الجميل ، وما خصّة الله تعالى به من حسن اليقين ، وصحة الدين ، إلى أن أمكنتهم الغره ، فانتصروا ببغاث مستنسر ، وقاموا بجمع غير مستبصر . فبرز من قصره متلافياً لأمره ، عليه غلالة ترف على جسده ، وسيفه يتلظّى في يده . . .

ويوافق ابن اللبانة غيره على أن جماعة من أصحاب المعتمد خانته . وأنه فوجىء في قصره فخرج في غير عُدَّةٍ . ولعلّ المعتمد لم يعرض لهذه الجماعة بشرّ حين نمي أمرها إليه ، خيفة اختلاف الكلمة وافتراق الجماعة في وقت الشدّة .

ولا نجد في كلام ابن اللبانة ذِكْرَ لَهو المعتمد وغفلتِه ، والنُّذرُ تحيط به . وهو قول باطلٌ سَجَعَ به الفتحُ بن خاقان كسجع الكهَّان .

ثم يقول ابن اللبانة ، وكان قد شاهد الوقعة بنفسه : «فلقي على باب من أبواب المدينة فارساً مشهوراً بنجدة ، فرماه الفارس برمح التوى على غلالته ، وعصمه الله تعالى منه . وصب سيفه على عاتق الفارس فشقه إلى أضلاعه فخَّر صريعاً سريعاً .

فرأيت القائمين عندما تسنَّموا الأسوار تساقطوا منها ، وبعدما أمسكوا الأبواب تخلَّوا عنها . . . إلى أن كان يوم الأحد الحادي والعشرين من شهر رجب ٤٨٤ هـ فعظم الخطب في الأمر الواقع ، واتسع الخرْقُ على الواقع . ودخل البلد من جهة واديه ، وأصيب حاضِرُه بِعادِيَةٍ بادية ، بعد أن ظهر من دفاع المعتمد وبأسه ، وترامیه على الموت بنفسه ، ما لا مزيد عليه ، ولا انتهى خَلقٌ إليه . . . . ورُحِّلَ بالمعتمدِ وآله ، بعد استئصال جميع مالِه ، ولم يصحب معه بُلغةَ زاد ، ولا بُغية مُراد . فأمضيت عزيمتي في اتباعه فوصلت إليه بأغمات» .

ويوافق الفتحُ ابنَ اللبابة على غدر جماعة من أصحاب المعتمد ، وبعد وصف طويل ، يقول عن المعتمد بعد قتاله المستميت في أبهاء قصره : ثم انصرف وقد أراح نفسه وشفاها ، وأبعد الله عنه الملامة ونفاها ، وفي ذلك يقول عندما خلع ، وأودع من المكروه ما أودع :

إنْ يَسْلُبِ القَوْمُ العِدى مُلْكي ، وَتُسْلِمُني الجُموعُ
فالقَلْبُ بَيْنَ ضُلوعِهِ لَمْ تُسْلِمِ القَلْبَ الضُّلوعُ
قَدْ رُمْتُ يَوْمَ نِزالِهِمْ أَلَّا تُحَصِّنُني الدُّروعُ
وَبَرزْتُ لَيس سِوى القميصِ مِنَ الحَشَا شيْءٌ دَفوعُ

أَجَلي تأخَّرَ لَمْ يكُنْ بِهَوايَ ذُلِّي و الخُضُوعُ
مَا سِرْتُ قَطُّ إلى القِتا لِ ، وَكَانَ مِنْ أَمَلي الرُّجوعُ
شِيَمُ الأُلَى أَنَا مِنْهُمُ وَالأَصْلُ تَتْبَعُهُ الفُروعُ[1]

ويؤخذ من كلام الفتح فيما بعد أن المغيرين دخلوا البلد مرّة أخرى من الوادي ، أي من جهة نهر اشبيلية المسمّى الوادي الكبير ، وأن المعتمد استبسل في الحرب حتى هزم المغيرين وألجأهم إلى النهر فغرق فيه من غرق . فالبلد دُخل من أحد الأبواب ، فحارب من أحد الأبواب محارب المعتمد حتى ردَّ الداخلين وسدّ الباب . ثم دُخِل من الوادي فردَّ المعتمد أعداءهُ كذلك .

ويقول الفتح بعد ذكر الوقعة الثانية : «. . . ثم جُمع هو وأهله ، وحملتهم الجواري المنشآت ، وضمتهم جوانحها كأنّهم أموات ، بعدما ضاق منهم القصر ، وراق منهم العصر ، والناس قد حشروا بضفتي الوادي ، وبكوا بدموع الغوادي . فساروا والنوح يحدوهم ، والبوح باللوعة لا يعدوهم» .

ويقول المراكشي : «إنّ دخول جماعة من الباب ، ودفع المعتمد إيّاهم كان الثلاثاء منتصف رجب ، ويقول : إن الجيوش دهمت المدينة عصر ذلك اليوم من البر ومن الوادي ، ودام القتال أيّاماً . . . والموفون بالعهد المقيمون على صريح الودثابتون ، إلى أن كان يوم الأحد لإحدى وعشرين ليلة خلت من رجب من السنة المذكوره ، وهذا يوم الكائنة العظمى والطامة الكبرى . ثم يتابع المراكشي حديثة عن مصير المعتمد ، فيقول : وأجبر على مخاطبة ابنيه المعتد بالله ، والراضي بالله ، وكانا بمعقلين من معاقل الأندلس المشهورة ، لو شاء أن يمتنعا بها لم يصل أحد إليهما . أحد الحصينن يسمّى رنده ، والآخر مارتله . فكتب رحمه الله ،

(١) انظر ديوان المعتمد ٨٨ ـ ٨٩ والمعجب ٨٩ ـ ٩٠ وقلائد العقيان ٢١ ـ ٢٢ .

وكتبت السيدة الكبرى أمّهما مستعطفين معلمين أنَّ دم الكلِّ منهما مسترهن بثبوتهما . فأنفا من الذل ، وأبيا وضع يديهما في يد أحد من الناس بعد أبيهما . ثم عطفتهما عواطف الرحمة ، ونظرا في حقوق أبويهما المقترنة بحقِّ الله عزَّ وجل ، فتمسّك كلّ منهما بدينه ونبذ دنياه ، ونزلا من الحصنين بعد عهود مبرمة ومواثيق محكمة . فأمّا المعتدّ بالله فإنَّ القائد الواصل إليه قبض عند نزوله على كلّ ما كان يملكه . وأمّا الراضي بالله فعند خروجه من قصره قُتِل غيلة وأخفى جسده» .

ويزيد المراكشي على أبيات الفتح في روايته ثلاثة أبيات :

لَمَّا تَماسَكتِ الدُّمُوعُ ... وَتَنَهْنَهَ القَلْبُ الصَّديعُ
قالُوا الخُضُوعُ سِيَاسَةٌ ... فَلْيَبْدُ مِنْكَ لَهُمْ خُضُوعُ
وَأَلَذُّ مِنْ طَعْمِ الخُضوعِ ... عَلَى فمي ، السُّمُّ النقيعُ

ووقف الشاعر الوفي أبو بكر الداني الملقَّب ابن اللبانة الذي أخلص لصاحبه في محنته . كما نعم بعطاياه في دولته ، وقف الشاعر الوفي يرى القيامةَ ويشهدُ الحشرَ ، فقال :

تَبْكي السَّماءُ بِمُزْنٍ رَائِحٍ غَادِ ... عَلَى البَهاليلِ مِنْ أَبْناءِ عَبَّادِ
عَلَى الجِبَالِ الَّتي هُدَّتْ قَواعِدُها ... وَكَانَت الأَرْضُ مِنْها ذَاتَ أَوْتادِ
عِرِّيسةٌ دَخَلَتْهَا النَّائِباتُ عَلَى ... أَسَاوِدٍ لَهُمُ فيها وَآسادِ
وَكَعْبَةٌ كَانَتِ الآمالُ تَخْدِمُهَا ... فاليَوْمَ لاَ عاكِفٌ فيها وَلاَبَادِ
يَاضيفُ أَقْفَرَبَيْتُ المُكْرُماتِ فَخُذْ ... في ضَمِّ رَحْلِكَ واجْمَعْ فَضْلَةَ الزَّادِ
وَيَا مُؤَمِّلَ وَاديهِمْ لِتَسْكُنَهُ ... خَفَّ القَطينُ ، وَجَفَّ الزَّرْعُ بالوادِ
وَأَنْتَ يا فَارِسَ الخَيْلِ الَّتي جَعَلَتْ ... تَخْتَالُ في عَدَدٍ مِنْهُم وَأَعْدَادِ
أَلْقِ السِّلاَحَ ، وَخَلِّ المَشْرِفيَّ فَقَدْ ... أَصْبَحْتَ في لَهَواتِ الضَّيْغَمِ العادي

إلى أن يقول :

نَسَيْتُ إلاَّ غَداةَ النَّهرِ كَوْنَهُمُ في المُنْشَآتِ كَأَمْواتٍ بَأَلْحادِ
والنَّاسُ قَدْ مَلَؤُوا العِبْرَيْنِ وَاعْتَبَرُوا مِنْ لُؤْلُؤٍ طَافِياتٍ فَوْقَ أَزْبَادِ
حُطَّ القِنَاعُ فَلَمْ تُسْتَرْ مُخَدَّرَةٌ وَمُزِّقَتْ أَوْجُهٌ تَمْزيقَ أَبْرادِ
حَانَ الوَداعُ فَضَجَّتْ كُلُّ صَارِخَةٍ وَصَارِخٍ مِنْ مُفَدَّاةٍ وَمِنْ فَادِ
سَارَتْ سَفَائِنُهُمْ وَالنَّوْحُ يَصْحَبُها كَأَنَّهَا إِبِلٌ يَحْدُو بِهَا الحَادِي
كَمْ سَالَ في المَاءِ مِنْ دَمْعٍ وَكَمْ حَمَلَتْ تِلْكَ القَطَائِعُ مِنْ قِطْعَاتِ أَكْبَادِ ؟

وسارت السفن بالمعتمد وآله وأتباعه في نهر الوادي الكبير ثم في بحر الظلمات حتى أرست على ساحل المغرب . ولما خرج الأمير الجواد الأبي الصنديد من السفين ، اجتمع إليه السُّؤَّالُ يستجدون ويلحفون ، فجاءه الحصري الشاعر فرفع إليه أشعاراً قديمة كان قد مدحه بها ، وقصيدة استجدَّها . يقول المراكش في كتاب المعجب : «ولم يكن عند المعتمد في ذلك اليوم ما زُوِّد به فيما بلغني أكثر من ستةً وثلاثين مثقالاً . فطبع عليها ، وكتب معها قطعة شعر يعتذر من قلتها ، سقطت من حفظي ، ووجه بها إليه . فلم يجاوبه على القطعة ، على سهولة الشعر على خاطره ، وخفَّته عليه ـ وكان هذا الرجل ، أعني الحصري الأعمى ، أسرع الناس في الشعر خاطراً ، إلاّ أنّه كان قليل الجيد منه ـ فحركّه المعتمد على الله ، على الجواب بقطعة أولها :

قُلْ لِمَنْ قَدْ جَمَعَ العِلْمَ وَمَا أَحْصَىٰ صَوَابَهْ
كَانَ في الصُّرَّةِ شِعْرٌ فَتَنَظَّرْنا جَوابَهْ
قَدْ أَتَبْنَاكَ فَهَلاَّ جَلَبَ الشِّعْرُ ثَوَابَهْ ؟

ولّما اتّصل بزعانف الشعراء ، وملحفي أهل الكدية ، ما صنع المعتمد رحمه الله مع الحصري ، تعرّضوا له بكلِّ طريق ، وقصدوه من كلّ فج عميق . فقال في ذلك رحمه الله :

شُعَراءُ طَنْجَةَ كُلُّهُمْ وَالمَغْرِبِ ذَهَبُوا مِنَ الإِغْرابِ أَبْعَدَ مَذْهَبِ
سَأَلُوا العَسِيرَ مِنَ الأَسيرِ وَإِنَّهُ بِسُؤَالِهِمْ لَأَحَقُّ مِنْهُمْ ، فَاعْجَبِ
لَوْلَا الحَيَاءُ وَعِزَّةٌ لَخْمِيَّةٌ طيِّ الحَشَا ، سَاوَاهُمُ في المَطْلَبِ
قد كان إنْ سُئِلَ الندى يُجزلُ وإنْ نادى الصريخُ ببابه اركبْ ، يركبِ

وأقام المعتمد بطنجة أيّاماً على الحال الذي تقدّم ذكرها ، ثم انتقل إلى مدينة مكناسة فأقام بها أشهراً إلى أن نفذ الأمر بتسييرهم إلى مدينة أغمات» .

وفي ديوان المعتمد أنّه عتب على ابنه الرشيد عتباً شديدا وهما في الطريق من مكناسة إلى أغمات ، فكتب الرشيد إليه :

يَا حَليفَ النَّدَى وَرَبَّ السَّماحِ وَحَبيبَ النُّفُوسِ وَالأَرْوَاحِ
مِنْ تَمامِ النُّعْمَى عَلَيَّ التَّماجِي لَمْحَةً مِنْ جَبِينِكَ الوَضَّاحِ
قَدْ غَنِينَا بِبِشْرِهِ وَسَنَاهُ عَنْ ضِياءِ الصَّبَاحِ وَالمِصْبَاحِ

فأجابه المعتمد :

كُنْتُ حَليفَ النَّدَى وَرَبَّ السَّمَاحِ وَحبيبَ النُّفوسِ وَالأَرْوَاحِ
إِذْ يَمِيني لِلْبَذْلِ يَوْمَ العَطَايا وَلِقَبْضِ الأَرْوَاحِ يَوْمَ الكِفَاحِ
وَشِمالِي لِقَبْضِ كُلِّ عِنَانٍ يُقْحِمُ الخَيْلَ في مَجَالِ الرِّمَاحِ
وَأَنَا اليَوْمَ رَهْنُ أَسْرٍ وَفَقْرٍ مُسْتَبَاحُ الحِمَى مَهيضُ الجَنَاحِ
لَا أُجيبُ الصَّرِيخَ إِنْ فَزِعَ النَّاسُ وَلَا المُعْتَفِينَ يَوْمَ السَّمَاحِ[1]
عَادَ بُشْرَىٰ الَّذي عَهِدْتَ عُبوساً شَغَلَتْنِيَ الأَشْجَانُ عَنْ أَفْرَاحي
فَالتَماحِي إلى العُيونِ كَرِيهٌ وَلَقَدْ كَانَ تُرْفَةَ اللُّمَّاحِ»

(١) المعتفون : طالبو المعروف .

أَسرُ المعتمد في أغمات . .

ومدينة أغمات كما يقول ياقوت : «مديناتن متقابلتان . . . كثيرة الخير . . . وليس بالمغرب فيما زعموا بلد أجمع لأصناف الخيرات ولا أكثر ناحية أوفر حظّاً ولا خصباً منها ، تجمع بين فواكه الصرود والجروم . . .»[1] .

وبين مدينة أغمات ومراكش ثلاثة فراسخ ، وهي في سفح جبل هناك . وكانت أغمات كبرى مدن الإقليم قبل إنشاء مراكش ، وفقدت مكانتها وقل عمرانها حينما أنشئت مراكش سنة ٤٥٤ هـ . وقد استولى عليها المرابطون سنة ٤٤٩ هـ ونفوا إليها المعتمد ابن عبّاد سنة ٤٨٤ هـ ، وبها أطلال قديمة ومقابر كثيرة مازالت حتى اليوم ، وبها قبر المعتمد هناك[2] .

وهي اليوم مزارع وبساتين واسعة كثيرة الثمار ، عذبة المياه ، وارفة الظلال .

بقي الملك الجواد ، البطل الهمام ابن عبّاد في أغمات أربع سنوات حتى أنفذته المنيّة من هذه البلية . وقد ضُيِّق عليه ، وأثقلت القيود على رجليه حين ثار ابنه عبد الجبّار في الأندلس . وقد جزع المعتمد لهذا وتوقَّع أن يؤخذ بجريرة ابنه ، أو يُخشى فراره من معتقله . ويقول الفتح : «وقال من أثقه : لمّا ثار ابنه حيث ثار ، وأثار من حقد أمير المسلمين عليه ما أثار ، جزع جزعاً مفرطاً ، وعلم أنّه صار في أنشوطة والشرّ متورِّطاً ، وجعل يتشكّى من فعله ، ويتكلّم ، ويتوجَّع منه ويتألّم ، ويقول : عرّض بي للمحن ، ورضي لي أن أُمتحن . ووالله ما أبكي إلاّ

---

(١) الصرود : جمع صرد وهي الحر . والجروم : جمع جرم وهو البرد ، وكلا اللفظين فارسي معرب .

(٢) المعتمد بن عباد الملك الجواد للدكتور عبد الوهاب عزام ٥٩ .

انكشاف من أتخلفه بَعدي ، ويتحيَّفُه بُعدي»[1] .

ويقول الفتح : «وأقام بالعدوة برهة ، لا يروع له سرب وإن لم يكن آمناً ، ولا يثور له كرب وإن كان في ضلوعه كامناً ، إلى أن ثار أحد بنيه بأركش» .

ومن أمتع ما يروى من النوادر للمقابلة بين الأسر والأسير كما يرويه لنا صاحب نفح الطيب ، أن ابن تاشفين شهد مجلس المعتمد وقد أوصى المعتمد الشعراء أن يمدحوا ابن تاشفين ، ففعلوا «وأنشدوه أشعاراً في الثناء عليه ، فقال له المعتمد : أيعلم أمير المسلمين ما قالوه ؟ قال : لا أعلم ولكنّهم يطلبون الخبز .

ولما انصرف عن المعتمد عائداً إلى حضرة ملكه في إفريقيا ، كتب إليه المعتمد رسالة ضمَّن فيها بيتين من شعر ابن زيدون :

بِنْتُمْ وَبِنَّا فَمَا ابْتَلَّتْ جَوَانِحُنَا ... شَوْقَاً إليكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَآقِينَا
حَالَتْ لِفَقْدِكُمْ أَيَّامُنَا فَغَدَتْ ... سُوداً وَكَانَتْ بِكُمْ بيضاً ليالينا

فلما قُرِىء عليه هذان البيتان قال للقارىء : يطلب منا جواري سوداً وبيضاً . قال لا ! يا مولاي ، ما أراد إلّا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهاراً ، لأن ليالي السرور بيض ، فعاد نهاره ببعده ليلاً لأنَّ أيّام الحزن ليالٍ سود . فقال : والله جيد ! اكتب له في جوابه ؛ أن دموعنا تجري عليه ، ورؤوسنا توجعنا في بعده ! قال المُقّري : فليت العبّاس بن الأحنف قد عاش ، حتى يتعلّم من هذا الفاضل رقّة الشوق»[2] .

ويقول ابن الأثير في أحداث سنة ٤٨٤ هـ وما جرى للمعتمد : «وفعل أمير المسلمين بهم أفعالاً لم يسلكها أحد ممَّن كان قبله ، ولا يفعلها أحد ممَّن يأتي بعده ،

---

(١) انظر نفح الطيب الجزء الخامس .
(٢) انظر نفح الطيب ١٩١/٣ - ١٩٢ .

إلّا من رضي لنفسه بهذه الرذيلة . وذلك أنّه سجنهم فلم يجر عليهم ما يقوم بهم ، حتّى كان بنات المعتمد يغزلن للناس بأجرة ينفقنها على أنفسهنّ . وذكر ذلك المعتمد في أبيات ترد فيها يأتي . فأبان أمير المسلمين بهذا الفعل عن صغر نفس ولؤم قدرة» .

ومما لا ريب فيه أن المعتمد لقي في أغمات من غِيَر الأيّام في نكبته ومحنته ما لقي ، ولعلّ سائلاً يسأل : كيف كانت عيشة المعتمد ؟ لا ريب أنها كانت عيشة ضنكاً ، ولكن ما كان مبلغها من الضيق والحرمان ؟

كلّ الأخبار التي مرّت تدلّ على بؤس المعتمد وضيق عيشه ، ولكنّا نجد في الأخبار كذلك أنّه أعطى الحصري الشاعر حين قصده في طنجة وهو في طريقه إلى المنفى ، وأنّه أرسل إلى ابن اللبانة حين أزمع السفر من أغمات هديةً ذات قيمة ، فاعتذر ابن اللبانة وردها . ونقرأ كذلك أن ابن حمديس الشاعر زاره فحجبه الخدم ، وأنشأ المعتمد أبياتاً يعتذر فيها لابن حمديس ويذكر غباوة خدمه وجهلهم ، بعد أن كان خدمه ما كانوا وهو في ملكه ودولته .

والجمع بين هذه الأخبار المختلفة تشير إلى أن الرجل عاش في شقاء وبؤس وضيق ، لا ريب في هذا ، ولا يبعد أن بعض أقاربه أو أصهاره أو أنصاره الذين سلموا من النكبة أمدّوه بما يقيم أوده ، ويحفظ كرامته . وقد قصده الشعراء ووفوا له في شدّته وكربته ، فليس بعيداً أن يكون غيرهم قصده أو أرسل إليه ما يخفّف عنه شدّة الأسر ، وقسوة الفاقة ، فصلحت حاله أحياناً . ولا أقول إنّ المعتمد ادّخر بعض جواهره ونفائسه ، فأنفق منها ، فلو كانت عنده بقيّة من الأعلاق ما غزلت بناته للناس ، ولا نفخ ابنه في كير صائغ[1] .

---

(١) انظر المعتمد بن عباد للدكتور عبد الوهاب عزام ٦٧ .

وظلّ المعتمد في أسره أربع سنوات أي حتى سنة ٤٨٨ هـ وينادى ا
جنازته : الصلاة على الغريب[1] . ولكنَّ الشعراء لم يروه غريبا ، فقد وقف شاع
عبد الصمد ينشد على قبره قصيدته :

مَلِكَ المُلوكِ أَسَــامِـعٌ فَــأُنَــادي أَمْ قَدْ عَدتْكَ مِنَ السَّماءِ عَوادِ
لَمَّا خَلَتْ مِنْكَ القُصُورُ وَلَمْ تَكُنْ فِيهـا كَما قَـدْ كُنْتَ في الأَعْيَ

وفيها يقول :

قَبَّلْتُ في هَذَا الثَّرى لَكَ خَاضِعاً وَجَعَلْتُ قَبْـرَكَ مَوْضِـعَ الإِنْشَـ

ثم قبّل الثرى ، ومرغ جسمه ، وعفّر خدّه فبكى كلُّ من حضر[2]

ومهما قيل ظلماً وتجنّباً من بعض المؤرِّخين ،فإنَّ الذي لا مرية فيه أنّ حكم
بوجه عام كان أفضل من حكم أبيه وجده ، وأنّه هو نفسه كان أقوى شاعرية وأك
شجاعة وسماحة وكرماً من كلِّ ملوك الأندلس ، وقال عنه المؤرِّخون : أندى ملو
الأندلس راحة وأفضلهم سماحة ، وكانت حضرته قبلة الآمال ومحطَّ الرحال ومألف
الفضلا ، حتّى أنّه لم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره مثل ما كان يجتمع ببابه[3]

ولّما أُنزل المعتمد في سجن أغمات مكبّلًا بالحديد ، زاره شاعره ابن اللبانة
سجنه ، فلما رآه وحلقات القيد قد عضَّت ساقيه ، مهاناً بعد عزَّة الأثيل ، قال

انْفُضْ يَدَيْكَ مِنَ الدُّنْيَا وَسَاكِنِهَا فَالأَرْضُ قَدْ أَقْفَرَتْ وَالنَّاسُ قَدْ مَاتُ

وفيها يقول :

أَنْكَرْتُ إِلَّا الْتِواءَات القُيـودِ بِهِ وَكَيْفَ تُنْكَرُ في الرَّوْضَاتِ حيًّا

---

(١) نفح الطيب الجزء السادس .
(٢) نفح الطيب ٣٩٢/٥ .
(٣) المعجب ٦٥ ونفح الطيب ١٠٦/٦ .

دَرَوْهُ لِيثاً ، فَخَافُوا مِنْهُ عَادِيَةً   عَذَرْتُهُمْ ، فَلِعَدْوِ اللَّيْثِ عَادَاتُ
لَوْ كَانَ يُفْرَجُ عَنْهُ بَعْضَ آوِنَةٍ   قَامَتْ بِدَعْوَتِهِ حَتَّى الجَمَادَاتُ

وها هو في فقره وأسره ، لا يضنّ بالقليل الذي بين يديه على شاعره المخلص ، فيرسل إليه مع ولده عشرين مثقالاً مرابطيّة ، وهو الذي كان يهب المثاقيل ، ويبعث معها ثوبين غير مخيطين ، وهو الذي كان يكسو العافين حُلَلَ الديباج المطرَّزة ، ويكتب إليه معها ، قوله :

إِلَيْكَ النَّزْرُ مِنْ كَفِّ الأَسِيرِ   وَإِنْ تَقْنَعْ تَكُنْ عَيْنَ الشَّكُورِ
تَقَبَّلْ مَا يَذُوبُ لَهُ حَيَاءً   وَإِنْ عَذَرَتْهُ حَالاَتُ الفَقِيرِ
وَلاَ تَعْجَبْ لِخَطْبٍ غَضَّ مِنْهُ   أَلَيْسَ الخَسْفُ مُلْتَزِمَ البُدورِ ؟
وَرَجِّ لِجَبْرِهِ عُقْبَى نَدَاهُ   فَكَمْ جَبَرَتْ يداه مِنْ كَسِيرِ
وَكَمْ أَعْلَتْ عُلاَهُ مِنْ حَضِيضٍ   وَكَمْ حَطَّتْ ظُبَاهُ مِنْ أَمِيرِ
وَكَمْ مِنْ مِنْبَرٍ حَنَّتْ إِلَيْهِ   أَعَالِي مُرْتَقَاهُ ، وَمِنْ سَرِيرِ
زَمَانَ تَزَاحَفَتْ عَنْ جَانِبَيْهِ   جِيَادُ الخَيْلِ بِالمَوْتِ المُبِيرِ
فَقَدْ نَظَرَتْ إِلَيْهِ عُيُونُ نَحْسٍ   مَضَتْ مِنْهُ بِمَعْدُومِ النَّظِيرِ
نُحُوسٌ كُنَّ فِي عُقْبَى سُعُودٍ   كَذَاكَ تَدُورُ أَقْدَارُ القَدِيرِ
وَكَمْ أَحْظَى رِضَاهُ مِنْ حَظِيٍّ   وَكَمْ شَهَرَتْ عُلاَهُ مِنْ شَهِيرِ
زَمَانَ تَنَافَسَتْ فِي الحَظِّ مِنْهُ   مُلوكٌ قَدْ تَجُورُ عَلَى الدُّهُورِ
بِحَيْثُ يَطِيرُ بِالأَبْطَالِ ذُعْرٌ   وَيُلْغَى ثَمَّ أَثْبَتُ مِنْ ثَبِيرِ[1]

فيمتنع ابن اللبانة عن قبولها ، لعلمه بحاجة أميره إليها ، ويجيبه بشعر يقول فيه :

---

(١) انظر المعتمد بن عباد الملك الجواد الشجاع للدكتور عبد الوهاب عزام ص ٧٤ ـ ٧٥ .

تَـرَكْتُ هَوَاكَ وَهْـوَ شَقيقُ دِيني لَئِنْ شُقَّتْ بُـرودِي عَنْ عَـذُورِ
وَلاَ كُنْتُ الـطَّليقَ مِنَ الـرَّزايَـا إذا أَصْبَحْتُ أُجْحِفُ بِـالأَسـيرِ
جُـذَيْمَـةُ أَنْتَ ، وَالـزَّبَّـاءُ خَـانَتْ وَمَـا أَنا مَنْ يُقَصِّرُ عَنْ قَصيرِ
تُصَـرِّفُ في النَّدى حِيَـلَ المَعَالي فَتَسْمَـحُ مِنْ قَليـلٍ بِـالكَثيرِ
رُوَيْـدَكَ سَـوْفَ تُـوسِعُني سُروراً إِذَا عَـادَ ارْتِـقَـاؤُكَ لِـلسَّريـرِ
وَسَـوْفَ تُحِلُّني رُتَـبَ المَـعَـالي غَـدَاةَ تَحِلُّ في تِلْكَ القُصـورِ
تَـزيـدُ عَـلَى ابْنِ مَـرْوَانٍ عَـطاءً بِهـا ، وَأَزِيـدُ ثَمَّ عَـلَى جَـريـرِ
تَـأَهَّبْ أَنْ تَعُـودَ إلى طُـلوعٍ فَلَيْسَ الخَسْفُ مُلْتَـزَمَ البُـدورِ

وأسقط ابن اللبانة من قصيدته أبياتاً منها قوله :

سَقَطتَ مِنَ الوَفَـاءِ عَلَى خَبـيرٍ فَذَرْني وَالَّذي لَـكَ في ضَميري
أَسـيرُ وَلاَ أصـيرُ إلى اغْـتِنَـامٍ مَعَـاذَ الله مِنْ سُـوءِ المَصـيرِ
إذَا ما الشُّكْرُ كَانَ ، وَإِنْ تَنَاهَى عَلَى نُعْمَى ، فَمَا فَضْلُ الشَّكُورِ ؟
أَنَـا أَدْرَى بِفَضْلِكَ مِنْـكَ إِنِّي لَبِسْتُ الظِلَّ مِنْهُ في الحَـرُورِ
غَـنيُّ النَّـفْسِ أَنْتَ وَإِنْ أَلَحَّتْ عَـلَى كَفَّيْـكَ حَـالاَتُ الفَقـيرِ
أُحَـدِّثُ مِنْكَ عَنْ نَبْعٍ غَـزيـرٍ تَفَتَّـحُ عَنْ جَنَى زَهْـرٍ نَضـيرِ[1]

وفيها يقول :

وَأَعْجَبُ مِنْكَ أَنَّكَ في ظَلاَمٍ ! وَتَـرْفَـعُ لِلْعُفَـاةِ مَـنَـارَ نُـورِ

فيراجعه المعتمد بأبيات يقول فيها :

رَدَّ بِـرِّي بَـغْـيـاً عَـلَيَّ وَبِـرّا وَجَفَـا ، فَاسْتَحَقَّ لَـوْمـاً وَشُكْـراً
حَاطَ نَزْري إِذْ خَافَ تَأْكِيدَ ضُرِّي فَـاسْتَحَقَّ الجَفَاءَ أَنْ حَـاطَ نَزْرَا
فَإِذَا مَا طَوَيْتُ في البَعْضِ حَمْداً عَادَ لَوْمي في البَعْضِ سِراً وَجَهْرا

---

(١) المرجع السابق .

يَـا أبَـا بَكْـرِ الغَـريبِ وَفَـاءً لاَعَـدِمْنَـاك في المَغَـارِبِ ذُخْـرا
أيُّ نَفْعٍ يُجْدي احْتيـاطُ شَفيقٍ مُتُّ ضُرّاً ، فَكَيْفَ أرْهَبُ ضُرّا ؟

فيجيبه ابن اللبانة :

حَـاشَا الله ! أنْ أُجيـح كَـريمَـا يَتَشكّى فقْـراً ، وَكَمْ سَدَّ فَقـرا
وَكَفَـاني كَـلاَمُـكَ الـرطْبُ نَيْـلاً كَيْفَ ألْقَى دُرّاً ، وَأطْلُبُ تِبْرا ؟
لَمْ تَمُتْ ! إنَّمَـا المَكَـارِمُ مَـاتَتْ لاسَقَى الله بَعْدَكَ الأرْضَ قَطْرا[1]

ولم تُفك قيود المعتمد ، ولم يُطلق سراحه ، ولم تشفع عند ابن تاشفين شفاعة الشافعين ، حتى مات الملك الجواد الشجاع ، وظلَّ ينظم شعره الرقيق حتّى اليوم الأخير من حياته . فلمّا أحسَّ بدنوا أجله ، أوصى أن يُكتب على قبره أبياتٌ[2] نظمها في وصف حاله ، يقول :

قَبْرَ الغَريبِ سَقَاكَ الرَّائِحُ الغَادِي حَقّاً ظَفِرْتَ بِأشْلاَءِ ابْنِ عَبَّادِ
بِالحِلْمِ بِالْعِلْمِ بِالنُّعْمَى إذَا اتَّصَلَتْ بِالخِصْبِ إنْ أجْدَبُوا ، بِالريِّ لِلصَّادي
بِالطَّاعِنِ الضَّارِبِ الرَّامي إذَا اقْتَتَلُوا بِالْمَوتِ أحْمَرَ ، بِالضِّرْغَامَةِ العَادِي
بِالدَّهْرِ في نِقَمٍ ، بِالبَحْرِ في نِعَمٍ بِالبَدْرِ في ظُلَمٍ ، بِالصَّدْرِ في النَّادِي
نَعَمْ هُوَ الحَقُّ حَابَاني بِهِ قَـدَرٌ مِنَ السَّـماءِ ، فَـوَافَـاني لِميعَـادِ
وَلَمْ أكُنْ قَبْلَ ذَاكَ النَّعش أعْلَمُهُ أنَّ الجِبَـالَ تَهادَى فَـوْقَ أعْـوادِ
كَفَاكَ فَارْفِقْ بِما اسْتُودِعْتَ مِنْ كَرَمٍ رَواكَ كُـلُّ قَطُوبِ البَـرْقِ رَعَّادِ
يَبْكي أخَـا الَّـذي غَيَّبْتَ وَابِلَهُ تَحْتَ الصَّفيحِ بَدَمْعٍ رَائِحٍ غَادِي
حَتَّى يَجُودَكَ دَمْعُ الـطَّلِّ مُنْهَمِراً مِنْ أعْيُنِ الزَّهْرِ لَمْ تَبْخَلْ بِإسْعادِ

---

(١) انظر المعجب ص ٩٢ .
(٢) هناك اختلاف في الرواية ما بين ديوان المعتمد ١٠٤ وما جاء في نفح الطيب ٥/٢٣٥ وانظر المعجب ٩٩ـ ١٠٠ .

وَلَا تَـزَالُ صَـلَاةُ الله دَائِمَـةً عَلَى دَفِينِكَ لَا تُحْصَى بِتَعْـدادِ[1]

وقال مؤلِّف نفح الطيب : «قال غير واحد : من النادر الغريب أنّه نودي على جنازته ـ الصلاة على الغريب ـ بعد عظم سلطانه ، وسعة أوطانه ، وكثرة صقالبه وحُبشانه ، وعِظم أمره وشأنه ، واجتمع عند قبره جماعة من الأقوام الذين لهم في الأدب حصّة ، ولقضية المعتمد في صدورهم غصّة . . .» وخاتمة هذه الملحمة الدامية ، وتلك القصة الباكية ، هذه الأبيات الآنفة الذكر التي أوصى المعتمد أن تكتب على قبره[2] .

وقال الفتح بن خاقان في قلائد العقيان يصور لنا نهاية هذا الملك الجواد : «ولم تزل كبده تتوقّد بالزفرات ، وخلده يتردّد بين النكبات والعثرات ، ونفسه تتقسّم بالأشجان والحسرات ، إلى أن شفته منيّته ، وجاءته بها أمنيتُه ، فدفن بأغمات ، وأريح من تلك اللأزمات .

وَعُـطِّلَتِ المَـآثِـرُ مِنْ حُـلَاهَـا وَأُقْفِرَتِ المَفَـاخِـرُ مِنْ عُـلَاهَـا

ورفعت مكارم الأخلاق ، وكدّست نفائس الأعلاق ، وصار أمره عِبْرةً في عصره ، وصاب أندى عَبْرةٍ في مصره» .

وبعد أيّامٍ وافاهُ أبو بكر بن عبد الصمد ، شاعره المتّصل به المتوصّل إلى المنى بسببه ، فلمّا كانَ يوم العيد ، وانتشر الناس ضُحىً ، وظهر كلّ متوار وضَحَى ، قام على قبره عند انفصالهم من مصلاهم ، واختيالهم بزينتهم وحلاهم ، وقال ـ كما مرّ معنا ـ بعد أن طاف بقبره والتزمه وخرَّ على تربه ولثمه :

مَلِكَ المُلُوكِ ! أَسَـامِعٌ فَـأُنَادي ؟ أَمْ قَدْ عَدَتْكَ عَنِ السَّمَاعِ عَوادِ ؟

---

(١) انظر ديوان المعتمد ٩٦ والمعتمد بن عباد للدكتور عبد الوهاب عزام ١٠٥ ـ ١٠٦ .
(٢) المعتمد بن عباد للدكتور عبد الوهاب عزام ١٠٥ ـ ١٠٦ .

لَمَّا خَلَتْ مِنكَ القُصُورُ وَلَمْ تَكُنْ فيهَا كَمَا قَدْ كُنْتَ في الأَعْيَادِ
أَقْبَلْتُ في هَذا الثَّرى لَكَ خَاضِعاً وَجَعَلْتُ قَبْرَكَ مَوْضِعَ الإِنْشَادِ[1]
قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ تُبَدِّدَ أَدْمُعِي نِيرانُ حُزْنٍ أُضْرِمَتْ بَفُؤَادِي
فَإِذَا بِدَمْعِي كُلِّه أَجْرَيْتُهُ زَادَتْ عَلَيَّ حَرَارَةُ الأَكْبَادِ
فَالعَيْنُ في التَّسْكَابِ وَالتَّهْتَانِ وَالأَحْشَاءُ في الإِحْراقِ وَالإِيقَادِ
يَا أَيُّهَا القَمَرُ المُنِيرُ أَهَكَذا يُمْحى ضِيَاءُ النَّيِّرِ الوَقَّادِ ؟
أَفَقَدْت عَيْنِي مُذْ فَقَدْتُ إِنَارَةً لِحِجَابِهَا في ظُلْمَةٍ وَسَوادِ
مَا كَانَ ظَنِّي قَبْلَ قبرِكَ أَنْ أَرَى قَبْراً يَضُمُّ شَوامِخَ الأَطْوادِ
الهَضْبَةُ الشَّمَّاءُ تَحْتَ ضَرِيحِهِ وَالبَحْرُ ذُو التَّيَّارِ وَالإِزْبَادِ
عَهْدِي بِمُلْكِي وَهْوَ طَلْقٌ ضَاحِكٌ مُتَهَلِّلُ الصَّفَحَاتِ لِلْقُصَّادِ
وَالمَالُ ذُو شَمْلٍ بِدادٍ وَالنَّدَى يَهْمِي وَشَمْلُ المُلْكِ غَيْرُ بِدادِ
أَيَّامَ تَخْفِقُ فَوْقَكَ الرَّايَاتُ فَوْقَ كَتَائِبِ الرُّؤَسَاءِ وَالأَجْنَادِ
وَالأَمْرُ أَمْرُكَ وَالزَّمَانُ مُبَشِّرٌ بِمَمَالِكٍ قَدْ أَذْعَنَتْ وَبِلادِ
وَالخَيْلُ تَمْرَحُ وَالفَوارِسُ تَنْحني بَيْنَ الصَّوارِمِ وَالقَنَا المَيَّادِ

وهي قصيدة أطال إنشادها ، وبنى بها اللواعج وشادها . فانحشر الناس إليه ، وأحفلوا وبكوا لبكائه ، وأعولوا وأقاموا أكثر نهارهم مطيفين به طواف الحجيج ، مديمين البكاء والعجيج .

ثم انصرفوا وقد نزفوا ماء عيونهم ، وأقرحوا مآقيهم بفيض شؤونهم ، وهذ نهاية كلِّ عيش ، وغاية كلِّ ملك وجيش . والأيّام لا تدع حيّاً ، ولا تألو كلّ نشرِطياً ، تطرق رزاياها كلّ سمع ، وتفرق مناياها كلّ جمع ، وتصمي كلّ ذي

(١) انظر نفح الطيب ٣٩٢/٥ أول البيت قبلت فقد اختلفت الرواية .

أمر ونهي ، وترمي كلّ مشيدٍ بوهي . ومن قَبْلِهِ طوتِ النعمان بن الشقيقة ، ولوت مجازها في تلك الحقيقة» .

هذه هي قصّة المعتمد بن عبّاد الملك الشجاع الجواد ، لا تحتاج إلى افتنان ناثر ، وقصيدة حزينة لا تفتقر إلى مبالغة شاعر . ولا ريب أنّها سارت في أهل عصره ، وسرت إلى العصور من بعهد . وبقي قبره مزار الأدباء ومقصد العلما[1] .

ويقول المقري بعد ذكر أخبار المعتمد بن عباد : «وقد جمح بنا القلم في ترجمة المعتمد بن عباد بعض جموح ، وما ذلك إلّا لما علمنا أن نفوس الأدباء إلى أخباره ـ رحمه الله تعالى ـ شديدة الطموح . وقد جعل الله تعالى له كما قال ابن الأبّار في الحلّة السيراء ؛ رقّة في القلوب وخصوصاً في المغرب . فإن أخباره وأخبار الرميكيّة إلى الآن متداولة بينهم ، وإنّ فيها لأعظم عبره . رحم الله الجميع»[2] .

وهذا لسان الدين بن الخطيب وزير الأندلس وعالمها وأديبها ، الذي ألَّف المقرّي كتابه الواسع لتاريخ الأندلس ولسيرته ، فسماه «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب» وناهيك بهذا نباهة شأن وعظم مكانة .

لسان الدين هذا يزور قبر المعتمد بعد ٢٧٣ سنة من وفاته وينشد عنده شعراً . قال لسان الدين بن الخطيب[3] : «وقفت على قبر المعتمد بن عباد بمدينة أغمات في حركة راحلة أعملتها إلى الجهات المراكشية ، باعثها لقاء الصالحين ومشاهدة الآثار سنة ٧٦١ هـ .

---

(١) انظر المعتمد بن عباد لدكتور عبد الوهاب عزام ١٠٦ .
(٢) نفح الطيب ١/٦ .
(٣) انظر نفح الطيب ٢٣٧/٥ .

وهو بمقبرة أغمات في نشز من الأرض وقد حفت به سدرة وإلى جانبه قبر اعتماد حظيته مولاة رميك ، وعليهما هيئة التغرُّب ومعاناة الخمول من بعد الملك . فلا تملك العين دمعها عند رؤيتهما . فأنشدتُ في الحال :

قَدْ زُرْتُ قَبْرَكَ عَنْ طَوْعٍ بِأَغْمَاتِ   رَأَيْتُ ذَلِكَ مِنْ أُولَى المُهِمَّاتِ
لِمَ لاَ أَزُورُكَ يَا أَنْدَى المُلُوكِ يَداً ؟   وَيـا سِرَاجَ اللَّيـالي المُـدْلَهِمَّـاتِ
وَأَنْتَ مَنْ لَوْ تَخَطَّى الدَّهْرَ مَصْرَعُهُ   إلى حيَـاتي ، لَجَادَتْ فيـهِ أَبْيَاتي
أَنَـافَ قَبْـرُكَ في هَضْبٍ يُمَيِّـزُهُ   فَتَنْتَحيـهِ حَفِيَّـاتُ التَّـحِيَّـاتِ
كَرُمْتَ حَيّاً وَمَيْتاً واشْتَهَرْتَ عُلاً   فَـأَنْتَ سُلْطَانُ أَحْيَـاءٍ وَأَمْـواتِ
مَارُئِي مِثْلُكَ في مَاضٍ ، وَمُعْتَقَدي   أَلاَّ يَرى الدَّهْرُ في حالٍ وفي آتِ

ويتابع صاحب نفح الطيب هذا الخبر بقوله : «وقد زرت أنا قبر المعتمد بمدينة أغمات سنة ١٠١٠ هـ ورأيت فيه مثل ما ذكره لسان الدين ـ رحمه الله تعالى ـ فسبحان من لا يبيد ملكه لا إله إلا هو» .

وسنة ست وثمانين وأربعمئة أي بعد أسر المعتمد بسنتين ، كان الشاعر ابن اللبانة في أغمات يواسي الأمير ، ويندب حظَّه ، وينظم القصائد أوزانها وقوافيها من اللوعات والزفرات ، كقوله من قصيدة طويلة :

لَئِنْ عَـظُمَتْ فيكَ الـرَّزِيَّةُ إنَّنَـا   وَجَـدْنَاكَ مِنْهَـا في البَرِيَّـةِ أَعْظَمَا
قَنَاةٌ سَعَتْ لِلطَّعْنِ حَتَّى تَقَصَّفَتْ   وَسَيْفٌ أَطَالَ الضَّرْبَ حَتَّى تَثَلَّمَا

ومنها قوله :

بَكَى آلُ عَبَّـادٍ ، وَلاَ كَمُحَمَّـدٍ   وَأَوْلاَدِهِ صَوْبُ الغَمَامَةِ إذْ هَمى
حَبيبٌ إلى قَلْبي حَبيبٌ ، لِقَوْلِهِ :   «عَسى طَلَلٌ يَدْنُو بِهِمْ وَلَعَلَّمَا»[1]

(١) حبيب الثانية : يعني بها أبا تمام الطائي .

صَبَاحُهُمْ كُنَّا بِـهِ نَحْمَدُ السُّرَى فَلَمَّا عَدِمْنَاهُمْ سَرَيْنَا عَـلَى عَمى
وَكُنَّـا رَعَيْنَا العِـزَّ حَوْلَ حِمَـاهُمُ فَقَدْ أُجْدِبَ المَرْعَى ، وَقَدْ أُقْفِرَ الحِمى

وكانت قيود المعتمد انفكت عنه ، فأشار الشاعر إلى ذلك في نهاية القصيدة ، قال :

قُيُودُكَ ذَابَتْ فَانْطَلَقْتَ لَقَدْ غَدَتْ قُيـودُكَ مِنْهُمْ بِـالمَكَـارِمِ أَرْحَمَـا
عَجِبْتُ لأَنْ لاَنَ الحديدُ وَإِنْ قَسَوْا لَقَـدْ كَانَ مِنْهُمْ بِـالسَّرِيرَةِ أَعْلَمَا
سَيُنْجِيكَ مَنْ نَجَّى مِنَ السِّجْنِ يُوسُفاً وَيُؤْوِيكَ مَنْ آوَى المسيحَ بنَ مَرْيَما

مهما فتّش الباحث فلن يجد مثالاً لهذا الشاعر الوفي ، الذي يشيد بممدوحه في أسره ، ويلوم آسريه وهم أصحاب الدولة والسطوة ، ويؤمِّل له النجاة والعودة إلى ملكه . وفي هذا مخاطرةٌ بنفسه ، وتعرّضٌ لعقاب المرابطين وهو في سلطانهم . والشاعر في هذا كلِّه لا يريد جزاء ولا شكوراً ، ولكنّه الرثاء للصديق ، والوفاء لصاحب المعروف(١) .

٦ ـ شاعرية المعتمد . .

كان بنو عبّاد أكثر ملوك الطوائف حظّاً من القوّة وسعة السلطان وبعد الصيت على أرض الأندلس ، وأوفرهم نصيباً في وفود الأدباء والشعراء والعلماء إليهم ، بما تسلّطوا على إشبيلية وقرطبة وما يتبعها ، وأعظمهم أدباً وشاعريّة ، حتى لتكاد الأسرة كلُّها أن تكون من الشعراء . فكان المؤسِّس الأوّل لدولة بني عبّاد محمّد بن إسماعيل بن عبّاد شاعراً ، وكذلك ابنه وخليفته المعتضد ، وقد مرّت معنا نماذج من أشعارهما . أمّا المعتمد فكان سيّد الشعراء وأبا الأدباء ، وَرَبَّ أُسْرَةٍ فُطرت على قول الشعر ، إذا كان هو شاعراً لايدانى ، والرميكيّة أمّ أولاده

(١) المعتمد بن عباد للدكتور عبد الوهاب عزام ص ٧٩ .

شاعرة ، وكان بنوه شعراء ، ومنهم من ترجم له بين أدباء الأندلس ، وكانت بنته بثينة شاعرة ذكرت في الشواعر الأندلسيَّات . وكان يدرِّب أولاده على الشعر ، ويطارحهم إيّاه[1] . بل زعموا أنّه كان يشترط فيمن يصبح وزيراً عنده أن يتميَّز بالصفات اللازمة بمنصبه ، وأن يكون أيضاً أديباً وشاعراً ، فاجتمع له من الوزراء الشعراء ما لم يجتمع لأحد قبله[2] .

وكان المعتمد معجباً بشعر المتنبِّي ، واستشهد مرّة ببيت للمتنبِّي مستحسن إيّاه ، فقال شاعره ابن وهبون بديهة :

لَئِنْ جَادَ شِعْرُ ابنُ الحُسَيْنْ فَإِنَّمَا ... تُجِيدُ العَطَايَا وَاللُّها تَفْتَحُ اللَّهَ

تَنَبَّأَ عُجْباً بِالقَرِيضِ وَلَوْ دَرَى ... بِأَنَّكَ تَرْوِي شِعْرَهُ لَتَأَلَّهَا[3]

ومما يدلُّ على كرمه أنّه سمع شاعره ابن وهبون يقول فيه :

غَاضَ الوَفَاءُ ، فَمَا تَلْقَاهُ فِي رَجُلٍ ... وَلَا يَمُرُّ لِمَخْلُوقٍ عَلَى بَالِ

قَدْ صَارَ عِنْدَهُمُ عَنْقَاءَ مُغْرِبَةً ... أَوْ مِثْلَ مَا حَدَّثُوا عَنْ أَلْفِ مِثْقَالِ

فبعث وراءه وقال له : عنقاء مغربة وألف مثقال يا عبد الجليل عندك سواء ؟ فقال : نعم ! فأمر له بها وبألف أخرى ينفقها ، وقال له : الآن حدِّث بها لا عنها[4] . وهكذا استطاع المعتمد بن عبّاد أن يجمع بين إمارة السيف والجود والقلم . وكانت له مساجلات شعريّة ، ومراسلات مع وزرائه وولاته حفلت بها كتب الأدب في الأندلس «ذخيرة ابن بسَّام ، مطمح الأنفس لابن خاقان ، نفح الطيب للمقَّري ، المعجب للمّراكشي وغيرها مما مرّ معنا» .

---

(١) نفح الطيب ٥/١٤٦ - ٣٨٥ - ٣٨٦ .

(٢) المعجب صفحة ٦٥ .

(٣) المطرب ١١٨ ونفح الطيب ٤/٢١٩ .

(٤) المعجب صفحة ٦٤ ونفح الطيب ٤/٢١٩ .

وظلَّ المعتمد بن عبّاد موضوع عناية الكتّاب في هذا العصر الحديث ، فلم يخلُ كتاب في الأندلس من ذكره . وجمع شعره في ديوان طبع في مصر أخيراً ونشره الأستاذان أحمد بدوي وحامد عبد المجيد ، وكَتَبا له مقدِّمة حسن وافية[1] . وكان أوفى ما كتب عن حياته وأدبه حديثاً رسالة «هلدا شعبان» التي قدَّمتها إلى دائرة اللغة العربية في جامعة بيروت الأمريكية ، ونالت بها شهادة الماجستير[2] .

ولم يكن المعتمد أوّل ملك أُنزل عن عرشه ، وانُتزع التاج عن رأسه ، وسُيِّرَ مع حرمه ومن تبقى حيّاً من أولاده أسيراً يرسف بالأغلال ، ويموت غريباً في الأسر ، فقيراً بعد غنى ، ذليلاً بعد عزٍّ ، فقد نُكِبَ قبله وبعده كثير من الملوك العظماء ، ولكنَّ المعتمد كان من طراز خاصّ .

لقد كان محبَّباً إلى الناس ، وإلى الشعراء بنوع خاصّ ، وذلك لكرمه وسماحة طبعه ، ولحبِّه الشعر وتقديره للشعراء ، ولكونه قبل ذلك شاعراً يحسن النظم ويجيد القول . يضاف إلى ذلك تلك النهاية المأساويّة التي انتهى إليها عندما سيق فيها المعتمد إلى الأسر ، مكبَّلاً بالقيود ، منكوباً باثنين من أبنائه ، منفيّاً من قصوره التي شادها ، مُنزَّلاً عن عرشه ، محمولاً على السفن التي أقلَّته وأهله في الوادي الكبير في نهر إشبيلية ، وقد احتشد على ضفَّتيه الألوف المؤلَّفة من الناس تبكيه وتبكي ملكه الضائع .

فقد كان لهذا المشهد في نفس المعتمد وفي شعره في الأسر ، وفي شعر الشعراء الذين عاصروه وتلوه ، أثرٌ كبير . ولا أدلّ على ذلك من هذا المشهد الذي كان حافزاً للشعراء من موقف شاعره الأمين ابن اللّبانه التي جعله ينوح بداليّته

---

(١) المعتمد بن عباد للدكتور عبد الوهاب عزام حاشية الصفحة ٢٠ .
(٢) الملوك الشعراء لجبرائيل جبور ٢٨٠ .

التي مازال الناس يردّدونها حتّى اليوم ، وستظلّ كذلك حتّى يرث الله الأرض ومَن عليها ، ومطلعها :

تَبكي السَّماءُ بمُزْنٍ رَائِحٍ غَادِ عَلى البَهاليلِ مِنْ أَبْنَاءِ عَبّادِ[1]

ثم تائيّته التي مطلعها :

لِكُلِّ شيْءٍ مِنْ الأَشْيَاءِ مِيقاتُ وَلِلْمُنَى مِنْ مَنَايَاهُنَّ غَايَاتُ[2]

أو قصيدة ابن حمديس التي يقول فيها :

وَلَمَّا رَحَلْتُمْ بِالنَّدى في أَكُفِّكُمْ وَقَلْقَلَ رِضْوَى مِنْكُمُ وَثَبيرُ

رَفَعْتُ لِسَاني بِالقِيَامَةِ قَدْ دَنَتْ فَهَذي الجِبَالُ الرَّاسِياتُ تَسيرُ[3]

فإذا كان هذا أثر النكبة في نفوس الناس الذين عرفوه ، فكيف يكون أثرها في المعتمد نفسه ؟ وهو سهام العدا وربُّ القوافي .

إنّه سلطان الشعر ! سلطان الكلمة الساحرة التي فعلت فعلها بنفس العربيّ . ألا بارك الله لها هذا السلطان .

ولست أعلم رجلاً في تاريخنا العربيّ أو في تاريخ الأمم الأخرى ، كان لنكبته من الأثر في الأدب مثل ما كان لنكبة هذا الملك الشاعر[4] .

وحين ندرس شعر المعتمد يجب ألاّ ننسى قضيّتين أساسيّتين :

الأولى : أنّ شعره شأن أكثر الشعر الأندلسي شديدُ الصلة بماضي الشعر القديم الأمويّ منه والعباسيّ ، وأحياناً الجاهليّ .

---

(١) نفح الطيب ٥/٣٤٥ .

(٢) قلائد العقبان ٢٨ .

(٣) الذخيرة القسم الأول المجلد ٣١٣ .

(٤) انظر الملوك الشعراء لدكتور جبرائيل جبور ٢٨٢ .

والثانية : أنّه على صلته بالقديم ، نراه يتأثّر كثيراً بمؤثّرات المحيط والبيئة ، ويختلف بعضه عن بعض باختلاف أدوار حياته ، واختلاف المؤثّرات نفسها .

ولقد كان للبيئة التي نشأ فيها المعتمد أكبرُ الأثر في شعره ، فقد كان آباؤه قبله كما لاحظنا شعراء ، وكان هو بفطرته شاعراً ، فقال الشعر استجابة للمؤثّرات التي حوله وللحياة التي عاشها . وكان عالماً بالشعر وبحوره وأوزانه ، دقيقَ النظر فيما يعرض عليه الشعراء . فقد زعموا أنَّ عبد الجليل بن وهبون مدحه بقصيدة فيها تسعون بيتاً ، فأجازه بتسعين ديناراً فيها دينار مقروض ، فلم يعرف العلّة في ذلك إلى أن تأمّلها ، وإذا هو قد خرج من العروض الطويل في بيت ، إلى العروض الكامل ، فعرف حينئذ السبب[1] .

ويمكن أن نقسم شعره إلى ثلاثة أدوار ، تبعاً لأدوار حياته :

الدور الأول . . ويمثّل الشعر الذي قالة في فورة شبابه حتى الثلاثين من عمره ، حيث كان منصرفاً إلى اللهو والمجون .

الدور الثاني . . ويمثّله الشعر الذي قاله أيّام ملكه ، ولا يختلف كثيراً في أغراضه عن شعره في الدور الأوّل ، إلاّ بكونه أشدَّ أسراً ، وأكثر جزالة .

الدور الثالث . . وهو الشعر الذي قاله في نكبته وأسره ، فهو من أرقِّ شعره وأقواه ، وأكثره في شجون نفسه وأحزانها .

شعر الدور الأوّل . .

يمثّل الشعر في هذه المرحلة شبابَ المعتمد الفوّار ، وسِنَّ النزق والطيش ،

---

(١) أخبار وتراجم أندلسية للسلفي ، حققها إحسان عباس صفحة ١٩ انظر حاشية الملوك الشعراء للدكتور جبرائيل جبور ٢٨٤ .

الذي انصبَّ على اللّهو والمجون ، فهو يعجُّ بوصف الخمر ومجالس الأنس والغزل ، ولا يخلو من بعض المطارحات التي كان يتبارى فيها الشعراء لإظهار بداهتهم وتفوُّقهم بالوصف . ومن شعره في هذا الدور قصيدة بعث بها إلى أبيه يعتذر فيها عن تقصيره وتخاذله في فتح مالقة ، وقد مرَّ معنا جزء منها ، وعرفنا أنَّ قائلها شاعر ألف النظم وتمرَّس به ، وأجاد أساليبه ، كما عرفنا أنّها من نظم رجل خَبِرَ الحربَ ، وخاض غمارها ، وظفر في بعضها ، ولم يحالفه النجاح في بعضها الآخر . وهو بين كلّ هذا وذاك يحاول أن يدافع عن نفسه ، ويدفع ما اتّهم به من تهاون والتفات إلى النساء والخمرة ، وقد تأثّر والده بهذا الإعتذار وعفا عنه :

سَكِّنْ فُؤادَكَ لَا تَذْهَبْ بِكَ الفِكَرُ ... مَاذَا يُعيدُ عَلَيْكَ البَثُّ وَالحَذَرُ

وَازْجُرْ جُفُونَكَ لَا تَرْضَ البُكَاءَ لَهَا ... واصْبِرْ فَقَدْ كُنْتَ عِنْدَ الخَطْبِ تَصْطَبِرُ

كَمْ زَفْرةٍ في شِغافِ القَلْبِ صَاعِدَةٍ ... وَعَبْرَةٍ مِنْ شُؤون الدَّهْرِ تَنْحَدِرُ(٢)

وقد جاء في نفح الطيب أنّ والده طلب منه مرّة أن يصف ترساً لازوردياً كان بين يديه ، وقد طوّق بالذهب ، ودقّت في وسطه مسامير ، فقال :

مِجَنٌّ حَكَى صَانِعوهُ السَّماءَ ... لِتَقْصُرَ عَنْهُ طِوالُ الرِّمَاح

وَقَدْ صَوَّروا فيه شِبْهَ الثُّرَيَّا ... كَواكِبَ تَقْضي الأُفْقَ لَهُ بالنَّجاح

وَقَدْ طَوَّقُوهُ بِذَوبِ النُّضَارِ ... كَمَا جَلَّلَ الأُفْقَ ضَوْءُ الصَّباح(٣)

إنَّ معظم شعر هذه المرحلة كان يدور حول الحياة التي عاشها مع ندمائه ومغنيّة وجواريه ووصفه لبعض مجالس لهوه وأنسه في متنزّهات إشبيلية وشلب ، وقد ظلَّ يحفظ أطيب الذكرى وأهنأها للحياة التي قضاها أميراً في شلب ، كما نرى من أبياته التي وجهها الى ابن عمار ، وزيره وواليه في شلب :

---

(٢) للمزيد انظر ديوان المعتمدة صفحة ٣٦ .

(٣) انظر نفح الطيب ٥/٢٣٤ .

أَلَا حَيِّ أَوْطاني بِشَلْبٍ أَبا بكْرِ وَسَلْهُنَّ هَلْ عَهْدُ الوِصَالِ كَمَا أَدْري ؟
وَسَلِّمْ عَلَى قَصْرِ الشَّراحيب عَنْ فَتىً لَهُ أَبداً شَوْقٌ إلى ذَلِكَ القَصْرِ
وَكَمْ لَيْلَةٍ قَدْ بِتُّ أَنْعَمُ جُنْحَهَا بِمُخْصِبَةِ الأَرْدافِ مُجْدِبَةِ الخَصْرِ
وَبيضٍ وَسُمْرٍ فَاعِلاتٍ بِمُهْجَتي فِعالَ الصِّفَاحِ البِيضِ وَالأَسَلِ السُّمْرِ[1]

وأمّا شعره الغزليّ ، فإنَّ جُلَّه كان في جوارٍ معروفات حفظ لنا شعره أسماءهنّ ولعلّ منهنّ اعتماد الرميكيّة التي أصبحت فيما بعد أمّاً لأولاده وملكةً على إشبيلية . ولعلّ صاحب نفح الطيب صادق فيما نقله لنا عن سبب اختياره للرميكيّة ، وتقول الرواية : إنّ سبب اختياره لاعتماد زوجاً له كان صدفة ، وذلك حين كان هو وابن عمّار يتنزهان على شاطىء النهر في إشبيلية عند مرج الفضّة . قالوا فبينما هما على ضفة النهر إذْ هبّت ريح فزردت سطح الماء ، فقال لابن عمار : أجز :

صَنَعَ الرِّيحُ مِنَ المَاءِ زَرَدْ ....

فتلكأ ابن عمّار وأطال الفكرة . فبدرته امرأة كانت بالقرب منهما ، قيل كانت تغسل في النهر ، فقالت :

أيُّ دَرْعٍ لِقِتَالٍ لَوْ جَمَدْ ....

فتعجّب ابن عبّاد من حسن ما أتت به ، مع عجز ابن عمّار . ونظر إليها فإذا هي صورة حسنة فأعجبته ، واشتراها وأصبحت زوجَهُ وأُمَّ أولاده الأمراء النجباء[2] . وله في هذه المرأة أشعار كثيرة حفظها لنا ديوانه ، ويلوح لنا أنّ مقطوعته التي ضمَّن أوائل أبياتها حروف اسمها «اعتماد» قد أرسلها إليها قبل أن

(١) ديوان المعتمد ١١ وقلائد العقبان ٣٢ . الصفاح : السيوف . والأسل : الرماح .
(٢) انظر نفح الطيب ٣٤٢ ـ ٣٤٣ وهناك اختلاف مع ما جاء في بدائع البدائه ٣٧ ـ ٣٨ وديوان ابن حمديس حيث تنسب القصة لغيرهم .

تصبح زوجاً له ، فقد قالها فيها وكتبها وبعث بها إليها وهو غائب عن إشبيلية

«إ» أَغَائِبَةَ الشَّخْصِ عَنْ نَاظِرِي وَحَـاضِـرَةً في صَـمِيـم الفُـ
«ع» عَلَيْكَ السَّلاَمُ بِقَدْرِ الشُّجونِ وَدَمْـعِ الشُّؤُونِ وَقَـدْرِ السُّهَـ
«ت» تَمَلَّكْتِ مِنِّي صَعْبَ المُـرَام وَصَـادَفْتِ مِنِّي سَهْـلَ القِـيَـ
«م» مُرادِيَ لُقْياكِ في كُلِّ حينٍ فيَـا لَيْتَ أَنِّي أُعْـطَى مُـرا
«ا» أقيمي عَـلَى العَهْدِ ما بَيْنَنا وَلاَ تَسْتحيـلي لِـطُولِ الـبُعـ
«د» دَسَسْتُ اسْمَكِ الحُلْوَ في طيِّة وَأَلَّفْتُ حُبّـاً حُـروفَ اعْتِمـا

«ومهما يكن من أمره مع اعتماد وغيرها من الجواري ، فقد دار أكثر شعـ الغزلي في شبابه حول هذه الأغراض المعروفة والمعاني المألوفة في شعر الغز المشرقي ؛ من ذكر الشوق إلى الحبيب ، والشكوى من بُعده ، ووصف الألم الذ يعانيه المحبُّ ، والدموع التي يسكبها ، والتجلُّد الذي يبديه في احتمال ألم البـ والحرمان . وقد يذكر قديم عهد له مع الحبيب ، أو يشكو صدّاً منه ، أو لوْمَ لا عذله في الحبِّ ، ولا ينسى أحياناً أن يتذلَّل إلى المحبوب كما كان يفعل المحبّون مـ الشعراء العرب قبله»[2] ، فيقول :

أَيَـا نَفْسُ لاَ تَجْـزَعي وَاصْـبري وَإلاَّ فَـإنَّ الهَـوَىٰ مُـتْـلِفـ
حَبيبٌ جَفَـاكِ ، وَقَلْبٌ عَصَاكِ ، وَلاَحٍ لَحَـاكِ ، وَلاَ يُـنْـصِـ
شُجـونٌ مَنَعْنَ الجُفُـونَ الكَـرَى وَعَـوَّضْنَهـا أَدْمُـعَـاً تَـنْـزِفُ

وفي جارية لم يُسمِّها ، يقول :

أَنَـا في عَـذابٍ مِنْ فِـراقِـكْ نَشْـوانُ مِنْ خَمْـرِ اشْـتِيـاقِـ

(١) ديوان المعتمد صفحة ٨ .
(٢) الملوك الشعراء للدكتور جبرائيل جبور ٢٨٨ .
(٣) ديوان المعتمد بن عبّاد ٢١ .

صَبُّ الفُؤَادِ إِلىٰ لِقَا ئِكِ وَارْتِشَافِكِ وَاعْتِنَاقِكْ
هَذي جُفُوني أَقْسَمَتْ لاَ تَكْتَفِي مَا لَمْ تُلاَقِكْ
فَصِلِي جَمِيلَ الظَنِّ بي وَثِقِي فَقَلْبي في وِثَاقِكْ[1]

وها هو يجانس ما بين الوداد واسم جارية له اسمها وداد مازجاً بين الراح والحبّ ، فيقول :

اشْرَبِ الكَأْسَ في وِدَادِ وِدَادِكْ وَتَأَنَّسْ بِذِكْرِهَا في انْفِرادِكْ
قَمَرٌ غَابَ عَنْ جُفُونِكَ مَرآ هُ وَسُكْنَاهُ في سَوادِ فُؤادِكْ[2]

زارته وهو عليل جارية اسمها سحر ، فسحرته ، فقال فيها :

سَأَسْأَلُ رَبِّي ؛ أَنْ يُديمَ بِيَ الشَّكْوَى وَقَدْ قَرُبَتْ مِنْ مَضْجَعي الرَّشَأُ الأَحْوىٰ[3]
إِذَا عِلَّةٌ كَانَتْ لِقُرْبِكِ عِلَّةً تَمَنَّيْتُ أَنْ تبقَى بِجِسْمي وَأَنْ تَقْوَى
شَكَوْتُ وَسَحَرٌ قَدْ أَغَبَّتْ زِيَارَتي فَجَاءَتْ بِهَا النُّعْمَى الَّتِي سُمِّيَتْ بَلْوَى
فَيَا عِلَّتِي دُومي فَأَنْتِ حَبيبَةٌ وَيَا رَبِّ سَمْعاً مِنْ نِدائِيَ وَالشَّكْوَى[4]

ويبدو أنّها قد علقت حباله سحر هذه ، فها هو يألم إذا فارقته ، ويجأر بالشكوى :

عَفَا اللهُ عَنْ سَحَرٍ عَلَى كُلِّ حَالَةٍ وَلَا حُوسِبَتْ عَنِّي بِمَا أَنَا وَاجِدُ
أَسَحَرٌ ظَلَمْتِ النَّفْسَ وَاخْتَرْتِ فُرْقَتِي فَجَمَّعْتِ أَحْزاني وَهُنَّ شَوارِدُ
وَكَانَتْ شُجوني بِاقْتِرابِكِ نُزَّحاً فَهَا هُنَّ لَمَّا أَنْ نَأَيْتُ شَوَاهِدُ

---

(١) المرجع السابق ٢٢ .
(٢) نفح الطيب ٢٣٢/٥ وديوان المعتمد ١٠ .
(٣) الأحوى : من الحوة وهي حمرة تضرب إلى السواد أوسمرة في باطن الشفة .
(٤) ديوان المعتمد ٢ .

فَإِنْ تَسْتَلِذِّي بَرْدَ مَائِكِ بَعْدَنَا فَبَعْدَكِ مَا نَدْري مَتَى المَاءُ بَارِدُ[1]

وكانت جاريته جوهرة أدبية فكان يكتب إليها الشعر وقد أجابته مرَّة عن كتاب برقعة لم تعنونها باسمها ، وكانت عاتبة عليه لأمر ، فقال :

لَمْ تَصِفْ لي بَعْدُ وَإِلَّا فَلِمْ لَمْ أَرَ في عِنْوانِهَا جَوْهَرَهْ ؟
دَرَتْ بِأَنِّي عَاشِقٌ لاِسْمِهَا فَلَمْ تُرِدْ لِلْغَيْظِ أَنْ تَذْكُرَهْ
قَالَتْ : إِذَا أَبْصَرَهُ ثَابِتاً قَبَّلَهُ ، وَاللهِ لاَ أَبْصَرَهْ[2]

ليست هذه النفحة الشعريّة ببعيدة عن جِواريّات عمر بن أبي ربيعة والوليد بن يزيد والعرجيّ وغيرهما . وكما رأينا فإنَّ شعره في هذا الطور شعر تقليديّ . لا يختلف كثيراً عن شعر الشعراء في المشرق ، في العصر العباسيّ - الذين لم يعرفوا الحبّ كما عرفه شعراء العصر الأمويّ ، العمريّون منهم والعذريّون ، فذوَّبوا قلوبهم فيه وذابوا - فهو ضعيف العاطفة ولا يخلو من التصنُّع والتلفيق ، وقريبٌ من ذلك شعره غير الغزليّ من مراسلات ومطارحات بينه وبين زملائه الأمراء والشعراء كابن زيدون وابن عمّار وغيرهم[3] .

شعر الدور الثاني . .

شعر الدور الثاني ، ويمثّله الشعر الذي قاله في دور مُلكه ، وهو من حيث الأصل لا يختلف كثيراً في أغراضه الشعريّة عن شعره في الدور الأوَّل ، ولكنَّه في هذا الدور يرقى ويرتفع فهو أشدُّ أسراً ، وأكثرُ جزالة ، وأنصعُ ديباجة ، وأعمقُ تجربةً ، وأبعدُ بذخاً .

---

(١) المرجع السابق ص ٨ .
(٢) نفح الطيب ٥/٢٣٢ وديوان المعتمد ص ١٤ .
(٣) الملوك الشعراء ٢٩٠ للدكتور جبرائيل جبور .

فهو يمثّل نَفْسَ ملِكٍ أصبح ذا عزٍّ عظيم وسطوةٍ ومكانة وسلطان ، وقد نضج بفضل اختلاطه بطائفة من الشعراء اللامعين الذين عرفتهم الأندلس في عصره ، واستطاع أن يجذبهم إلى بلاطه ليكونوا ندماءه وخلفاءه كابن عمار وابن زيدون اللّذين عرفهما في حياة أبيه ، والوزير أبي بكر بن عبد العزيز ، وابن جامع الصبّاغ ، وأبي بحر عبد الصمد ، وابن اللبانة الذي أصبح من أخلص الشعراء له ، وابن وهبون ، وابن القزاز الوشّاح المشهور ، وابن حمديس الصقليّ ، وابن مرزقان وغيرهم[1] .

وخير ما يمثّل شعر هذا الدور قصيدته التي أرسلها إلى ابنه يزيد الراضي يعاتبه بشيء من الهزل على تخلّيه عن القتال حين وجّهه إليه ، وعلى تعلُّقه بالكتب والدفاتر والمطالعة . وهي تمثّل ناحية من شخصيّته وثقافته الأدبيّة ، والطريق التي أخذ بها أولاده في تربيتهم على الشجاعة وحبِّ الحرب ودفعهم إلى إقتحام الأهوال ، يقول :

الْمُلْكُ في طَيِّ الدَّفَاتِرْ فَتَخَلَّ عَنْ قَوْدِ العَسَاكِرْ
طُفْ بِالسَّرِيرِ مُسَلِّماً وَارْجِعْ لِتَوْدِيعِ المَنَابِرْ
وَازْحَفْ إلىٰ جَيْشِ المَعَارِفِ ، تَقْهرِ الحِبْرَ المُقَامِرْ
وَاطْعَنْ بِأَطْرافِ اليَراعِ نُصِرْتَ في ثَغْرِ المَحَابْرِ
وَاضْرِبْ بِسِكينِّ الدَّوَاةِ مَكَانَ مَاضِي الحَدِّ بَاتِرْ
أَوَلَسْتَ رِسْطَالِيسَ إنْ ذُكِرَ الفَلَاسِفَةُ الأَكَابِرْ ؟
وَأَبُو حَنِيفَةَ سَاقِطٌ في الرأْيِ حينَ تكونُ حَاضِرْ ؟
وَكَذاكَ إنْ ذُكِرَ الخَلِيلُ فَأَنْتَ نَحْوِيٌّ وشَاعِر ؟
مَنْ هِرْمِسٌ ؟ مَنْ سِيَبَوَيْـ ـه ؟ مَنْ ابنُ فَوْرَكَ إذْ تُنَاظِرْ ؟

(١) انظر نفح الطيب الجزء الخامس والسادس .

هَــذِي المَــكَــارِمُ قَــدْ حَــوَيْـ ـتَ فكُنْ لِمَنْ حَابَاك شَــاكِـرْ
اقْــعُــدْ فَــإِنَّــكَ طَــاعِــمُ كَاسٍ ، وَقُلْ هَـلْ مِنْ مُفَاخِـرْ
أَوَلَسْتَ تَــذْكُـرُ وَقْتَ لَــو (م) رَقَــةٍ وَقَــلْبُــكَ ثَــمَّ طَــائِــرْ
لَا يَــسْــتَــقِــرُّ مَــكَــانَــهُ وَأَبُــوكَ كَــالــضِّــرْغَــامِ خَــادِرْ
هَــلَّا اقْــتَــدَيْــتَ بِــفِــعْــلِهِ وَأَطَــعْــتَــهُ إِذْ ذَاكَ آمِــرْ
قَــدْ كَــانَ أَبْصَرَ بِــالــعَــوَاقِـ ـبِ وَالمَــوارِدِ وَالمَــصَــادِرْ

وقد أجابه عنها ابنه بقصيدة على رويّها ، تُظهر الراضي أيضاً أنّه كان شاعراً (١) .

ومن شعره في هذا الدور بيتان قالهما في جواريه ، وقد عزم على إرسالهنّ مرّة من قرطبة إلى إشبيلية وخرج معهنّ يشيعهنّ فسايرهنّ من أوّل الليل إلى الصبح ثم ودَّعهن ورجع ، وأنشد :

سَايَرْتُهُمْ وَاللَّيْلُ غُفْلٌ ثَــوْبُــهُ حَتّى تَبَــدَّى لِلنَّــوَاظِــرِ مُعْلَمَا
فَــوَقَفْتُ ثُمَّ مُــوَدِّعَــاً وَتَسَلَّبَتْ مِنِّي يَدُ الإِصْبَاحِ تِلْكَ الأَنْجُمَا (٢)

شعر الدور الثالث . .

إنّ شعر الدور الثالث يمثّل شعر النكبة والأسر ، ولذا فهو أرقُّ شعر للمعتمد وأقواه ، وأكثرُه تأثيراً في النفس ، لأنَّ أكثره قيل في شجون نفسه وأحزانها .

وقد نحا المعتمدُ فيه منحاً بسيطاً سهلاً ، إذْ ترك سجيته على طبيعتها ، وترك لطبعه أن ينساب برقّة ورويَّة ، مبتعداً عن التكلّف والصناعة التي راجت في دوري إمارته وملكه .

---

(١) انظر نفح الطيب ٣٩٥/٥ ـ ٣٨٦ وديوان المعتمد ص ٤٦ ـ ٤٨ .
(٢) نفح الطيب ١٠٦/٦ وديوان المعتمد ص ٢٦ .

ولقد فجع المعتمد في بداية هذا الدور بمقتل اثنين من بنيه ، كانا يدافعان عن حوزته وملكه ، فأذكى الحزن عليهما عاطفته ، وأوقد جمر اللوعة في قلبه ، فانفجر ينشد العزاء لنفسه بعاطفة صادقة مخلصة متهدِّجة ، يرثيهما بدموع سخية لا ترقأ ، ويحاول التصبُّر على فقدهما فلا يسعفه الصبر ، ويبكي للوعته عليهما عله يجد في ذلك شفاء لجراحه ، ولكن أنى له ذلك ، فيقول :

يَقُولونَ صَبْراً ، لَا سبيلَ إلىٰ الصَّبْرِ ... سَأَبْكي وَأَبكي مَا تَطاوَلَ مِنْ عُمْري

هوَى الكَوْكَبانِ ؛ الفَتْحُ ثُمَّ شَقيقُهُ ... يَزيدُ ، فَهَلْ عِنْدَ الكَواكِبِ مِنْ خُبْرِ

تَرَى زُهْرَها في مأْتَمٍ كُلَّ لَيْلَةٍ ... تُخَمِّشُ لَهْفاً وَسْطَهُ صَفْحَةَ البَدْرِ

يُنُحْنَ عَلَى نَجْمَيْنِ أُثْكِلْتُ ذَا وذا ... وَاصْبِرْ؟ مَا لِلْقَلْبِ في الصَّبْرِ مِنْ عُذْرِ

مدَى الدَّهْرِ فَلْيَبْكِ الغَمَامُ مُصَابَهُ ... بِصِنْوَيْهِ يُعْذَرْ في البُكَاءِ مَدَى الدَّهْرِ

بِعَيْنِ سَحَابٍ وَاكِفِ القَطْرِ دَمْعُها ... عَلَى كُلِّ قَبْرٍ حَلَّ فيهِ أَخُو القَطْرِ

وَبَـرْقٍ ذَكيٍّ النَّـارِ حَتَّى كَـأَنَّمَـا ... يُسَعَّرُ مِمَّا في فُؤادي مِنَ الجَمْرِ

هَوَى بِكُمَا المِقْدارُ عَنِّي وَلَمْ أَمُتْ ... وَأُدْعَى وَفِيّاً ! قَدْ نَكَصْتُ إلىٰ الغَدْرِ

تَـوَلَّيْتُـمَا وَالسِنُّ بَعْـدُ صَغيـرةٌ ... وَلَمْ تَلْبَثِ الأَيَّامُ أَنْ صَغَّرَتْ قَدْري

مَعي الأَخَواتُ الهَالِكَـاتُ عَلَيْكُمَا ... وَأُمُّكُـما الثَّكْلَى المُضَـرَّمَةُ الصَّـدْرِ

فَلَوْ عُدْتُمَا لَاخْتَرْتُمَا العَوْدَ في الثَّرىٰ ... إِذَا أَنْتُـما أَبْصَرْتُمَـانيَ في الأَسْرِ[1]

وهناك أبيات مثبتة في الديوان لم يذكرها الفتح هي :

هَوَى الكَوْكَبَانِ ، الفَتْحُ ثُمَّ شَقيقُهُ ... يَزيدُ ، فَهلْ بَعْدَ الكَواكِبِ مِنْ صَبْرِ؟[2]

أَفَتْحُ لَقَدْ فَتَّحْتَ لي بَابَ رَحْمَةٍ ... كَما بِيزيدَ الله ، قَدْ زَادَ في أَجْري

بَعيدٌ عَلَيَّ سَمْعي الحديدَ نَشيدُهُ ... ثَقيلًا ، فَتَبْكي العَيْنُ بِالجَسِّ وَالنَّقْرِ

(١) انظر قلائد العقيان ص١٢ وديوان المعتمد ١٠٥ .

(٢) الفتح هو المأمون . ويزيد هو الراضي .

مَعي الأَخَواتُ الهَالِكَاتُ عَلَيكُمَا وَأُمُّكُمَا الثَّكْلَى المُضَرَّمَةُ الصَّدْرِ
فَتَبكي بِدَمْعٍ لَيْسَ لِلْقَطْرِ مِثْلَهُ وَيزْجُرَهَا التَّقْوَى فَتُصْغي إِلىٰ الزَّجْرِ
أَبَا خَالِدٍ أَوْرَثْتَني البَثَّ خَالِداً أَبَا النَّصرِ مُذْ وَدَّعْتَ ، وَدَّعَني نَصْري[1]
وَقَبْلَكُمَا مَا أُودِعَ القَلْبُ حَسْرَةً تُجَدِّدُ طُولَ الدَّهْرِ ثُكْلَ أَبِي عَمْرِو[2]

وفيهما يقول من قصيدة نائحة :

بَكَيْتُ فَتْحاً ، فَإِذْ مَا رُمْتُ سَلْوَتَهُ ثَوَى يَزِيدُ ، فَزَادَ القَلْبَ نِيرَانا
يـا فِلْذَتَيْ كَبدي يَـأْبَى تَقَـطُّعُهـا عَنْ وَجْدِهَا بِكُمَا ، مَا عِشْتُ سِلْوانا
مِنّي السَّـلامُ وَمِنْ أُمٍّ مُفَجَّعَـةٍ عَلَيْكُمَـا أَبَـداً مَثْنَى وَوِحْـدَانَـا
أَبْكي وَتَبْكي وَتُبكي غَيْرَنَا أَسفاً لَـدَى التَّذَكُّرِ نِسْواناً وولْدانا[3]

ويقول في رثائهما وقد رأى قُمريّةً ترقب فرخيها ذات مساء في عشّهما على شجرة ولم يرَ إلفها معها ، فتخيلّه مُقيداً ، فأنشدَ :

بَكَتْ أَنْ رَأَتْ إِلْفَيْنِ ضَمَّهُمَا وَكْرُ مَساءً وَقَدْ أَخْنَى عَلَى إِلْفِهَا الدَّهْرُ
وَنَاحَتْ فَبَاحَتْ وَاسْتَرَاحَتْ بِسرِّهَا وَمَا نَطَقَتْ حَرْفاً يَبُوحُ بِهِ سِرُّ
فَمَالِيَ لَا أَبْكي ، أَمِ القَلْبُ صَخْرَةٌ ؟ وَكَمْ صَخْرَةٍ فِي الأَرْضِ يَجْرِي بهَا نَهْرُ
بَكَتْ وَاحداً لَمْ يُشْجِهَا غَيْرُ فَقْدِهِ وَأَبْكي لأُلاَّفٍ عَـديـدُ هُمْ كُـثْرُ
بُنَيٌّ صَغِـيرٌ ، أَوْ خَليـلٌ مُـوافِقٌ يُمَزِّقُ ذَا فَقْرٌ ، وَيُغْرِقُ ذَا بَحْرُ
وَنَجْمـانِ زَيْنٌ لِلزَّمَانِ احْتَـواهُمَـا بِقُرْطُبَةَ النَّكْدَاءِ أَوْ رَنْدَةَ القَـبْرُ
غَدَرْتُ إِذَنْ ، إِنْ ضَنَّ جَفْني بِقَطْرَةٍ وَإِنْ لَؤُمَتْ نَفْسي فَصَاحِبُها الصَّبْرُ
فَقُلْ لِلنُّجوم الزُّهْرِ تَبْكي مَعي دَماً لِمِثْلِهِمَا فَلْتَحْزَنِ الأَنْجُم الـزُّهْرُ[4]

---

(١) انظر ديوان المعتمد ص ٦٩ ـ ٧٠ .
(٢) أبو خالد : الراضي . وأبو النصر : المأمون .
(٣) أبو عمر هو الظافر .
(٤) نفح الطيب ٣٨٢/٥ ـ ٣٨٣ وقلائد العقيان ٢٣ وديوان المعتمد ٦٨ ـ ٦٩ .

إنّ المحنة التي أرخت بكلكلها على المعتمد بن عبّاد لم تقتصر على سلبه عرشه ، وخلعه عن ملكه ، وأسره ، وفقده لولديه ، بل طَمَت حتى ضيِّعت الكثير من شعره ، لولا رحمة ربِّك الذي أودع تواريخ الأدب الأندلسيّ مقطوعات منه ، جُمعت فيما بعد لتكون ما يسمّى بديوان المعتمد بن عباد . وأكثر قصائده من الشعر الرائع الذي يدور على وصف محنته التي ما عرف التاريخ مثيلاً لها . فمن هذه المقطوعات قطعة قالها في يوم عيد ، وقد دخلت عليه بناته يزرنه في السجن ، أولها :

فيمَا مَضَى كُنْتَ بِالأَعْيَادِ مَسْرورا ... فَعَادَكَ العيدُ في أَغْمَاتَ مَأْسُورا

وفيها يقول :

تَرَى بَنَاتِكَ في الأَطْمَارِ جَائِعَةً ... يَغْزِلْنَ لِلنَّاسِ ، لاَ يَمْلِكْنَ قِطْميرا

بَرَزْنَ نَحْوَكَ لِلتَّسْليم خَاشِعَةً ... أَبْصَارُهُنَّ حَسيراتٍ مكَاسيرا

يَطَأْنَ في الطِّينِ وَالأَقْدَامُ حَافيةٌ ... كَأَنَّها لَمْ تَطَأْ مِسْكاً وَكَافُورا

قَدْ كَانَ دَهْرُكَ إِنْ تَأْمُرْهُ مُمْتَثِلاً ... فَرَدَّكَ الدَّهْرُ مَنْهِياً وَمَأْمُورا

مَنْ بَاتَ بَعْدَكَ في مُلْكٍ يُسَرُّ بِهِ ... فَإِنَّما بَاتَ بِالأَحْلاَمِ مَغْرُورَا[1]

وله قصائد كثيرة ، قالها يتذكّر قصوره التي بناها ، وطاب عيشه فيها ، منها قوله في قصوره «المبارك والثريّا والزاهي والوحيد» :

بَكَى المُبَارَكُ في أَثْرِ ابْنِ عَبَّادِ ... بَكَى عَلَى أَثْرِ غِزْلاَنٍ وَآسَادِ

بَكَتْ ثُرَيَّاهُ لاَ غُمَّتْ كَواكِبُهَا ... بِمِثْلِ نَوْءِ الثُّرَيّا الرَّائِحِ الغَادِي

بَكَى الوَحيدُ ، بَكَى الزَّاهي وَقُبَّتُهُ ... وَالنَّهْرُ وَالتَّاجُ كُلُّ ذُلُّهُ بَادِي

مَاءُ السَّمَاءِ عَلَى أَبْنَائِهِ دُرَرٌ ... يَا لُجَّةَ البَحْرِ دُومي ذَاتَ أَزْبَادِ[2]

---

(١) قلائد العقيان ٢٨ وديوان المعتمد ١٠٠ ـ ١٠١ ونفح الطيب ٦/٩ ـ ١٠ .

(٢) نفح الطيب ٦/١٠ وديوان المعتمد ص ٩٥ .

ومنها قصائد يذكر فيها مجده وعزّه السابقين ، وبؤسه الحالي وذلَّ القيود في رجليه ، يقول :

تَبَدَّلْتُ مِنْ ظِلِّ عِزِّ البُنودِ ... بِذُلّ الحديدِ وَثِقْلِ القُيُودِ
وَكَانَ حَديديَ سِناناً ذَليقاً ... وَعَضْباً رَقيقاً صَقيلَ الحديدِ
فَقَدْ صَارَ ذَاكَ وَذَا أَدْهُما ... يَعُضُّ بِسَاقَيَّ عَضَّ الأُسودِ(1)

لقد ظلَّ شعر المعتمد في منفاه مغمساً بالبؤس ، متدفِّقاً بالألم والحسرة ، منبعثاً من نفس تَزْجُرُ بعاطفة الحزن والأسى ، نفسَ عزيز ذلَّ ، وملك شاعر في سجن طاغية أميّ قد اصطبغ شعره في هذه المرحلة بمرارة التصبُّر، وعبرة التأسّي، والألم الموبق الذي يغمر النفس ويسربلها بالشقاء ، لكن المعتمد يظلُّ مخلصاً مع نفسه ، صادقاً في التعبير عمّا بها من شجون ، ليصبح شعره معرضاً فنيّاً لجودة اللفظ وعمق المعاني ورشاقة التعبير ، وكأنَّ المحنة شحذت عاطفته ، وألهبت نفسه ، وفتَّقت عبقريّته ، ومكّنته من ناصية القول ، وهي في الوقت نفسه تدعوه إلى التمسُّك بالصبر ، والتأسّي بالعبرة ، فيقول :

قُبِّحَ الدَّهْرُ فَماذَا صَنَعَا ... كُلَّما أَعْطَى نَفيساً نَزَعا
قَدْ هَوى ظُلْماً بِمَنْ عَاداتُهُ ... أَنْ يُنادِي كُلَّ مَنْ يَهْوي لَعَا
مَنْ إذَا قيلَ الخَنَاصُمَّ وَإنْ ... نَطَقَ العَافُونَ هَمْساً سَمعا
قُلْ لِمَنْ يَطْمَعُ في نَائِلِهِ ... قَدْ أَزَال اليَأْسُ ذَاكَ الطَّمَعَا
رَاحَ لاَ يَمْلِكُ إلَّا دَعْوَةً ... جَبَرَ الله العُفَاةَ الضُيَّعَا(2)

يظلّ التأسّي والعزاءُ خطَّتين ينهجهما الشاعر ليوطِّن النفس على المصاب

---

(1) ديوان المعتمد ٩٤ ونفح الطيب ٣٤٥/٥ والقلائد ٢٦ .
(2) انظر نفح الطيب ٩٦/٤ .

الأليم ويقنعها بالرضى والسلوان ، ويحاول أن يجد المثيل لمصابه ، فيقول :

اقْنَعْ بِحظِّكَ في دُنْيَاكَ مَا كَانَا وَعَزِّ نَفْسَكَ إنْ فَارَقْتَ أَوْطَانَا
في الله مِنْ كُلِّ مَفْقودٍ مَضى عِوَضٌ فَأَشْعِرِ القَلْبَ سِلْواناً وَإيمَانَا
أَكُلَّمَا سَنَحَتْ ذِكْرى طَرِبْتَ لَهَا مَجَّتْ دُموعُكَ في خَدَّيْكَ طُوفانَا ؟
أَمَا سَمِعْتَ بِسُلْطانٍ شَبيهكَ قَدْ بَزَّتْهُ سُودُ خُطوبِ الدَّهْرِ سُلْطانَا ؟[1]

ومرَّ عليه في موضع اعتقاله سرب قطا ، فهيَّج كوامن ذكرى الحريّة في نفسه ، فقال :

بَكَيْتُ إلى سِرْبِ القَطَا إذْ مَرَرْنَ بي سَوارِحَ ، لاَ سِجْنٌ يَعُوقُ وَلاَ كَبْلُ
وَلَمْ تَكُ وَالله المُعيذِ حَسَادَةً وَلَكِنْ حَنيناً أَنَّ شَكْلي لَهَا شَكْلُ
فَأَسْرَعُ لاَ شَمْلي صَديعٌ وَلاَ الحَشَا وَجيعٌ وَلاَ عَيْنَايَ يُبْكِيهُمَا ثُكْلُ
هَنيئاً لَهَا أَنْ لم يُفَرِّقْ جَميعُها وَلاَ ذَاقَ مِنْهَا البُعْدُ عَنْ أَهْلِهَا أَهْلُ
وَأَنْ لَمْ تَبِتْ مِثْلي تَطيرُ قُلوبُهَا إذَا اهْتَزَّ بَابُ السِّجْنِ أَوْ صَلْصَلَ القُفْلُ
وَمَا ذَاكَ مِمَّا يَعْتَريني وَإنَّمَا وَصَفْتُ الَّتي في جَبْلَةِ الخَلْقِ مِنْ قَبْلُ
لِنَفْسي إلى لُقْيَا الحِمَامِ تَشَوُّقٌ سِوَايَ يُحِبُّ العَيْشَ في سَاقِهِ حَجْلُ
أَلاَ عَصَمَ الله القَطَا في فِراخِهَا فَإنَّ فِراخي خَانَها المَاءُ وَالظِلُّ[2]

وجاء في نفح الطيب أنّه سجن مع قوم من «فاس» ثاروا على السلطان . فكان المعتمد يتسلّى بمجالستهم ، إلى أن شُفع فيهم فأفرج عنهم ، فدخلوا عليه مودِّعين ، فقال :

أَمَا لاِنْسِكابِ الدَّمْعِ في الخَدِّ رَاحَةٌ ؟ لَقَدْ آنَ أَنْ يَفْنَى وَيَفْنَى بِهِ الخَدُّ
هَبُوا دَعْوَةً يَا آلَ فَاسٍ لِمُبْتَلي بِمَا مِنْهُ قَدْ عَافَاكُمُ الصَّمَدُ الفَرْدُ

(١) انظر ديوان المعتمد ص ١١٤ - ١١٥ .
(٢) المرجع السابق ١١٠ - ١١١ ونفح الطيب ٣٥٣/٥ وقلائد العقيان ص ٢٨ .

تَخَلَّصْتُمُ مِنْ سِجْنِ أَغْمَاتَ وَالْتَوَتْ عَلَيَّ قُيودٌ لَمْ يَحِنْ فَكُّهَا بَعْدُ
خَرَجْتُم جَمَاعَاتٍ وَخُلِّفْتُ وَاحِداً وَلِلهِ فِي أَمْرِي وَأَمْرِكُمُ الحَمْدُ[1]

وشعر المعتمد في هذا الدور أغزر منه في الدورين السابقين ، لما أسلفناه من أنَّ الألم شحذ قريحته ، وأذكى نفسه ، فله القصائد الكثيرة في وصف نفسه وأحواله وما آل إليه مصير أهله وعياله ، ومما قاله في أسْره قصيدة مطلعها :

أَبْنَاءُ أَسْرِكَ قَدْ طَبَّقْنَ آفَاقَا بَلْ قَدْ عَمَمْنَ جِهَاتِ الأَرْضِ إِقْلاَقَا[2]
فَأَحْرَقَ الفَجْعُ أَكْباداً وَأَفْئِدَةً وَأَغْرَقَ الدَّمْعُ آماقا وأَحْداقا
أَنَّى غُلِبْتَ وَكُنْتَ الدَّهْرَ ذَا غَلَبٍ لِلْغَالِبِينَ وَلِلسُّبَّاقِ سَبَّاقا
قُلْتُ : الخُطوبُ أَذَاقَتْنِي طَوارِقَها وَكَانَ غَرْبِي إِلى الأَعْداءِ طَرَّاقا
مَتَى رَأَيْتَ صُرُوفَ الدَّهْرِ تَارِكَةً إِذَا انْبَرَتْ ، لِذَوِي الأَخْطَارِ أَرْمَاقا ؟

وقال في التوجع من أسره وقيده :

غَنَّتْكَ أَغْمَاتِيَّةُ الأَلْحَانِ ثَقُلَتْ عَلَى الأَرْواحِ وَالأَبْدانِ
قَدْ كَانَ كَالثُّعْبَانِ رُمْحُكَ في الوَرَى فَغَدا عَلَيْكَ القَيْدُ كَالثُّعْبَانِ
مُتَمَرِّداً يَحْمِيكَ كُلَّ تَمَرُّدٍ مُتَعَطِّفاً لاَ رَحْمَةً لِلْعَانِي
قَلْبي إِلى الرَّحْمنِ يَشْكُو بَثَّهُ مَا خَابَ مَنْ يَشكُو إِلى الرَّحْمانِ[3]

حلَّ المعتمد طنجة أوّل وصول إلى المغرب ، ومنها سيَّرهُ ابنُ تاشفين إلى أغمات ، وفي طريقه مرَّ ببلد رأى أهله خارجين إلى المسجد للاستسقاء ، وكان قد انقطع المطر عنهم ، فهاجته عاطفته ، فقال :

خَرجُوا لِيَسْتَسْقوا فَقُلْتُ لَهُم : دَمعي يَنُوبُ لَكُمْ عَنِ الأَنْواءِ

---

(١) نفح الطيب ٣٥٢/٥ وقلائد العقيان ص٢٧ وديوان المعتمد ٩٤ـ ٩٥ .
(٢) للمزيد انظر ديوان المعتمد ص١٠٠ ونفح الطيب ٩/٦ـ ١٠ وقلائد العقيان ٢٨ .
(٣) تجد بقية القصيدة في ديوان المعتمد ص١١٠ ونفح الطيب ٣٥١/٥ .

قَالُوا : حَقيقاً في دُموعِكَ مَقْنَعٌ لَـكِـنَّهَـا مَمْـزُوجَـةٌ بِـدِمَـاءِ[1]

والذي لا ريب فيه أنّ المعتمد كان أميراً جواداً يرتاح إلى الجود ، ويلَذُّ العطاء ، ويتوسَّل إلى مواساة أصحابه وقُصّاده وسائلَ شتّى ، ويفْتنُّ في الإحسان إليهم ، كما يقول أبو الطيِّب في أبي شجاع فاتك :

لَطَّفْتَ رَأْيَكَ في بِـرِّي وَتَكْرِمَتِي إنَّ الكَـرِيمَ عَلَى العَلْيَـاءِ يَحْتَالُ

ولهذا قصده الشعراء والكتّاب من كلٍّ صوب . ولم تفارقه الأريحيّة للعطاء والسماح بالمال في أيّام بؤسه وفقره ، وهو أحوج إلى ما في يده . وقد مرّ معنا كيف أعطى الحصريّ الشاعر حين لقيه في طنجة وهو أسير يسار به إلى معتقله . وأرسل إلى شاعره الوفيّ أبي بكر الداني المعروف بابن اللبانة ، هبة حين زاره في أغمات ، فردّها الشاعر . لقد صدق المعتمد حين قال عن نفسه :

وَقَدْ حَنَنْتُ إلى مَا اعْتَدْتُ مِنْ كَرَمٍ حَنينَ أَرْضٍ إلى مُسْتَأْخَرِ المَطَرِ
وَقَدْ تَنَاهَتْ يَدي عَنْ كَأْسِهَا غَضَبٌ وَمَجَّتِ الأُذْنُ أيْضـاً نَغْمَةَ الـوَتَرِ
حَتَّى أُمَلِّكَ هَـذي مَـا تَجُودُ بِـهِ وَأَسْمَعُ الحَمْدَ بِالأُخْرَى عَلَى الأثَرِ
فَهاتِهَا خِلَعاً أُرْضِي السَّمَاحَ بِهَـا مَحْفُوفَةً في أكُفِّ الشَّرْبِ بِالبِـدَرِ

ولما أُسر المعتمد وأخذ إلى أغمات ، أنشأ الشاعر عبد الجبّار بن حمديس قصيدة تنبض حزناً ولوعة ، وتنطق بما كرب الشاعر في هذه النازلة ، مطلعها :

أباد حياتي الموتُ ان كنت ساليا وأنتَ مقيم في قيـودك عـانيـا

فكتب إليه المعتمد يقول :

غَـريبٌ بِأَرْضِ المَغْـرِبَـيْنِ أَسِـيرُ سَيَبْـكي عَـلَيْـهِ مِنْـبَرٌ وَسريـرُ
وَتَنْـدُبُهُ البيضُ الصَّـوارِمُ وَالقَنَـا وَيَـنْهَـلُّ دَمْـعٌ بَيْـنَهُـنْ غَـزيـرُ

(١) ديوان المعتمد ٨٩ .

مَضَى زَمَنٌ وَالْمُلْكُ مُسْتَأْنَسٌ بِهِ وَأَصْبَحَ مِنْهُ اليَوْمَ وَهُوَ نَفُورُ
بِرأيٍ مِنَ الدَّهْرِ المُضَلَّلِ فاسِدٍ مَتَى صَلُحَتْ لِلصَّالِحينَ دُهُورُ
أَذَلَّ بني مَاءِ السَّماءِ زَمَانُهُمْ وَذُلُّ بَني ماءِ السَّماءِ كَبيرُ
فَيَالَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبيتَنَّ لَيْلَةً ؟ أَمَامي وَخَلْفي رَوْضَةٌ وَغَديرُ
بِمُنْبَتَةِ الزَّيْتُونِ مُورِقَةُ العُلاَ يُغَنِّي حَمَامٌ أَوْ تَرِنُّ طُيُورُ
بِزَاهِرِها السَّامي الَّذي جَادَهُ الحَيَـ ـا تُشيرُ الثُّرَيَّا نَحْوَنَا وَنُشيرُ
وَيَلْحَظُنَا الزَّاهي وَسَعْدُ سُعودِهِ غَيُورَيْنِ ، وَالصَبُّ المُحِبُّ غَيُورُ
تَراهُ عَسيراً لاَ يَسيراً مَنَالُهُ أَلاَ كُلُّ مَا شَاءَ الإِلَهُ يَسيرُ(١)

ودخل أبو هاشم على أبيه أسيراً سجيناً «والقيود قد عضّت بساقيه عضّ الأسود ، والتوت عليه التواء الأساود السود» فقال :

قَيْدِي ! أَمَا تَعْلَمُني مُسْلِماً أَبَيْتَ أَنْ تَشْفَقَ أَوْ تَرْحَمَا
دَمي شَرَابٌ لَكَ وَاللَّحْمُ قَدْ أَكَلْتَهُ ، لاَ تَهْشِمِ الأَعْظُمَا
يُبْصِرُني فيكَ أَبُو هاشِمٍ فَيَنْثَني وَالقَلْبُ قَدْ هُشِّمَا
ارْحَمْ طُفَيْلاً طَائِشاً لُبُّهُ لَمْ يَخْشَ أَنْ يَأْتيكَ مُسْتَرْحِمَا
وَارْحَمْ أُخَيَّاتٍ لَهُ مِثْلَهُ جَرَّعْتَهُنَّ السُّمَّ وَالعَلْقَمَا
مِنْهُنَّ مَنْ يَفْهَمُ شَيْئاً فَقَدْ خِفْنَا عَلَيْهِ لِلْبُكَاءِ العَمى
وَالغَيْرُ لاَ يَفْهَمُ شَيْئاً فَمَا يَفْتَحُ إِلاَّ لِرضَاعٍ فَمَا

وتأمّل في هذه الأبيات التي أنشأها حين طلب إليه رجل أن يزوِّده بشيء من شعره ، فقال :

يَاسَائِلَ الشِّعْرِ يَجْتَابُ الفَلاَةَ بِهِ تَزْويدُكَ الشِّعْر لا يُغْني عَنِ السَّغَبِ

---

(١) الزاهي والزاهر والثريا والمسعد قصور للمعتمد في اشبيلية .

زَاوٍ مِنَ الرِّيحِ لا رِيٌّ وَلاَ شَبَعٌ غَدا لَهُ مُؤْثِراً ذُو اللُّبِ وَالأَدَبِ
أَصْبَحَتْ صِفْراً يَدِي مِمَّا تَجُودُ بِهِ مَا أَعْجَبَ الحَادِثَ المَقْدُورَ فِي رَجَبِ[1]
ذُلٌّ وَفَقْرٌ أَزَالاَ عِزَّةً وَغِنىً نُعْمى اللَّيالِي مِنَ البَلْوَى عَلَى كَثَبِ
قَدْ كَانَ يَسْتَلِبُ الجَبَّارَ مُهْجَتَهُ بَطْشِي ، وَيُحْيَا قَتِيلَ الفَقْرِ فِي طَلَبِي
وَالمُلْكُ يَحْرُسُهُ فِي ظِلِّ وَاهِبِهِ غُلْبٌ مِنَ العُجْمِ أَوْ شُمٌّ مِنَ العَرَبِ
فَحِينَ شَاءَ الَّذِي آتَاهُ يَنْزِعُهُ لَمْ يُجْدِ شَيْئاً قِرَاعُ السُّمْرِ وَالقُضُبِ

ويروي الفتح بن خاقان عمّن يثق به بعد أن ذكر جزع المعتمد لثورة ابنه : «ثمّ أطرق ورفع رأسه وقد تهلّلت أسِرته ، وظلّلته مسرّته ، ورأيته قد استجمع ، وتشوّق إلى السماء وتطبّع . فعلمت أنّه رجا عودة إلى سلطانه ، وأوبة إلى أوطانه ، فما كان إلّا بمقدار ما تنداح دائرة ، أو تلتفت مقلة حائرة ، حتى قال :

كَذَا يَهْلِكُ السَّيْفُ فِي جَفْنِهِ إِلى هَزِّ كَفِّي طَوِيلِ الحَنِينِ
كَذَا يَعْطَشُ الرُّمْحُ لَمْ أَعْتَقِلْهُ وَلَمْ تَرْوِهِ مِنْ نَجِيعٍ يَمِينِي
كَذَا يُمْنَعُ الطِّرْفُ عَلْكَ الشَّكِيمِ مُرْتَقِباً غِرَّةً فِي كَمِينِ[2]
كَأَنَّ الفَوَارِسَ فِيهِ لُيُوثٌ تُرَاعِي فَرَائِسَهَا فِي عَرِينِ
أَلاَ شَرَفٌ يَرْحَمُ المَشْرَفِيَّ مِمَّا بِهِ مِنْ شِمَاتِ الوَتِينِ[3]
أَلاَ كَرَمٌ يُنْعِشُ السَّمْهَرِيَّ وَيَشْفِيهِ مِنْ كُلِّ دَاءٍ دَفِينِ
أَلاَ حَنَّةٌ لاِبْنِ مَحْنِيَّةٍ شَدِيدِ الحَنِينِ ضَعِيفِ الأَنِينِ[4]
يُؤَمِّلُ مِنْ صَدْرِهَا ضَمَّةً تُبَوِّئُهُ صَدْرَ كِبْرٍ مَعِينِ

(١) حبت به الكارثة في رجب سنة ٤٨٤ .
(٢) الطِرف : الفرس الجيد . الشكيم : اللجام .
(٣) المشرفي : السيف . شمت الوتين بسيف المعتمد إذا عجز عن قطعه .
(٤) ابن محنية : السهم . الحنة : صوت انطلاقه .

فتأمّل نفثات البطولة المصفَّده ، والعزّة المقيَّدة ، والهمّة الحبيسة ، والسيرة الماجدة ، يحدُّها السجن ، ويضيق عليها الأَسر[1] .

وليس بعيدا أن يكون الرجل على شدَّةِ محنته ، وعِظَم نكبته ، قد أَسَرَّ في نفسه أملاًوأضمرَ في الحادثات رجاءً ، كما قال :

وَطِّنْ عَلَى الكُرْهِ ، وَارْقُبْ إِثْرَهُ فَرَجاً   وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ تَغْنَمْ مِنْهُ غُفْرَانَا

وكان شعراؤه يبعثون في نفسه الأمل ، فقد مرَّ معنا قول ابن اللبانة يخاطبه :

رُوَيْدَكَ سَوْفَ تُوسِعُنِي سُروراً   إِذَا عَادَ ارْتَقَاؤكَ لِلسَّرِيرِ[2]

وقد أجمل وصف الدنيا ، بعد أن عرف صروفها ، وتقلَّبت على عينيه خطوبها ، في هذه الأبيات :

أَرَى الدُّنْيَا الدَّنِيَّةَ لاَتُواتِي   فَأَجْمِلْ في التَّصَرُّفِ وَالطِّلابِ

وَلاَ يَغْرُرْكَ مِنْهَا حُسْنُ بُرْدٍ   لَهُ عَلَمانِ مِنْ ذَهَبِ الذَّهَابِ

فَأَوَّلُهَا رَجَاءٌ مِنْ سَرَابٍ   وَآخِرُهَا رِدَاءٌ مِنْ تُرابِ

٧ ـ قيمة شعر المعتمد . . .

تأتي قيمة شعر المعتمد من كونه خيرَ ما يمثِّل الشعر الأندلسيّ في عصره ، فقبله حاول شعراء الأندلس أن يقلِّدوا الشعراء المشارقة في العصر العباسيّ كالبحتري وأبي تمّام وأبي الطيِّب ، وقبلهم مسلم بن الوليد وشعراء الحلبة الأمويّة ، وأصحاب الغزل منهم خاصّة .

أما التجديد الحقيقيّ في الشعر الأندلسي فقد بدأ في عصر المعتمد بن عبّاد ، ففي أيّامه ازدهر الموشَّح وتغَّنت به القيان ـ وسطع شعر الطبيعة على يد أبي

---

(١) انظر المعتمد بن عباد للدكتور عبد الوهاب عزام ص ٦٤ .

الوليد بن زيدون وغيره ، وهذان الفنّان ـ الموشّح وشعر الطبيعة ـ هما ما تميَّز بهما الشعر الأندلسيّ .

تفوَّق المعتمد في شعره الذي جرى فيه على سنن المشارقة ، وتميَّز بالجودة والابداع حتّى استقام له عمود الشعر ، وراح يشكِّل لنفسه مذهباً في أواخر عهده ، حتّى أصبح يمثِّل مذهب الشعراء الأندلسيين، من حيث التفنّن في الوصف والخيال ، ومن حيث إيثارهم للسهولة في اللفظ ، وجنوحهم إلى اللين والعذوبة ، دون أن تفوتهم الجزالة وشدّة الأسر .

ولم يخلُ هذا الشعر من فن البديع ، لا سيّما في أوائل عهد المعتمد بالنظم ، ولكنَّ المعتمد أخذ يبتعد عنه في عهده الأخير إلّا ما جاء طبيعيّاً وعفو الخاطر . وكان المعتمد بطبيعته ينفر من الخشونة والتقعُّر الذي ألفهما بعض القدماء ، ومن التعقيد والغموض الذي أخذ يظهر في شعر معاصريه المحدثين[1] .

ولقد كان المعتمد إضافة إلى ذلك ناقداً حصيفاً للشعر ، وقد مرَّ معنا كيف ترك في عطيته ديناراً مشوَّهاً ليدلَّ على بيت خرج عن الوزن العام للقصيدة ، لذا كان الشعراء يحسبون لنقده ألفَ حساب ، حتّى أنَّ كثيراً منهم تحاماه خوفاً من نقده[2] . فكان طبيعياً منه أن يلتفت في شعره إلى جمال الصور والمعاني ، وحسن الوصف والأداء ، وإلى الموسيقى الشعريّة ، كيف لا ، وهو المغرم بالغناء .

والمعتمد يمثِّل نهج الشعراء الأندلسيين من حيث التفنُّن في الوصف والخيال ، وحين حاول المقري أنْ يذكر في كتابه نفح الطيب ما للمغاربة من فضل ، حين أخذ يقابلهم بالمشارقة في الفنون والعلوم والفلسفة ، وأتى إلى الشعر

---

(١) انظر الملوك الشعراء للدكتور جبرائيل جبور ٣٠١ ـ ٣٠٢ .
(٢) نفح الطيب ٩٨/٤ .

قال : وهل لكم في الشعر مثل المعتمد بن عباد في قوله :

وَلَيْـلٍ بِسَدِّ النهـرِ أُنْساً قَـطَعْتُهُ بِذَاتِ سِوَارٍ مِثْلِ مُنْعَطَفِ النَّهْرِ
نَضَتْ بُرْدَهَا عَنْ غُصْنِ بَانٍ مُنَعَّمٍ فَيَاحُسْنَ مَا انْشَقَّ الكِمَامُ عَنِ الزَّهْرِ(١)

ولكنَّ المعتمد ما عاد يلتفت إلى هذين الفنيّن فيما تبقّى من شعره، لأنَّ شعره راح ينتج عن تجربة حيَّة عانىٰ صاحبُها فيها ما عانى من إحَنٍ وآلام ، بعد عزٍّ وهناء وجـاه ، أذكت شاعريّته ، وأرهفت حسَّه ، ورقَّقت عاطفته ، وجعلته يموج بالعواطف الإنسانيَّة الشاملة ، وغدا شعره نبعةً صادقة . أخلص فيه الشاعر لنفسه كلَّ الإخلاص ، وعبَّر فيه عما اضطرب في نفسه من ذلّ وعزّ ومجد وفخر وحبّ وألم وفشل وأسر وقِلٍ وحرمان .

إنّه الشعر الذي نفذ إلى صميم النفس الإنسانيّة ، ليصفَ خلجاتها في أروع تجاربها . إنّه شعر ملك عانى تجارب الحياة كلَّها ، حلوَها ومرَّها ، ووصَفَها بحرارة قلبه المتوقِّد وعاطفته المتفجِّرة ، ولكنّه لم يتخلَّ عن أنَفَةِ المُلك وشخصيّة السلطان .

إنّه الشعر الذي يستدلّ منه وإن لم يعرف صاحبه ، على أنَّ قائله ملك . وهو الشعر الذي زال صاحبه كما تزول الملوك ، ويُدال منها ، ولكن أثره يبقى خالداً مع الكلمة الخالدة على مرِّ الأجيال ، وصدق مَن قال فيه :

وَمِنَ الغَريبِ غُروبُ شَمْسٍ في الثَّرى وَضِيـاءُهَـا بَـاقٍ عَـلَى الآفَـاقِ(٢)

وهكذا حرّكت مأساة المعتمد قرائح الشعراء ، فقالوا فيها الكثير من الشعر المثير الرائع . ثم كانت نكبته فوق ذلك فاتحة نكبات العرب في الأندلس . وكانت الهادية لفنّ رثاء الأوطان والممالك الزائلة في صور شعريّة بديعة . وكان المعتمد من

(١) نفح الطيب ١٩٣/٣ .
(٢) الملوك الشعراء للدكتور جبرائيل جبور ٣٠٢ ـ ٣٠٣ .

روّاد هذا الفن ، هو وشعراؤه ، ثم تبعتهم على مرِّ العصور أجيال من الشعراء .

وكان من عيون هذا الشعر الذي قيل في رثاء الأوطان ، قصيدة ابن عبدون في رثاء بني المظفَّر ، ومطلعها :

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بَعْدَ العَيْنِ بِالأَثَرِ   فَمَا البُكَاءُ عَلَى الأَطْلالِ وَالصُّوَرِ[1]

وقصيدة أبي الربيع الكلاعي ، ومطلعها :

أَحِنُّ إلى نَجْدٍ ، وَمَنْ حَلَّ في نَجْدِ   وَمَاذَا الَّذي يُغْني حَنينيَ أَوْ يُجْدِي[2]

وقصيدة الوقشي البلنسيّ ، ومطلعها :

أَبَتْ غَيْرَ مَاءٍ بِالنَّخيلِ وُرودا   وَهَامَتْ بِهِ عَذْبَ الجِمَامِ بَرُودا[3]

وسينيّة ابن الأبّار القضاعي ، يخاطب صاحب إفريقيا ، ومطلعها :

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللَّهِ أَنْدَلُسَا   إِنَّ السَّبيلَ إلى مَنْجَاتِهَا دَرَسا[4]

وقصيدة أبي مطرف بن عميرة المخزومي ، ومطلعها :

أَقِلُّوا مَلَامي ، أَوْ فَقُولوا وَأَكْثِروا   مَلُومُكُمُ عَمَّا بـه لَيْسَ يُقْصِرُ[5]

ورثائية بعضهم في رثاء طليطلة ، ومطلعها :

لِثُكْلِكِ كَيْفَ تَبْتَسِمُ الثُّغُوُر   سُروراً بَعْدَمَا يَئِسَتْ ثُغُورُ[6]

ونونيّة صالح بن شريف الرنديّ المشهوره ، والتي مطلعها :

---

(١) انظر المطرب ص ٢٧ ـ ٣٣ .
(٢) نفح الطيب ٥/٢١٩ .
(٣) نفح الطيب ٦/٢٢١ .
(٤) نفح الطيب ٦/٢٠٠ .
(٥) نفح الطيب ٥/٢٤٠ .
(٦) نفح الطيب ٦/٢٢٨ .

لِكُـلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَـانُ   فَـلَا يُغَرَّ بِـطيبِ العَيْشِ إِنْ

وقد زاد فيها الشعراء زيادات بعد سقوط مدن أخرى من الأندلس ·
غدت ملحمة[1] .

٨ ـ أولاد المعتمد وأمُّهم . .

يقول الفتح بن خاقان في قلائد العقيان بعد ذكر المعتمد وشجاعته وج
وأدبه واجتماع الأنجاد والشعراء والأدباء بساحته : «وكان قومه وبنوه لتلك الـ
زينا ، ولتلك الجماعة عيناً ، إن ركبوا خِلتَ الأرض فلكاً يحمل نجوماً ، ،
وَهبُوا رأيت الغمامَ سَجُوماً ، وإن أقدموا أحجم عنترةُ العبسيّ ، وإن فخ
أفحم عرابة الأوسيّ»[2] .

أما ابن اللبانة فيقول : «وكان له من بنيه عدّة أقمار نظمهم نظم السلك
وزيَّن بهم سماء ذلك الملك ، فكانوا معاقل بلاده ، وحماة طارفه وتلاده»[3]

إعتمادُ الرُمَيْكِيَّةُ . . .

وقال صاحب نفح الطيب : «ومن المشهورات بالأندلس ، اعتمادُ جا
المعتمد بن عبّاد ، وأمّ أولاده ، وتشهر بالرميكية»[4] .

ثم يقص لنا من طرائفها عبارات تدلُّ على ولوعها بالنادرة ، وكذ
بالجناس ، حتى في أيّام المحنة ، قال : «ولما خُلع المعتمد وسجن في أغمات

(١) نفح الطيب ٢٢٢/٦ .
(٢) انظر المعتمد بن عباد للدكتور عبد الوهاب عزام ٨٥ وقلائد العقيان .
(٣) نفح الطيب ٣٧٦/٥ .
(٤) نسبة إلى رميك تاجر في اشبيلية فقد كانت من جواريه .

قالت له : يا سيدي ! لقد هُنَّا هُنَا .

فقال مُجَنِّساً :

قَـالَتْ لَقَـدْ هُـنَّـا هُنَـا مَـوْلَايَ أَيْـن جَـاهُـنَـا ؟
قُـلْتُ لَهَـا إِلَّا هُـنَـا صَـيَّـرَنَـا إلى هُـنَـا

وحُكي أنها قالت له وقد مرض : «يا سيدي مالنا قدرة على مرضاتك في مرضَاتك» .

ثم ينقل لنا صاحب نفح الطيب عن ابن سعيد قوله : «كان المعتمد كثيراً ما يأنس بها ويستظرف نوادرها . ولم تكن لها معرفة بالغناء ، وإنما كانت مليحة الوجه ، حسنة الحديث ، حلوة النادرة ، كثيرة الفكاهة ، لها في كل ذلك نوادر محكيّة» .

وقال أيضاً : «وكانت في عصرها ولّادة بنت محمد بن عبد الرحمن الأموي ، وهي أبدع منها ملحاً وأحسن افتتانا وأجلّ منصباً . وكان أبوها أمير قرطبة ويلقَّب بالمستكفي بالله ، وأخبار أبي الوليد بن زيدون معها ، وأشعاره فيها مشهورة» .

وقد مرّ معنا قصتها في «ولا يوم الطين» . وكذلك قصة تعرُّفِ المعتمد عليها حين أجازت قوله . وكذلك قصة «صار بن عمار هدهداً» .

وقد أُسِرتْ الرميكيّة مع زوجها ، وقضت أيّام المحنة في صحبته ، ودفنت في جواره .

أمّا أولاد المعتمد ففي كتب التاريخ الأندلسي والأدب أخبار شتى ، وكانوا كأبيهم أنجاداً أجواداً شعراء .

مُلوكٌ أَنَـاخَ العِزُّ في عَـرَصَاتِهِمْ وَمَثْوَى المَعالي بَـيْنَ تِلْكَ المَعَالِمِ

ويقول الشاعر أبو بكر الداني المعروف بابن اللبانة ، يمدح المعتمد بن عباد وبنيه :

يُغيثُكَ في مَحْلٍ ، يُعينكَ في رَدًى   يَرُوعُكَ في درْعٍ ، يَروقُكَ في بُرْدِ
جَمالٌ ، وَإِجْمَالٌ وَسَبْقٌ وَصَوْلَةٌ   كَشَمْسِ الضُّحى كالمُزْنِ كَالبَرْقِ كَالرَّعْدِ
بِمُهْجَتِهِ شَادَ العُلَا ثُمَّ زَادَهَا   بِنَاءً بِأَبْنَاءٍ جَحَاجِحَةٍ لُدِّ
بِأَرْبَعَةٍ مِثْلِ الطِّبَاعِ تَرَكَّبُوا   لِتَعْدِيل جِسْمِ المَجْدِ والشَّرَفِ العَدِّ

وهؤلاء الأربعة هم : الرشيد عبدالله ، والراضي يزيد ، والمأمون ، والمؤتمن كما روى ابن خلّكان . وأحسب أنّ هؤلاء كانوا الكبار من بني المعتمد .

وللمعتمد أولاد آخرون نجد أسماءهم في كتب التاريخ والأدب ، فنجد الظافر ، والمعتدّ ، ومالكاً ، وعبد الجبّار ، وأبا هاشم ، وبثينة ، وشرف الدولة ، وفخر الدولة .

١ ـ الراضي بالله بن المعتمد ..

الراضي بالله ، أبو خالد يزيد بن المعتمد ، ترجم له الفتح ابن خاقان بعد ترجمة أبيه ، ولم يترجم لإخوته فدلَّ على أنه بلغ درجة الشعراء الذين يترجم لهم ، فقال : «مِلِكٌ تفرّع من دوحة سناء ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وتحدَّر من سلالة أكابر ، وزُقاة أسرَّةٍ ومنابر ، وتصرف أثناء شبيبته بين دراسة معارف ، وإفاضة عوارف . وكلِف بالعلم حتى صار ملهج لسانه ، وروضة أجفانه ، لا يستريح منه إلّا إلى فرس سائل الغُرَّة ، ميمون الأسرّة ، يسابق به الرياح ، ويحاسن بغرَّته البدر اللياح ، عرنين في السناء ، عتيق الإقتناء ، سريع الوخد والإرقال ، من ولد أعوج أو وُلْدٍ لذي العقال . إلى أن ولّاه أبوه الجزيرة الخضراء ، وضم إليها رُنْدَةَ الغرّاء .

فانتقل من متن الجواد إلى ذروة الأعواد . وأقلع عن الدراسة ، إلى تدبير السياسة ، ومازال يدبِّرها بجوده ونُهاه ، ويورد الآمل فيها مُناه ، حتى غدت عِراقا ، وامتلأت إشراقا . إلى أن اتَّفق في أمر الجزيرة ما اتّفق ، وخاب فيها الرجاء وأخفق ، واستحالت بهجتها ، وأحالت عليها من الحوادث لُجَّتها . فانتقل إلى رُندة معقلٍ أشِب، ومنزل إلى السماء منتسب. وأقام فيها رهين حصار. ومَهين حماة وأنصار ، ولقيت ريحُة كلّ إعصار . حتّى رمته سهام الخطوب عن قِسيِّها ، وأمكنت منه يدي مُسيِّها ، فحواه رمسُه ، وطواه عن غده أمسُه . حسبما بسطنا القول فيما مرَّ من أخبار أبيه» .

وكان الراضي والي الجزيرة الخضراء حين عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس ، وممّا يؤثر في أخباره : أنّه قبض على ابن عمّار في شقورة سنة ٤٧٧ هـ .

وكان الراضي كلفاً بمطالعة الكتب والدواوين ، مولعاً بالشعر ، ومما يؤثر من شعره ما كتب إلى أبيه حين عتب إليه قعوده عن لقاء العدو ، وعكوفه على دفاتره . وكان العدو قصـدَ لورقة والراضي في رُنده ، فأمره المعتمد بالخروج إليه فتلكّأ . فوجَّه المعتمد ابنه المعتدّ للقاء العدو ، فهزم جيش المعتد ، واشتد غضب المعتمد على الراضي ، فكتب الراضي إليه :

لاَ يَكْرِثَنَّك خَطْبُ الحَادِث الجَارِي ... فَمَا عَلَيْكَ بِذَاكَ الخَطْبِ مِنْ عَارِ
مَاذَا عَلَى ضَيْغَمٍ أَمْضَى عَـزِيمَتَه ... إِنْ خَـانَهُ حَـدُّ أَنْيَـابٍ وَأَظْفَـارِ
لَئِنْ أَتَوْكَ فَمِنْ جُبْنٍ وَمِنْ خَوَرٍ ... قَدْ يَنْهَضُ العَيْرُ نَحْوَ الضَّيْغَمِ الضَّاري
عَلَيْكَ للنَّاسِ أَنْ تَبْقَى لِنُصْرَتِهِمْ ... وَمَـا عَلَيْـكَ لَهُمْ إِسْعَـادُ أَقْـدارِ
لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ فيما أَنْ تدومَ لَهُمْ ... بَكَوْا لأَنَّكَ مِنْ ثَوْبِ الصِّبَا عَاري
وَلَوْ أَطَاقُوا انْتِقاصاً مِنْ حَيَاتِهِمُ ... لَمْ يُتْحِفُـوكَ بِشَيْءٍ غَـيْر أَعْمَـارِ

فلم يرض أبوه عنه ، ولا غفر له زلّته ، ثم كتب إليه ساخراً به ، قصيدته التي مطلعها :

المُلْكُ في طَيِّ الدَّفَاتْرِ فَتَخَلَّ عَنْ قَوْدِ العَسَاكِرْ

فكتب إليه الراضي :

مَوْلاَيَ قَدْ أَصْبَحْتُ كَافِرْ بِجَيمِعِ مَا تحوي الدَّفَاتِرْ
وَفَلَلْتُ سِكِّينَ الدَّوَاةِ وَظَلْتُ لِلأَقَلامِ كَاسِرْ
وَعَلِمْتُ أَنَّ المُلْكَ مَا بَيْنَ الأَسِنَّةِ وَالبَواتِرْ
وَالمَجْدُ وَالعَلْيَاءُ في ضَرْبِ العَساكِرِ بِالعَساكِرْ
لاَ ضَرْبَ أَقْوَالٍ بِأَقْوَالٍ ضَعيفَاتٍ مَنَاكِرْ
قَدْ كُنْتُ أَحسبُ مِنْ سَفَاهٍ أَنَّهَا أَصْلُ المَفَاخِرْ
فَإِذَا بِهَا فَرْعٌ لَهَا وَالجَهْلُ لِلإِنْسَانِ عَاذِرْ
لا يُدرِكُ الشَّرَفَ الفَتى إِلاَّ بِعَسَّالٍ وَبَاتِرْ
وَهَجَرْتُ مَنْ سَمَّيْتَهُمْ وَجَحَدْتُ أَنَّهُمُ أَكَابِرْ
لَوْ كُنْتَ تَهْوَى ميتَتِي لَوَجَدْتَني لِلْعَيْشِ هَاجِرْ
ضِحْكُ المَوالي بالعبيدِ إِذَا تُؤَمِّل ، غَيْرُ ضَائِرْ
إِنْ كَانَ لي فَضْلٌ فَمِنْكَ وَهَلْ لِذَاكَ النُّورُ ساتِرْ ؟
أَوْ كَانَ بي نَقْصٌ فَمِنِّي غَيْرَ أَنَّ الفَضْلَ غَامِرْ
ذَكَّرْتَ عَبْدَكَ سَاعَةً يَبْقَىٰ لَهَا مَا عَاشَ ذَاكِرْ
يَا لَيْتَهُ قَدْ غَيَّبَتْهُ عِنْدَهَا إِحْدَى المَقَابِرْ
أَتُرِيدُ مِنِّي أَنْ أَكُونَ كَمَنْ غَدا في الدَّهْرِ غَادِرْ
هَيْهَاتَ ذَلِكَ مَطْمَعٌ يُعْيِي الأَوَائِلَ وَالأَوَاخِرْ
لاَ تَنْسَ يَا مَوْلاَيَ قَوْلَةَ ضَارِعٍ ، لاَ قَوْلَ فَاخِرْ

ضَـبَطَ الجَـزيَـرَةَ حِـيـنَـهـا نَـزَلَـتْ بِعَـقْـوَتِهـا العَـسـاكِـرْ
أَيَّـامَ ظَـلْـتُ بِهَـا فَـر يـداً ، لَيْسَ غَـيْرَ اللهِ نَـاصِرْ
إِذْ كَـانَ يُـغْشي نَـاظِـرِي لَمَـعُ الأَسِـنَّـةِ وَالـبَـواتِـرْ
وَيُـصِـمُّ أَسْـمَاعِـي بِهَـا قَـرْعُ الحِـجَـارَةِ بِـالحَـوافِـرْ
وَهْـيَ الحَـضِـيضُ سُـهـولَـةً لَـكِـنْ ثَـبَـتُّ بِهَـا مُخَـاطِـرْ
هَـبْـني أَسَـأْتُ كَـمَا أَسَـأْ تُ ، أَمَـا لِهَذا العُتْبِ آخِـرْ
هَـبْ زَلَّـتِي لِـبُـنُـوَّتِي وَاغْـفِـرْ فَـإِنَّ اللهَ غَـافِـرْ

قال الفتح : «فقرَّبه وأدناه ، وصفح عما كان جناه» .

ويؤخذ من سيرة الراضي أنّ أباه كان يلومه بين الحين والحين ، فيعتذر ويستعتب . وأنّه كان يعتب على أبيه لتقديم إخوته عليه . ويظهر أن سيرة الراضي في العكوف على الكتب والاشتغال بها عن أمور الدولة أحياناً ، كانت منشأ خلاف بينه وبين أبيه[1] .

يقول الفتح بن خاقان في ترجمة الراضي في قلائد العقيان : «وكان المعتمد رحمه الله كثيراً ما يرميه بملامة ، ويصيبه بسهامه . فربّما استلطفه بمقال أفصح من دمع المزون ، وأملح من روض الحزون . فإنّه كان ينظم من بديع القول لألئَ وعقوداً ، تَسِلّ من النفوس سخائثاً وحقودا . . فمن ذلك قوله وقد أنهض جماعة من إخوته وأقعدهم :

أُعيذُكَ أَنْ يَكُونَ بِنَا خُمولُ وَيَـطْلَعُ غَيْـرُنَـا وَبِنَـا أُفُـولُ
حَنَانَكَ ، إِنْ يَكُنْ جُرْمِي قَبيحاً فَإِنَّ الصَّفْحَ عَنْ جُـرْمي جَميلُ
أَلَسْتُ بِفَـرْعِـكَ الـزَّاكي وَمـاذَا يُرَجِّي الفَرْعُ خَـانَتْهُ الأُصُـولُ ؟

---

(١) المعتمد بن عباد للدكتور عبد الوهاب عزام ٨٨ - ٩٢ .

ومن شعر الراضي وقد مرَّ به ركب فيه جماعة من أُلاَّفِه في صباه بَعُدوا عنه زمناً ، فقال :

مَرُّوا بِنَا أُصُلاً مِنْ غَيْرِ مِيعادِ ... فَأَوْقَدُوا نَارَ قَلْبِي أَيَّ إِيقادِ
فَأَذكَروني أَيَّاماً لَهَوْتُ بِهِمْ ... فِيهَا ، فَفَازوا بإيثارِي وَإِحْمادي
لَا غَرْوَ أَنْ زَادَ في وَجْدي مُرورُهُمُ ... فَرُؤْيَةُ المَاءِ تُذْكي غُلَّةَ الصَّادِي

وكان الراضي في رندة ، إحدى معاقل الأندلس المنيعة وقواعدها السامية الرفيعة ، فقصده جيش من جيوش المرابطين لم يطمعوا في حربه وهو في البلد الحصين والمعقل الأشب .

فلمّا كان في إشبيلية ما كان ، أمر المعتمد أن يكتب إلى ابنه الراضي ليسالم المرابطين ، وينزل إليهم من معقله . فنزل إليهم إشفاقاً على أبيه وذويه ، بعد أن عاقدهم مستوثقاً ، وأخذ عليهم عهداً من الله وموثقاً . فلما وصل إليهم ، وحصل في يديهم ، مالوا به عن الصحن وجرَّعوه الردى» . وكانوا قد قتلوا أخاه المأمون في قرطبة .

٢ ـ الرشيد عبدالله بن المعتمد ..

قال صاحب نفح الطيب : «وكان الرشيد هذا أحد أولاد المعتمد النجباء . وله أخبار في الكرم يقضي الناظر فيها من أمرها عجباً . وكذلك إخوته»[١] .

ومما مرَّ بالرشيد من غريب الحوادث ، أنّ أبا بكر بن عمّار الشاعر الذي وزر للمعتمد بن عبّاد ، وكان له شأن في دولته حيناً ، اضطرَّ في إحدى مغامراته أن يرهن الرشيد بن المعتمد عند أمير برشلونه المسيحيّ الملقب رأس الأسطُب ، على

(١) نفح الطيب ٦/٨ .

أن يعينه هذا الأمير على أخذ مرسية من يد ابن طاهر ، إلى أن يؤدِّي إليه المعتمد مالاً اتّفقا عليه[1] .

والرشيد كأبيه وأمِّه وإخوته ، أديب وشاعر . وله أخبار قليلة متفرِّقة في نفح الطيب والمغرب والذخيرة . ومنها أنّ أباه أنشأ مصراعاً في قبته المسماة سعد السعود ، فوق المجلس المسمى الزاهي ، قال : سَعْدُ السُّعودِ يَتِيهِ فَوْقَ الزَّاهي .

واستجاز الحاضرين ، فعجزوا ، فقال الرشيد : وَكِلاَهُمَا في حُسْنِهِ مُتَنَاهي .

قد اغتدَى سكنا لمثلِ محمّدٍ قد جلّ في العليا عن الأشباهِ
لازالَ يبلغ فيها ما شاءَه ودهتْ عِداه من الخطوبِ دَواهي[2]

وفي أخبار المعتمد أنه أمر بصياغة غزال وهلال من ذهب ، فصيغا . فجاء وزنها سبعمئة مثقال . فأهدى الغزال إلى السيدة ابنة مجاهد ، والهلالَ إلى ابنه الرشيد وقال :

بَعَثْنَا بِالغَزَالِ إِلىٰ الغَزَالِ وَلِلشَّمْسِ المُنِيرَةِ بِالهِلالِ[3]

وحكى صاحب نفح الطيب عن ابن اللبانة قال : «كنت بين يدي الرشيد بن المعتمد في مجلس أنسه ، فورد الخبر بأخذ يوسف بن تاشفين غرناطة سنة ٤٨٣ هـ فتفجَّع وتلَّهف واسترجع وتأسَّف . وذكر قصر غرناطة ، فدعونا لعزِّه بالدوام ، ولملكه بتراخي الأيّام ، وأمرَ عند ذلك أبا بكر الإشبيليّ بالغناء ، فغنّى :

إِنْ شِئْتَ أَلّا تَرَى صَبْراً لِمُصْطَبِرٍ فَانْظُرْ عَلَى أَيِّ حَالٍ أَصْبَحَ الطَّلَلُ

---

(١) الفكر الأندلسي ص ٩١ .
(٢) نفح الطيب ١٤٦/٥ .
(٣) للمزيد مقدمة ديوان المعتمد عن نفح الطيب .

فتأكّد تطيّره ، واشتدّ اربداد وجهه وتغيُّره ، وأمرَ مغنّيةً أخرى بالغناء ، فغنّت :

يَا لَهْفَ نَفْسي عَلَى مَالٍ أُفَرِّقُهُ عِلى المُقِلِّينَ مِنْ أَهْلِ المُروءَاتِ
إنَّ اعْتِذَاري إلىٰ مَنْ جَاءَ يَسْأَلُني مَا لَسْتُ أَمْلِكُ مِنْ إحْدَى المُصيبَاتِ

قال : فتلافيت الحال بأن قلت :

مَحَــلُّ مَكْـرُمَــةٍ لاَ هُـدَّ مَبْنَـاهُ وشَمْــلُ مَــأْثُــرَةٍ لاَ شَتَّتَ الله
البَيْتُ كَالْبَيْتِ ، لَكِنْ زَادَ ذَا شَرَفاً أَنَّ الـرَّشيـدَ مَـعَ المُعْتَـدِّ رُكْنَـاهُ
ثَاوٍ عَلَى أَنْجُمِ الجَـوْزَاءِ مَقْعَدُهُ وَراحِلٌ في سَبيلِ السَّعْدِ مَسْرَاهُ
حَتْمٌ لِمُلِكِكَ أنْ يَقْوَى وَقَدْ وصُلَتْ بِـالشَّـرْقِ وَالغَـرْبِ يُمْنَـاهُ وَيُسْرَاهُ
بَـأْسٌ تَوَقَّـدَ فَـاحْمَـرَّتْ لَـوَاحِـظُهُ وَنَـائِلٌ شَبَّ فَـاخْضَرَّتْ عِـذَارَاهُ

فلعمري لقد بَسَطْتُ من نفْسه ، وأعدت عليه بعض أنسه . على أني وقعت فيها وقع فيه الكلّ ، لقولي : البيت كالبيت .

وأمر إثر ذلك أبا بكر ، فغنّى :

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ منىً كُلَّ حَاجَـةٍ وَلَمْ يَبْقَ إلاَّ أَنْ تُـزَمَّ الرَّكَـائِبُ

فأيقنّا أنّ هذا التطيّر ، يعقبه التغيُّر»[١] .

وعتب المعتمد على ابنه الرشيد عتباً شديداً ، وهما في الطريق من مكناسة إلى أغمات ، فكتب الرشيد إليه :

يا حليفَ الندىَ وربَّ السماحِ وحبيـبِ النـفـوسِ والأرواحِ
من تمـامِ النُعمىٰ عليَّ التـماحي لمحـةً من جبينـكَ الـوضـاحِ
قـدْ غَـنـيـنـا ببشرِهِ وسـنـاهُ عن ضيـاءِ الصباحِ والمِصباحِ

(١) ٥/٢٣٤ .

فأجابه المعتمد :

كنت حليف الندى وربّ السماح   وحبيب النفوس والأرواح

إلى أخر القصيدة ، وللمزيد عد إلى ديوان المعتمد بن عباد .

٣ ـ المأمون بن المعتمد :

هو عبّاد بن المعتمد ، ويكنّى أبا الفتح وأبا نصر أيضاً . ويقول المراكشي : «هو أكبر أولاده ، ولد في حياة أبيه المعتضد وسمّاه عبّاداً .

ولّاه أبوه قرطبة حينما استولى عليها ثانية سنة ٤٧١ هـ ولقّبه المأمون . وبقي أميراً عليها إلى أن دُهِيَتْ الدولة العباديّة بغارات الملثّمين سنة ٤٨٤ هـ فقاتل المأمون حتى قتل في صفر من هذه السنة» .

وعن حصاره بقرطبة يقول الفتح بن خاقان : «. . . إلى أن صبّحوه يوماً لعِدَةٍ كانت بينهم وبين أهلها في تسنُّم أسوارها ، وتقحُّم أنجادها وأغوارها . . فلمّا أحسّ بهم المأمون خرج بعدد قليل وحدٍّ فليل . . . فقطع رأسُه وحيز ، وخيض به النهر وأجيز : ولما استقرّ بالمحلة رَفع رأسَه سنُّ رمح ، وطيف به في جوانبها ، وأخيف به قلبُ مجانبها» .

وللمعتمد في رثاء المأمون هذا ، وأخيه الراضي ، الذي ذكرناه ، قصيدة باكية من أبلغ شعر الأحزان الذي أنشأه المعتمد في نكبته ، وقال الفتح بن خاقان في القلائد : «وفي ذلك يقول المعتمد يرثيهما ، وقد رأى قمرية بائحةً بشجَنها ، نائحة بفَنَنها على سكنها ، وأمامها وكرٌ فيه طائران ، يردِّدان نغما ويغرِّدان ، ترحة وترنُّماً :

بَكَتْ أَنْ رَأَتْ إِلْفَيْنِ ضَمَّهُمَا وَكْرُ   مَساءً وَقَدْ أَخْنَى عَلَى إِلْفِها الدَّهْرُ

وللمعتمد الأمير المرزّأ في رثاء المأمون والراضي أبيات أخرى أشار فيها إلى ابنه أبي عمرو ، وهو الظافر الذي سيأتي ذكره . وكان الظافر قد قتل في دولة المعتمد فشغل عن رثائه بطلب ثأره . وأما المأمون والراضي فقتلهما المرابطون ، الأوّل في قرطبة ثمَّ الثاني في رُندة . وقد أخذوا قرطبة قبل إشبيلية ورندة بعدها ، ومطلع القصيدة :

يَقُولُون صَبْرٌ ، لاَ سَبيلَ إلى الصَّبْرِ سَأَبْكي وَأَبكي مَا تَطاوَلَ مِنْ عُمْري

وللمعتمد في رثائهما قصيدة أخرى ، مطلعها :

يَا غَيْمُ عَيْنَيَّ أَقْوَى مِنْكَ تَهْتَانَا أَبْكي لِحُزْني وَمَا حُمِّلْتُ أَحْزَانَا

يقول فيها :

وَنَارُ بَرْقِكَ تَخْبُو إِثْرَ وَقْدَتِهَا وَنَارُ قَلْبي تَبْقَى الدَّهْرَ بُرْكَانَا

نَارٌ وَماءٌ صَميمُ القَلْبِ أَصْلُهُمَا مَتَى حَوَى القَلْبُ نيراناً وَطوفَانا ؟

٤ ـ الظافر بن المعتمد :

قدم المأمون بن ذي النون من طليطلة وحاصر قرطبة ، فاستغاث ابنا أبي الوليد محمّد بن جهور بالمعتمد بن عبّاد ، فوجَّه لهم ابنه الظافر بعسكر . فرحل عنهم المأمون بن ذي النون ، وطمع الظافر بهم وأخذ قرطبة منهم . وأقام الظافر ملكاً على قرطبة إلى أنْ دخل عليه بالليل حُرَيْزُ بن عكاشة فقتله ، وهذا من أنصار المأمون بن ذي النون ، فصارت قرطبة إليه . وكان استيلاء المعتمد على قرطبة المرَّة الأولى سنة ٤٦١ هـ ، ثم استولى عليها مرَّة أخرى سنة ٤٧١ هـ وولى عليها ابنه الراضي ، كما مرّ معنا .

٥ ـ عبد الجبّار بن المعتمد :

عبد الجبّار بن المعتمد بن عبّاد ، هو الذي ثار على المرابطين إبّان أسر أبيه وأهله بأغمات ، وتمنّى أن يعيد سلطان بني عبّاد ، فحالت المنيّة دون الأمنية .

امتنع عبد الجبّار هذا في حصن أركُش ، وهو حصن منيع قريب من إشبيلية . فسار إليه قائد المرابطين (سير بن أبي بكر) ، فرابطت جيوشه عند الحصن شهوراً حتى أصاب عبد الجبّار سهم أصماه ، وبقي أهله وأنصاره ممتنّعين بمعقلهم حتى أجهدهم الجوع ، فنزلوا على حكم المرابطين .

أرابت ثورة عبد الجبّار المرابطين ، فضيّقوا على المعتمد وكبّلوه ، فأورثوه حزناً ، فقال من جملة ما قال ، قصيدته التي يقول في مطلعها :

غَنَّتْكَ أَغْمَاتِيَّةُ الأَلْحَانِ ثَقُلَتْ عَلَى الأَرْوَاحِ وَالأَبْدَانِ

٦ ـ المعتدّ بن المعتمد :

لقد مرّ معنا ذكر المعتدّ في قصيدة أبي بكر الإشبيلي في مجلس الرشيد بن المعتمد ، إذ قال :

البَيْتُ كَالبَيْتِ ، لَكِنْ زَادَ ذا شَرَفاً أَنَّ الرَّشيدَ مَعَ «المُعْتَدِّ» رُكْنَاهُ

ومرّ معنا كذلك في أخبار أخيه الراضي أمير رُندة ، وذلك حينما أمره أبوه بالخروج إلى العدوّ فتلكّأ ، فوجّه المعتمد جيشاً يقوده ابنه المعتدّ .

وكذلك ورد ذكره حينما استقلّ والده المعتمد بإشبيلية ، ولّى ابنه المعتد على شلب ، وكذلك لمّا أحيط بالمعتمد في إشبيلية كتب إلى ابنيه الراضي والمعتدّ ليستسلما للمرابطين ، وكان المعتدّ في حصن مارْتُلة ، فلم يسعه هو وأخوه إلّا النزول على حكم أبويهما إشفاقاً عليهما وعلى أهليهما .

٧ ـ أبو هاشم بن المعتمد :

لقد مرَّ معنا أن المعتمد تذكَّر أصغر بنيه أبا هاشم ، حينما اشتدّ البأس وحمي الوطيس يوم الزلّاقة ، وكان أبو هاشم طفلاً ، وأنشد بيتين :

أَبَـا هَـاشِمٍ هَشَمَتْنِي الشِّفَـارُ فَـلِلَّهِ صَـبْرِي لِـذَاكَ الأَوارُ
ذَكَرْتُ شُخَيْصَكَ تَحْتَ العَجَاجِ فَـلَمْ يَثْـنِنِي ذِكْـرُهُ لِـلْفِـرارَ

وسبق أن أشرت إلى أنَّ ابنه أبا هاشم دخل عليه وقد ثقلت القيود برجليه ، فانطلقت حنجرته بأبيات فيها من الحسرات ، والزفرات ما يُصمي ، أوّلها :

قَيْـدي ! أمَـا تعـلمني مُـسلما أبيتَ أن تـشـفـقَ أو تَـرحمـا
دمـي شَرابٌ لـكَ والـلحـم قـد أكـلتـه لا تهشـم الأعـظُما
يُـبصرني فـيـكَ أبـو هـاشـم فـينثـني والـقـلب قـد تهشَّـما
ارحم طفـيـلا طـائشـاً لـبُّـه لم يخش أن يـأتيـك مسـترحما

٨ ـ ٩ ـ شرف الدولة ، وفخر الدولة :

ورد ذكرهما في أحاديث ابن اللبّانة عن بؤس المعتمد وشقائه . وروي أنّه زار المعتمد في أغمات ، فلمّا أزمع الرحيل أرسل إليه المعتمد هديَّة مع ولده شرف الدولة ، وقال ابن اللبّانة : «وهذا من بنيه أحسن الناس سمتاً ، وأكثرهم صمتاً ، تخجله اللفظة ، وتجرحه اللحظة ، حريص على طلب الأدب ، مسارع في اقتناء الكتب ، مثابر على نسخ الدواوين ، مفتح فيها من خطِّه زهر الياسمين .

وأما فخر الدولة فهو الذي رآه الشاعر في دكّان صائغ ينفخ في الفحم ، فتقطّع قلبه كمداً ، وصعَّدت نفسه زفرات في الأبيات التي منها قوله :

لِلنَّفْخِ في الصُّورِ هَوْلٌ مَا حَكَاهُ سِوى هَوْلٍ رَأَيْتُكَ فِيـهِ تَنْفُخُ الفَحْـمَا
وَدِدْتُ إِذْ نَظَرَتْ عَيْني إِلَيْكَ بِهِ لَوْ أَنَّ عَيْنِيَ تَشْكُو قَبْلَ ذَاكَ عَمَى

١٠ ـ بثينة بنت المعتمد :

جاء على ذكرها صاحب نفح الطيب ، وهو يذكر أديبات الأندلس ، فقال : «ومنهنَّ بثينة بنت المعتمد بن عبّاد ، وأمّها الرميكيّة» ، وكانت بثينة هذه نحواً من أمِّها في الجمال والنادرة ونظم الشعر .

ولمّا أحيط بأبيها ووقع النهب في قصره . كانت في جملة من سُبي . ولم يزل المعتمد والرميكيّة عليها في وَلَهٍ دائم ، لا يعلما ما آل إليه أمرها ، إلى أن كتبت إليهما بالشعر المشهور المتداول بين الناس بالمغرب ، وهو كما روي :

«كان أحد تجار إشبيلية اشتراها على أنّها جارية سريّة ، ووهبها لابنه . فنظر من شأنها ، وهُيِّئت له . فلمّا أراد الدخول بها امتنعت وأظهرت نسبها وقالت : لا أحلُّ لك إلاّ بعقد نكاح إنْ رضي أبي بذلك . وأشارت عليهم بتوجيه كتاب من قبلها لأبيها ، وانتظار جوابه . فكان الذي كتبته بخطّها ومن نظمها ما يلي :

اسْمَعْ كَلامي ، وَاسْتَمِـعْ لِمَقالَتي	فَهْيَ السُّلوكُ بَدَتْ مِنَ الأَجْيَادِ
لاَ تُنكِـروا أَنِّي سُبيـتُ وَأَنَّـني	بِنْـتٌ لِمَلْكٍ مِنْ بَني عَبَّـادِ
مَلِكٌ عَـظيمٌ قَدْ تَـوَلَّى عَصْـرُهُ	وَكَـذَا الـزَّمَـانُ يؤُولُ لِـلإِفْسَـادِ
لَمَّـا أرادَ الله فُـرْقَـةَ شَـمْلِنَـا	وَأَذَاقَـنَـا طَعْـمَ الأَسَى مِنْ زَادِ
قَـامَ النِّفاقُ عَـلَى أبي في مُلْكِهِ	فَـدَنَا الفِـراقُ وَلَمْ يَكُنْ بمُـرادِ
فَخَـرَجْتُ هَاربَـةً فَحـازَني امْـرُؤٌ	لَمْ يَـأْتِ في أَفْعَـالِـهِ بِسَـدادِ
إذْ بَـاعَني بَيْـعَ العَبيـدِ فَضَمَّني	مَنْ صَـانَني إلاَّ مِـنَ الأَنْكَـادِ
وَأَرَادَني لِنِكـاحِ نَجْـلٍ طَـاهِـرٍ	حَسَنِ الخَلاَئِقِ مِنْ بَني الأَنْجَادِ
وَمَضَى إِلَيْكَ يَسُومُ رَأْيَكَ في الرِّضَا	وَلأَنْتَ تَنْـظُرُ في طَـريقِ رَشَـادِ
فَعَسَـاكَ يَـا أَبَتي تُعَـرِّفُني بِـهِ	إِنْ كَـانَ مِمَّـنْ يُـرْتَجى لِـوِدادِ
وَعَسى رُمَيكيـةُ المُلوكِ بِفَضْلِهَـا	تَـدْعُـو لَنَـا بِـالخَـيْرِ وَالإِسْعَادِ

فلما وصل شعرها لأبيها وهو بأغمات ، واقع في شراك الكروب ، والأزمات ، سُرَّ هو وأمّها بحياتها ، ورأيا أنّ ذلك للنفس من أحسن أمنياتها ، إذ علما مآل أمرها وجبر كسرها . إذ ذاك أخفُّ الضررين ، وإن كان الكرب قد ستر القلب منه حجاب زين . وأشهد على نفسه بعقد نكاحها من الصبي المذكور ، وكتب إليها أثناء كتابه ما يدل على حسن صبره المشكور :

بُنَيَّتي ! كُوني بِهِ بَرَّةً فَقَدْ قَضَى الدَّهْرُ بِأَسْعَادِ

١١ - أولاد آخرون :

وقد مرّ معنا أنّ بنات المعتمد دخلن عليه يوم عيد في أغمات ، وهن في أطمار بالية ، يكسوهن الشحوب والاكتئاب ، والذل والحزن ، فأنشأ أبياته التي مطلعها :

فيمَا مَضَى كُنْتَ بِالأَعْيَادِ مَسْرُورا فَسَاءَكَ العيدُ في أَغْمَاتَ مَأْسُورا
تَرَى بَنَاتِكَ في الأَطْمَارِ جَائِعةً يَغْزِلْنَ لِلنَّاسِ مَا يَمْلِكْنَ قِطْميرا

إذاً فقد كان له وهو في الأسر بنات كبار يغزلن للناس .

ويقول المعتمد في الأبيات التي أنشأها حين دخل عليه ابنه أبو هاشم ، وهو مغلول مكبَّل ، مخاطباً قيده :

ارْحَمْ طُفَيْلاً طَائِشاً لُبُّهُ لَمْ يَخْشَ أَنْ يَأْتيكَ مُسْتَرْحِما
وَارْحَمْ أُخَيَّاتٍ لَهُ مِثْلُهُ جرعْتَهُنَّ السم والعلقما
منهنّ من يفهم شيئا فقد خفنا عليه للبكاء العمى
والغير لا يفهم شيئاً فما يفتح إلاّ للرضاع فما

وهذا القول يدلنا على أنه كان للمعتمد أيام محنته أطفال ترعرعوا وشبوا ، وأطفال لا يزالون رضّعاً .

وهكذا انتهى هذا السِفرُ بعون الله تعالى فالحمد لله على توفيقه .

علي

محتوى الجزء الرابع

فهرس أعلام الرجال والنساء

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

الخلفاء أو أبناء الخلائف الأمويون في الأندلس

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاء

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

فهرس أعلام القبائل والشعوب والفرق والممالك

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاء

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الواو

حرف الياء



فهرس الأماكن والمدن

حرف الهمزة

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاء

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

الآيات القرآنية الكريمة

اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
التوبة	٤٠/٩	١٣٧

فهرس الأسجاع والأقوال المأثورة



فهرس المواقع والمعارك والغزوات والثورات

فهرس الأشعار والأراجيز

قافية الهمزة

قافية الألف

قافية الباء

قافية التاء

قافية الجيم

قافية الحاء

قافية الدال

قافية الراء

أذلُّ بني ماءِ السماء زمانهُم	كبيرُ	٦
فياليت شعري هل أبيتن ليلةً ؟	وغديرُ	٦
بمنبتة الزيتون مورقة العلا	طيور	٦
بزاهرها السامي الذي جده الحيا	ونشير	٦
ويلحظنا الزاهي وسعدُ سعوده	غيورُ	٦
تراه عسيراً لا يسيراً منالُه	يسيرُ	٦
رويدك سوف توسعني سروراً	للسرير	٦
وليل بسد النهر أنساً قطعته	النهر	٠
نضت بُردها عن غصن بان منعم	الزهرِ	٠
الدهر يفجع بعد العين بالأثر	والصورِ	١
أقلّوا ملامي ، أو فقولوا وأكثروا	يقصرُ	١
لثكلك كيف تبتسم الثغور	ثغورُ	١
لا يكرثنك خطب الحادث الجاري	من عارِ	٥
ماذا على ضيغم أمضى عزيمته	وأظفار	٥
لئن أتوك فمن جبنٍ ومن خورٍ	الضاري	٥
عليك للناس أن تبقى لنصرتهم	أقدارِ	٥
لو يعلم الناس فيما أن تدوم لهم	عاري	٥
ولو أطاقوا انتقاضاً من حياتهم	أعمار	.٥
الملك في طي الدفاتر	العساكرْ	.٦
مولاي قدْ أصبحت كافرْ	الدفاترْ	.٦
وفللت سكين الدواة	كاسرْ	.٦
وعلمت أن الملك ما	والبواترْ	.٦
والمجد والعلياء في	بالعساكرْ	.٦
لا ضرب أقوال بأقوال	مناكرْ	،٦
قد كنت أحسب من سفاه	المفاخرْ	،٦
فإذا بها فرع لها	عاذرْ	،٦
لا يدركِ الشرف الفتى	وباترْ	،٦
وهجرتُ من سميتهم	أكابرْ	،٦
لو كنتَ تهوى ميتتي	هاجرْ	،٦
ضحك الموالي بالعبيد	ضائرْ	،٦
إن كان لي فضل فمنك	ساترْ	،٦

قافية السين

قافية الضاد

قافية الكاف

قافية اللام

قافية الميم

قافية النون

قافية الهاء

قافية الياء

فهرس المراجع

الهمزة

١ أبو فراس شاعر بني حمدان — عمر فروخ

٢ أبو فراس الحمداني — د . أحمد أبو حاقة

٣ أبو فراس الحمداني — د . سامي الدهان

٤ أخبار الراضي بالله والمتقي بالله — مجموعة من الناشرين

٥ أخبار النساء — لابن قيم الجوزية

٦ أخبار وتراجم أندلسية — السلفي

٧ الأخبار — علي بن محمد بن سليم النوفلي

٨ أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام — بطرس البستاني

٩ أدب العرب في الأندلس وعصر الانبعاث — بطرس البستاني

١٠ أدب الدنيا والدين — أبو الحسن الماوردي

١١ أزهار الرياض — دار الكتب

١٢ أزمة الفكر السياسي الإسلامي — د . عبد الحميد متولي

١٣	الإسلام والنصرانيه	الإمام محمد عبده
١٤	أسامة بن منقذ	قمر كيلاني
١٥	أشعار أولاد الخلفاء	أبو بكر الصولي
١٦	أشعار أولاد الخلفاء	السيوطي
١٧	إتحاف السادة المتقين	الزبيدي
١٨	الأوسط	الطبراني
١٩	الأفراد	الدارقطني
٢٠	الأمالي	أبو علي القالي
٢١	أمالي	المرتضى
٢٢	إعجاز القرآن	للباقلاني
٢٣	أمثال العرب	المفضل بن محمد الضبي
٢٤	الأمير تميم بن المعز	محمد عبد الغني حسن

الألف

٢٥	البداية والنهاية	ابن كثير
٢٦	الأحاديث الصحيحة	جمعه الباني
٢٧	الأحكام السلطانية	أبو الحسن الماوردي
٢٨	الأخبار المنشوره	ابن دريد
٢٩	الأعلام	خير الدين الزركلي
٣٠	الإعتماد في أخبار بني عباد	أبو بكر الداني (ابن ال
٣١	الأدب في العصر الفاطمي	د . محمد زغلول سلا
٣٢	الأدب الأندلسي	جودة الركابي
٣٣	الأمويون والخلافه	د . حسين عطوان

٣٤ الإصابة في معرفة الصحابة	الحافظ بن حجر العسقلاني
٣٥ الأغاني	أبو الفرج الأصفهاني
٣٦ الإمامه والمفاضلة	الإمام أبو محمد بن حزم
٣٧ الإمامه	محمد بن جعفر الرافضي
٣٨ البديع	عبدالله بن المعتز
٣٩ البيان والتبيين	عمرو بن بحر الجاحظ
٤٠ البيان المغرب في حلى المغرب	ابن عذاري المراكشي
٤١ التاريخ الإسلامي	محمود شاكر
٤٢ التاريخ العباسي	د . أحمد مختار العبادي
٤٣ التاريخ العباسي والفاطمي	د . إبراهيم أيوب
٤٤ التاريخ العربي قبل الإسلام	جواد علي
٤٥ التفكير الفلسفي في الإسلام	مكتبة الانجلو المصرية
٤٦ التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان	محمد بن يحيى الأشعري المالكي
٤٧ التهذيب	الإمام النووي
٤٨ التهذيب	المازني
٤٩ الترغيب والترهيب	المنذري
٥٠ التراتيب الإدارية	الكتاني
٥١ الجذور التاريخية	د . حسن حنفي
٥٢ الجامع	ابن الكلبي
٥٣ الحاكم بأمر الله	مصر ١٩٥٩
٥٣ الحديقة	أبو الصلت أمية بن عبد العزيز

٥٤ الحلة السيراء — ابن الأبار

٥٥ الحلية — ابو نعيم

٥٦ الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلاميه د . محمد جمال الدين سرور

٥٧ الحيوان — أبو عمروبن بحر الجاحظ

٥٨ الخليفة المفترى عليه — الشيخ محمد صادق عرجون

٥٩ الخطط — المقريزي

٦٠ الخريده — ابن بسام

٦١ الدلائل — البيهقي

٦٢ الدلائل — أبو نعيم

٦٣ الدولة الحمدانية في الموصل وحلب — د . فيصل السامر

٦٤ الديمقراطية في فلسفة الحكم العربي — د . عبد العزيز الدوري

٦٥ الديمقراطية وحقوق الإنسان — د . عبد العزيز الدوري

٦٦ الدكتاتورية (لموريس دو فرجيه) — ترجمة د . جمال متولي

٦٧ ديوان المبتدأ والخبر — ابن خلدون

٦٨ الذخيرة — ابن بسام

٦٩ الروض الأنف — دار الكتب

٧٠ الروض الباسم في الذبِّ عن سنة أبي القاسم محمد بن إبراهيم الوزير اليمني

٧١ الروض المعطار — عبدالله الحميري الأندلسي

٧٢ السنن — ابن ماجة

٧٣ السنن الكبرى — البيهقي

٧٤ السيرة النبوية — ابن هشام

٧٥	الشعر والشعراء	ابن قتيبة
٧٦	الصديق أبو بكر	محمد حسين هيكل
٧٧	الصحاح	ابو بكر الرازي
٧٨	الصلة	ابن بشكوال
٧٩	طبقات الشعراء	ابن سلام الجحمي
٨٠	الطاغية (سلسلة عالم المعرفة العدد ١٨٣)	د . إمام عبد الفتاح
٨١	الطريق إلى دمشق	أحمد عادل كمال
٨٢	الطبقات	أبو اسحاق
٨٣	العمدة في محاسن الشعر ونقده	ابن رشيق القيرواني
٨٤	العقد الفريد	ابن عبدربه الأندلسي
٨٥	العواصم من القواصم	القاضي أبو بكر بن العربي
٨٦	الغيلانيات	أبو بكر الشافعي
٨٧	الفتح المبين من طبقات الأصوليين	عبدالله المراغي
٨٨	الفن ومذاهبه في الشعر العربي	د . شوقي ضيف
٨٩	الفهرس	ابن النديم
٩٠	الفوائد	للديرعاقولي
٩١	الكامل في التاريخ	لابن الأثير
٩٢	الكامل	ابن عدي
٩٣	الكبير	للطبراني
٩٤	المخصوص في المنتقى من النصوص	دار الكتب
٩٥	المسند	ابن منيع
٩٦	المسند	الإمام أحمد بن حنبل

٩٧ المستدرك عن السدري	دار الكتب
٩٨ المستدرك	للحاكم
٩٩ المختار من شعر بشار	لجنة الترجمة والنشر
١٠٠ المعجب	عبد الواحد المراكشي
١٠١ المعجب في تلخيص أخبار العرب	عبد الواحد المراكشي
١٠٢ المعارف المتأخرة	محمد بن عبد الملك الهمداني
١٠٣ المعتمد بن عباد الملك المجواد الشجاع	د . عبد الوهاب عزام
١٠٤ المعلقات السبع	الزوزني
١٠٥ المعلقات العشر	الشنقيطي
١٠٦ المصنف	ابن أبي شيبه
١٠٧ المظفري	المظفر أبو بكر بن الأفطس
١٠٨ المغني عن حمل الأسفار	للعراقي
١٠٩ المغازي	ابن إسحاق
١١٠ المغازي من الصحيح	للبخاري
١١١ الملل والنحل	للشهرستاني
١١٢ الملوك الشعراء	لجبرائيل جبور
١١٣ الموطأ	للإمام ابن مالك
١١٤ الموازنة بين الطائيين	للآمدي
١١٥ الموشح	للمرزباني
١١٦ المنتخب	لابن قشده
١١٧ النجوم الزاهره	أبو المحاسن
١١٨ النظريات السياسية والإسلامية	محمد ضياء الدين الريس

١١٩ النظم الاسلامية	د . صبحي الصالح
١٢٠ الوزراء والكتاب	للجهشياري
١٢١ الوثائق السياسية والإدارية للعصر الأموي	د . محمد ماهر حمادة
١٢٢ الوليد بن يزيد	د . حسن عطوان

حرف الباء

١٢٣ باشاوات وسوبر باشوات صورة مصر في عصرين	د . حسين مؤنس
١٢٤ بدائع البدايه	
١٢٥ بغية الملتمس	

حرف التاء

١٢٦ تاريخ الخلفاء	للسيوطي
١٢٧ تاريخ الطبري	للطبري
١٢٨ تاريخ ابن عساكر	لابن عساكر
١٢٩ تاريخ الخلفاء أو الإمامة والسياسة	ابن قتيبة
١٣٠ تاريخ العرب	فليب حتي
١٣١ تاريخ العرب قبل الإسلام	جرجي زيدان
١٣٢ تاريخ اللغات السامية	لرينان
١٣٣ تاريخ الأدب العربي (بعصوره المختلفة)	د . شوقي ضيف
١٣٤ تاريخ الأدب العربي	لأحمد حسن الزيات
١٣٥ تاريخ الأمم الإسلامية	للخضري
١٣٦ تاريخ بغداد	للخطيب البغدادي

١٣٧ تاريخ ابن خلدون	ابن خلدون
١٣٨ تاريخ الأدب العربي	د . طه حسين
١٣٩ تاريخ الذهبي	للذهبي
١٤٠ تاريخ دمشق	للحافظ ابن عساكر
١٤١ تاريخ القاهرة	للعالم لان بول
١٤٢ تاريخ القرآن	أبو عبدالله الزنجاني
١٤٣ تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا	د . حسن إبراهيم
١٤٤ تاريخ التمدن الإسلامي	جرجي زيدان
١٤٥ تاريخ الأمم والملوك	محمد بن جرير الطبري
١٤٦ تاريخ الشعوب الإسلامية	لبرو كلمان
١٤٧ تاريخ الشعوب الإسلامية	فيليب حتى
١٤٨ تاريخ الرسل والملوك	فيليب حتي
١٤٩ تاريخ العرب والإسلام	لليعقوبي
١٥٠ تاريخ حلب	لليعقوبي
١٥١ تاريخ الإسلام	الحافظ الذهبي
١٥٢ تاريخ الصابي	ثابت بن سنان الصابي
١٥٣ تاريخ الأدب العربي	حنا الفاخوري
١٥٤ تاريخ حياة العرب	نكلسون
١٥٥ تاريخ حياة الفرس	براون
١٥٦ تاريخ العرب في إسبانيا	خالد الصوفي
١٥٧ تاريخ مصر	لان بول

١٥٨ تاريخ المسلمين في إسبانيا	لدوزي
١٥٩ تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة	د . إحسان عباس
١٦٠ تاريخ إسبانيا المسلمة	لبروفنسال
١٦١ تاريخ العرب	فيليب حتى
١٦٢ تجريد الأغاني	
١٦٣ تجديد الفكر العربي	د . زكي نجيب محمود
١٦٤ تقريب التهذيب	محمد بن أحمد بن الأزهر
١٦٥ تقريب التهذيب	محمد بن أحمد بن الأزهر
١٦٦ تفسير الطبري	للطبري
١٦٧ تهذيب اللغة	محمد بن أحمد بن الأزهر
١٦٨ تهذيب التهذيب	محمد بن أحمد بن الأزهر
١٦٩ تهذيب الأسماء واللغات	للإمام النووي

حرف الجيم

١٧١ جمهرة الأنساب	لابن الكلبي
١٧٠ جذوة المقتبس	
١٧٢ جمهورية الخوف	سمير خليل وأحمد رائف
١٧٣ الجمهرة	لأبي زيد القرشي

حرف الحاء

١٧٤ حسن المحاضرة	جلال الدين السيوطي
١٧٥ حياة الحيوان الكبرى	للدميري

حرف الخاء

١٧٦ خطط الشام — ابن عساكر
١٧٧ خطط المقريزي — للمقريزي
١٧٨ خلاصة تهذيب الكمال — للمقريزي

حرف الدال

١٧٩ دائرة معارف قصة الأدب في الأندلس — محمد عبد المنعم خفاجه
١٨٠ دلائل النبوه — للبيهقي
١٨١ ديوان الوليد بن يزيد — د . حسن عطوان
١٨٢ ديوان الأخطل — دار صادر
١٨٣ ديوان البحتري — حسن كامل الصيرفي
١٨٤ ديوان ابن المعتز — دار صادر
١٨٥ ديوان أبي فراس — تحقيق د . سامي الدهان
١٨٦ ديوان التحقيق — محمد عبدالله عنان
١٨٧ ديوان المعتمد بن عباد — د . عبد الوهاب عزام
١٨٨ ديوان امرؤ القيس — القاهرة
١٨٩ ديوان تميم بن المعز — القاهرة

حرف الذال

١٩٠ ذيل الأمالي — أبو علي القالي
١٩١ ذيل تاريخ دمشق — للفلانسي

حرف الراء

١٩٢ رسالة الجاحظ	تحقيق عبد السلام هارون
١٩٣ رسالة في النابتة للجاحظ	دار مكتبة الهلال
١٩٤ رئيس الدولة بين النظم المعاصرة والفكر السياسي الإسلامي	د . محسن العبودي
١٩٥ الرسالة التوحيدية	للشيخ محمد عبده
١٩٦ رسالة جامعية	هلدا شعبان
١٩٧ رواة مالك	للخطيب
١٩٨ ريحانة الألباء وزهرة الحياة الدنيا	لشهاب الدين أحمد بن محمد

حرف الزاء

١٩٩ زبدة الحلب	بيروت
٢٠٠ زهر الآداب	للقيرواني
١٠٢ زوائد الزهد	عبدالله بن أحمد

حرف السين

٢٠٢ سرح العيون	الحاكم المحسن بن كرامة المعتزلي
٢٠٣ سعد السعود	علي بن موسى المعروف بابن طاووس
٢٠٤ سير النبلاء	ابن الأثير
٢٠٥ سيرة ابن هشام	مطبعة بولاق
٢٠٦ سنن أبي داوود	مطبعة بولاق

٢٠٧ سنن الترومذي	مطبعة بولاق
٢٠٨ سيرة عمر بن الخطاب	عباس محمود العقاد

حرف الشين

٢٠٩ شذرات الذهب	لابن العماد
٢١٠ شعراء النصرانية	لويس شيخو
٢١١ شعراء المغرب	
٢١٢ شرح المعلقات السبع	الزوزني
٢١٣ شرح المعلقات العشر	الشنقيطي
٢١٤ شرح السنة	للبغوي
٢١٥ شرح السنة	اللكائي
٢١٦ شعر الوليد بن يزيد	د . حسن عطواني

حرف الصاد

٢١٧ صبح الأعشى في صناعة الإنشا	القلقشندي
٢١٨ صحيح مسلم والبخاري	مطبعة بولاق
٢١٩ صحيح مسلم	مطبعة بولاق
٢٢٠ صحيح البخاري	مطبعة بولاق

حرف الضاد

٢٢١ ضحى الإسلام	لأحمد أمين

حرف الطاء

٢٢٢ طبقات الشافعيه الكبرى	التاج السبكي

٢٢٣ طبقات الشعراء	محمد بن سلام الجحمي
٢٢٤ طبقات الشعراء المحدثين	عبدالله بن المعتز

حرف العين

٢٢٥ عبقرية الإسلام	للعجلاني
٢٢٦ عبقرية علي	لعباس محمود العقاد
٢٢٧ عصر المأمون	دار الحياة
٢٢٨ علل الحديث	ابن حاتم الرازي
٢٢٩ عيون الأخبار	عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري

حرف الغين

٢٣٠ غزوات العرب	دار الحياة

حرف الفاء

٢٣١ فارس بني حمدان وشاعرهم	د . عمر فروخ
٢٣٢ فتح الباري	لابن حجر
٢٣٣ فتوح البلدان	للبلاذري
٢٣٤ فجر الإسلام	أحمد أمين
٢٣٥ فتى العرب العدد ٢٣٥ أول آذار ١٩٣٣ ص ١١	معروف الأرناؤوط
٢٣٦ فريدة القصر	دار الكتاب
٢٣٧ فضائل الصحابه	لخيثمة
٢٣٨ فقه الخلافة الإسلامية وتطورها	الدكتور السنهوري

٢٣٩ الفِصَل	للإمام بن حزم
٢٤٠ فوات الوفيات	ابن خلكان

حرف القاف

٢٤١ قصة الأدب في الأندلس	محمد عبد المنعم خفاجي
٢٤٢ قلائد الجمان وفرائد الزمان (مخطوط)	علي المصري
٢٤٣ قلائد العقيان	دار الكتاب
٢٤٤ قيام الدولة الأموية	بدوي عبد اللطيف

حرف الكاف

٢٤٥ كتاب الصله	ابن بشكوال
٢٤٦ كتاب الحدائق	أبو عمر بن محمد بن فرج
٢٤٧ كتاب العظمة	أبو الشيخ
٢٤٨ كتاب الفوائد	لأبي تمام الرزاي
٢٤٩ كرامات الأولياء	ابن الأعرابي
٢٥٠ كنز العمال	للهندي

حرف اللام

٢٥١ لسان العرب	ابن منظور
٢٥٢ لسان ميزان الاعتدال	مطبعة بولاق
٢٥٣ لمح الململح	علي بن القطاع

حرف الميم

٢٥٤ مجمع الأمثال	أبو الفضل الميداني
٢٥٥ مجمع الأمثال	للهيثمي

٢٥٦ مجمع الأمثال	للميداني
٢٥٧ مجمع الزوائد	للهيثمي
٢٥٨ محرر الرقيق سليمان بن عبد الملك	محمد حسن عواد
٢٥٩ معجم الشعراء	للمرزباني
٢٦٠ معجم الأدباء	لياقوت الحموي
٢٦١ معجم البلدان	لياقوت الحموي
٢٦٢ معجم الصحابة	للبغوي
٢٦٣ معجم الأعلام	خير الدين الزركلي
٢٦٤ معاهد التنصيص	لابن العباسي
٢٦٥ محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية	للخضري
٢٦٦ مسند ابن أبي أسامه	طبعة بولاق
٢٦٧ مسند عبد الرحمن بن حميد	طبعة بولاق
٢٦٨ مسند الفردوسي	للديلمي
٢٦٩ مسند الإمام أحمد بن حنبل	الطبعة الأولى
٢٧٠ مسند أبو داوود الطيالسي	للطيالسي
٢٧١ مسند أبو يعلي	
٢٧٢ مروج الذهب	للمسعودي
٢٧٣ مشكاة المصابيح	للتبريزي
٢٧٤ مصنف ابن أبي شيبة	
٢٧٥ مصر في عصر الدولة الفاطمية	د . محمد جمال الدين سرور
٢٧٦ مطمح الأنفس ومسرح التأنس	ابن خاقان
٢٧٧ ملوك الطوائف (الدوزي)	ترجمة كامل الكيلاني

٢٧٨ منهاج السنة — لابن تيمية
٢٧٩ ميزان الاعتدال

حرف النون

٢٨٠ نظم الحكم في الإسلام — د . محمد يوسف موسى
٢٨١ نظم الحكم المعاصرة — د . محمد الشافعي
٢٨٢ نظم السلوك في مواعظ الملوك — ابن اللبانة
٢٨٣ نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب — للمقري
٢٨٤ نقد الشعر — للقيرواني
٢٨٥ نهاية الأرب في فنون الأدب — شهاب الدين النويري

حرف الواو

٢٨٦ وفيات الأعيان — لابن خلكان

حرف الياء

٢٨٧ يتيمة الدهر — للثعالبي

الكتب الصادرة للأديب علي المصري

آ ـ في مجال الدراسات والبحوث :

١ ـ دراسة عن المتنبي ـ جامعة دمشق ١٩٦٧ .

٢ ـ دراسة عن البحتري ـ جامعة دمشق ١٩٦٨ .

٣ ـ دراسة عن الجاحظ بعنوان الإضحاك عند الجاحظ ـ جامعة دمشق ١٩٦٨ .

٤ ـ دراسة عن أبي نواس ـ جامعة دمشق ١٩٦٩ .

٥ ـ قبس من شهاب جبران ـ بيروت ١٩٧٠ .

٦ ـ رحلة شوق مع نزار قباني بيروت الطبعة الأولى ١٩٧٧ الطبعة الثانية دمشق ١٩٨٣ دار الكتاب العربي «رسالة ماجستير» .

٧ ـ شعراء الغزل في ديوان شعر المملكة العربية السعودية ، تتضمن دراسة لفن الغزل عند خمسة وأربعين شاعراً وشاعرة دمشق ، دار المجد ١٩٨١ «مشروع دراسة لنيل درجة الدكتوراه» .

٨ ـ أخطار المراهقة ـ دمشق دار الكتاب العربي ١٩٩٤ .

٩ ـ طرائف أبي نواس ونوادره ـ دمشق دار الكتاب العربي ١٩٩٤ .

١٠ ـ الخطوبة عبر أسفار الزمن ـ دمشق ـ دار الكتاب العربي ١٩٩٤ .

١١ ـ ملوك العرب الشعراء ، خمسة أجزاء ـ دمشق دار الكتاب العربي ١٩٩٥ .

١٢ ـ قلائد الجمان وفرائد الزمان في طرائف الأدب ونوادره في نيفٍ وعشر مجلدات ، صدر منه الجزء الأول دمشق دار الكتاب العربي ١٩٩٥ .

١٣ ـ في رحاب الفكر والأدب ، دراسات نقدية لمجموعة من الشعراء والأدباء ، صادر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق ١٩٩٦ .

١٤ ـ الشعر النبطي في حوران شعراء ونماذج ـ دمشق دار حوران للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٩٦ .

ب ـ في مجال المسرح :

١ ـ تحليل لمسرحية غادة آفاميا ـ بيروت ـ مؤسسة الرسالة ١٩٧٦ .

٢ ـ تحليل لمسرحية دير ياسين ـ بيروت ـ مؤسسة الرسالة ١٩٧٨ .

٣ ـ تحليل لمسرحية مأساة الحلاج ـ بيروت ـ مؤسسة الرسالة ١٩٧٩ .

٤ ـ تحليل لمسرحية الأقنعة ـ دمشق . دار المجد ١٩٨٠ .

جـ ـ في مجال القصة والرواية :

١ ـ رواية شعرية بعنوان بعد الوادع ـ دمشق دار الكتاب العربي ١٩٩٣ .

٢ ـ الحب الأخير قصة طويلة قيد الطبع ـ دمشق دار الكتاب العربي .

د ـ في مجال التحقيق :

١ ـ ومضات في ديوان العواد ، تحقيق وشروح لثلاثة دواوين هي : «آماس وأطلاس ـ البراعم أو بقايا الأماس ـ نحو كيان جديد للشاعر محمد حسن عواد ـ دمشق ـ دار مجلة الثقافة ١٩٧٩ .

٢ ـ مع الأنغام المضيئة ، تحقيق وشروح لديوان الأنغام المضيئه للشاعر محمد أحمد العقيلي ـ دمشق ـ دار المجد ١٩٨٠ .

هـ ـ في المجال العلمي :

١ ـ تربية الدواجن ، أحدث طرق تربية الفروج والبياض ، حضانتها وتغذيتها ، أمراض التغذية ـ بيروت مؤسسة الرسالة ١٩٨١ .

٢ ـ المرجع في أمراض الدواجن ، تشخيصها ، معالجتها ، والوقاية منها بيروت مؤسسة الرسالة ١٩٨٢ .

٣ ـ الأمراض الباطنية عند حيوانات المزرعة ، تشخيصها ، ومعالجتها ، والوقاية منها دار الكتاب العربي دمشق ١٩٨٣ طبعتان .

٤ ـ مملكة نحل العسل ومنتجاتها ، وأمراض النحل ، تشخيصها ومعالجتها دمشق دار الكتاب العربي ١٩٨٦ ثلاث طبعات آخره ١٩٩٣ .

٥ ـ الأمراض المشتركة السارية بين الإنسان والحيوان ، تشخيصها ومعالجتها ، الوقاية منها ـ القاهرة دمشق ١٩٨٨ ـ ١٩٩٥ .

و ـ تحت عجلات المطابع :

١ ـ طرفه بن العبد ، حياته وشعره .

٢ ـ النابغة الذبياني في فنونه الشعرية .

٣ ـ ديوان أبي العتاهية ، حياته وشعره .

٤ ـ ديوان صفي الدين الحلي ، حياته وشعره .

٥ ـ جميل بثينة ، حياته وشعره .

٦ ـ حافظ إبراهيم ـ حياته وشعره .

ز - في مجال الترجمه :

١ - حرب المياه القادمة للدكتور السمان .

٢ - رواية آيات شيطانيه لسلمان رشدي .

٣ - حياتنا الجنسية ومشكلاتها للدكتور فريدريك كهن ، مازال مخطوطاً .

٤ - الزواج المثالي لمؤلفه فان دفلد «ملخص» مازال مخطوطاً .

علي المصري

درعا

فهرس المواضيع

محتوى الجزء الأول

محتوى الجزء الثاني

محتوى الجزء الثالث

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الدور العباسي الرابع

محتوى الجزء الرابع

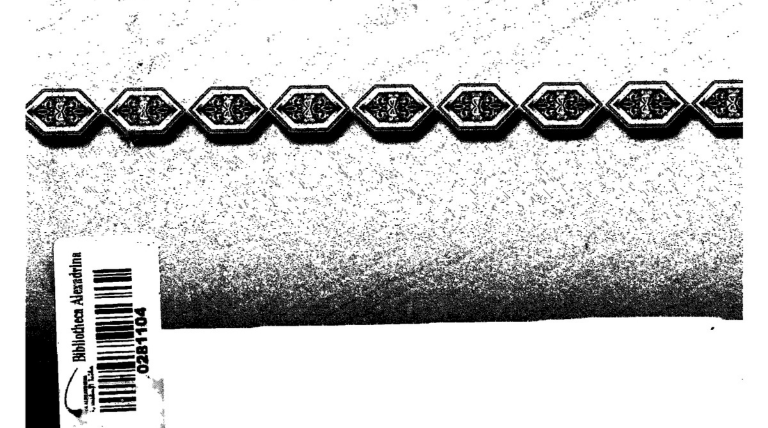
الفصل الأول

الفصل الثاني

الشاعر تميم بن المعزّ لدين الله معدّ

محتوى الجزء الخامس

الفصل الأول


Bibliotheca Alexandrina
0281104